مفتاح الجنة

شرح

عقيدة أهل القرآن والسنة

إعداد

الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

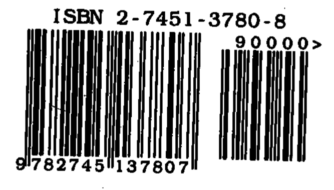
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P.: 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3780-8



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

بما أننى أحظى بشرف رئاسة وتأسيس جمعية أهل القرآن والسنة، لذلك أردت أن أكتب عن عقيدة أهل القرآن والسنة، لذلك أقدم لك عزيزى القارىء كتابنا (مفتاح الجنة شرح عقيدة أهل القرآن والسنة) اقرأ وتدبر ولله الحمد والمنة.

الشيخ/ على أحمد عبد العال الطهطاوى

رئيس أهل القرآن والسنة

تمهيد

العقيدة لغةً: من العقد، والتوثيق، والإحكام، والربط بقوة.

واصطلاحًا: الإيمان الجازم الذى لا يتطرّق إليه شكّ لدي معتقده.

فالعقيدة الإسلامية تعنى:

الإيمان الجازم بالله - تعالى - وما يجب له من التوحيد والطاعة - وبملائكته؛ وكتبه؛ ورسله ؛ واليوم الآخر ؛ والقدر ؛ وسائر ما ثبت من أمور الغيب، والأخبار، والقطعيات، علمية كانت أو عملية.

السلف: هم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى فى القرون الثلاثة المفضّلة، ويُطلق على كل من اقتدى بهؤلاء وسار على نهجهم فى سائر العصور: سلفى، نسبة إليهم.

أهل السنة والجماعة: هم من كان على مثل ما كان عليه النبى ﷺ، وأصحابه.

وسموا أهل السنة: لاستمساكهم واتباعهم لسنة النبى ﷺ.

وسموا الجماعة: لأنهم الذين اجتمعوا على الحق ؛ ولم يتفرقوا فى الدين، واجتمعوا على أئمة الحقّ ؛ ولم يخرجوا عليهم. واتبعوا ما أجمع عليه سلف الأمة.

ولما كانوا هم المتّبعين لسنة رسول الله ﷺ، المقتفين للأثر ؛ سموا «أهل الحديث». و«أهل الأثر». و «أهل الاتباع» ويُسَمّون «الطائفة المنصورة». و«الفرقة الناجية».

* * *

أولاً: قواعد وأصول في منهج التلقي والاستدلال

١- مصدر العقيدة هو كتاب الله - تعالى-، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، وإجماع السلف الصالح.

٢- كل ما صحّ من سنة رسول الله ﷺ وجب قبوله وإن كان آحادًا.

٣- المرجع في فهم الكتاب والسنة، هو النصوص المبينة لها، وفهم السلف الصالح، ومن سار على منهجهم من الأئمة، ثم ما صَحّ من لغة العرب، لكن لا يُعارض ما ثبت من ذلك بمجرد احتمالات لغوية.

٤- أصول الدين كلّها قد بينها النبي ﷺ، وليس لأحد أن يُحدث شيئًا زاعمًا أنه من الدين.

٥- التسليم لله - تعالى-، ولرسوله ﷺ، ظاهرًا، وباطنًا، فلا يُعَارَض شيء من الكتاب، أو السنة الصحيحة بقياس، ولا ذوقٍ، ولا كشفٍ ولا قول شيخ، ولا إمام، ونحو ذلك.

٦- العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، ولا يتعارض قطعيّان منهما أبدًا، وعند توهّم التعارض يُقدّم النقل.

٧- يجب الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة، وتجنب الألفاظ البِدْعيّة.

والألفاظ المجملة المحتملةُ للخطأ والصواب، يُسْتَفْسَر عن معناها، فما كان حقًّا أثبت بلفظه الشرعي، وما كان باطلاً رُدّ.

٨- العصمة ثابتة للرسول ﷺ، والأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة. وأما آحادها فلا عصمة لأحد منهم. وما اختلف فيه الأئمة وغيرهم فمرجعه إلى الكتاب والسنة، مع الاعتذار للمخطىء من مجتهدي الأمة.

٩- في الأمة محدَّثون ملهمون، والرّؤيا الصالحة حقّ، وهي جزء من

النبوة، والفراسة الصادقة حقّ، وهذه كرامات ومبشرات - بشرط موافقتها للشرع- وليست مصدراً للعقيدة ولا للتشريع.

١٠- المراء فى الدين مذموم، والمجادلة بالحسنى مشروعة، وما صحّ النهى عن الخوض فيه، وجب امتثال ذلك. ويجب الإمساك عن الخوض فيما لا علم للمسلم به وتفويض علم ذلك إلى عالمه سبحانه.

١١- يجب الالتزام بمنهج الوحى فى الردّ، كما يجب فى الاعتقاد والتقرير، فلا تُرّد البدعة ببدعة، ولا يقابل التفريط بالغلو، ولا العكس.

١٢- كل محدثة فى الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

* * *

ثانياً: التوحيد العلمي الاعتقادي

١- الأصل فى أسماء الله - تعالى- وصفاته: إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، من غير تمثيل ؛ ولا تكييف ؛ ونفى ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع العليم**﴾ مع الإيمان بمعانى ألفاظ النصوص، وما دلّت عليه.

٢- التمثيل والتعطيل فى أسماء الله - تعالى-، وصفاته كُفْرٌ. أما التحريف الذى يُسمّيه أهل البدع تأويلاً، فمنه ما هو كفر ؛ كتأويلات الباطنية، ومنه ما هو بدعة ضلالة، كتأويلات نفات الصفات، ومنه ما يقع خطأ.

٣- وحدة الوجود واعتقاد حلول الله - تعالى- فى شيء من مخلوقاته، أو اتحاده به، كل ذلك كُفْر مخرج من الملّة.

٤- الإيمان بالملائكة الكرام إجمالاً، وأما تفصيلاً، فيما صحّ به الدّليل، من أسمائهم وصفاتهم، وأعمالهم بحسب علم المكلف.

٥- الإيمان بالكتب المنزلة جميعها، وأن القرآن الكريم أفضلها، وناسخها، وأن ما قبله طرأ عليه التحريف، وأنه لذلك يجب اتباعه دون ما سبقه.

٦- الإيمان بأنبياء الله، ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - وأنهم أفضل ممن سواهم من البشر، ومن زعم غير ذلك فقد كفر.

وما صحّ فيه الدليل بعينه منهم، وجب الإيمان به معينًا، ويجب الإيمان بسائرهم إجمالاً، وأن محمداً ﷺ أفضلهم وآخرهم وأن الله أرسله للناس جميعًا.

٧- الإيمان بانقطاع الوحى، بعد محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومن اعتقد خلاف ذلك كَفَر.

٨- الإيمان باليوم الآخر، وكل ما صحّ فيه من الأخبار، وبما يتقدمه من العلامات والأشراط.

٩- الإيمان بالقدر، خيره وشره من الله - تعالى-، وذلك: بالإيمان بأن الله - تعالى- علم ما يكون قبل أن يكون وكتب ذلك فى اللوح المحفوظ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلا يكون إلا ما يشاء، والله - تعالى- على كل شىء قدير وهو خالق كل شىء فعال لما يريد.

١٠- الإيمان بما صحّ الدليل عليه من الغيبيات، كالعرش والكرسى، والجنة والنار، ونعيم القبر وعذابه، والصراط والميزان، وغيرها دون تأويل شىء من ذلك.

١١- الإيمان بشفاعة النبى ﷺ، وشفاعة الأنبياء والملائكة، والصالحين، وغيرهم يوم القيامة. كما جاء تفصيله فى الأدلة الصحيحة.

١٢- رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فى الجنة وفى المحشر. حقّ، ومن أنكرها أو أولها فهو زائغ ضال، وهى غير ممكنة لأحد فى الدنيا.

١٣- كرامات الأولياء والصالحين حقّ، وليس كلّ أمر خارق للعادة كرامة، بل قد يكون استدراجًا. وقد يكون من تأثير الشياطين والمبطلين، والمعيار فى ذلك موافقة الكتاب والسنة، أو عدمها.

١٤- المؤمنون كلّهم أولياء الرحمن، وكل مؤمن فيه من الولاية بقدر إيمانه.

* * *

ثالثًا: التوحيد الارادى الطلبى (توحيد الألوهية)

١- الله - تعالى - واحد أحد، لا شريك له فى ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وهو رب العالمين، المستحق وحده لجميع أنواع العبادة.

٢- صرف شىء من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة، والاستعانة، والنذر، والذبح، والتوكل، والخوف، والرجاء، والحبّ، ونحوها لغير الله - تعالى- شرك، أيًا كان المقصود بذلك، ملكًا مُقرّبًا، أو نبيًّا مرسلاً، أو عبداً صالحًا، أو غيرهم.

٣- من أصول العبادة أن الله - تعالى- يُعبد بالحبّ والخوف والرجاء جميعًا، وعبادته ببعضها دون بعض ضلال. قال بعض العلماء:

«من عَبَد الله بالحبِّ وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى. ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ».

٤- التسليم والرضا والطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ، والإيمان بالله - تعالى- حكَمًا من الإيمان به ربًّا وإلهًا، فلا شريك له فى حكمه وأمره. وتشريع ما لم يأذن به الله، والتحاكم إلى الطاغوت، واتباع غير شريعة محمد ﷺ، وتبديل شىء منها كفر، ومن زعم أن أحدًا يسعه الخروج عنها فقد كفر.

٥- الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر ؛ وقد يكون كفرًا دون كفر.

فالأول التزام شرع غير شرع الله، أو تجويز الحكم به. والثانى العدول عن شرع الله، فى واقعة معينة لهوى مع الالتزام بشرع الله.

٦- تقسيم الدين إلى حقيقة يتميز بها الخاصة وشريعة تلزم العامة دون الخاصة، وفصل السياسة أو غيرها عن الدين باطل ؛ بل كل ما خالف الشريعة من حقيقة أو سياسة أو غيرها، فهو إما كفر، وإما ضلال، بحسب درجته.

٧- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، واعتقاد أنّ أحدًا غير الله يعلم الغيب

كُفر، مع الإيمان بأن الله يُطْلع بعض رسله على شيء من الغيب.

٨- اعتقاد صدق المنجمين والكهان كفر، وإتيانهم والذهاب إليهم كبيرة.

٩- الوسيلة المأمور بها في القرآن هي ما يُقربّ إلى الله - تعالى-، من الطاعات المشروعة، والتوسل ثلاثة أنواع:

أ- مشروع: وهو التوسل إلى الله - تعالى-، بأسمائه وصفاته، أو بعمل صالح من المتوسل، أو بدعاء الحي الصالح.

ب- بدعي: وهو التوسل إلى الله - تعالى - بما لم يرد في الشرع، كالتوسل بذوات الأنبياء، والصالحين، أو جاههم، أو حقهم، أو حرمتهم، ونحو ذلك.

جـ- شركي: وهو اتخاذ الأموات وسائط في العبادة، ودعاؤهم وطلب الحوائج منهم والاستعانة بهم ونحو ذلك.

١٠- البركة من الله - تعالى - يَخْتَصُّ بعض خلقه بما يشاء منها، فلا تثبت في شيء إلا بدليل.

وهي تعني كثرة الخير وزيادته أو ثبوته ولزومه.

وهي في الزمان كليلة القدر.

وفي المكان كالمساجد الثلاثة.

وفي الأشياء كماء زمزم.

وفي الأعمال، فكلّ عمل صالح مُبارك.

وفي الأشخاص، كذوات الأنبياء، ولا يجوز التبرك بالأشخاص- لا بذواتهم ولا آثارهم - إلا بذات النبي ﷺ وآثاره إذ لم يرد الدليل إلا بها، وقد انقطع ذلك بموته ﷺ وذهاب آثاره.

١١- التبرك من الأمور التوقيفية، فلا يجوز التبرك إلا بما ورد به الدليل.

١٢- أفعال الناس عند القبور وزيارتها، ثلاثة أنواع:

الأول: مشروع: وهو زيارة القبور ؛ لتذكّر الآخرة ؛ وللسلام على أهلها، والدعاء لهم.

الثاني: بدعى يُنافى كمال التوحيد وهو وسيلة من وسائل الشرك، وهو قصد عبادة الله - تعالى-، والتقرب إليه عند القبور، أو قصد التبرك بها، أو إهداء الثواب عندها، والبناء عليها، وتجصيصها وإسراجها، واتخاذها مساجد، وشدّ الرّحال إليها، ونحو ذلك مما ثبت النهى عنه أو مما لا أصل له فى الشرع.

الثالث: شركىّ ينافى التوحيد، وهو صرف شىء من أنواع العبادة لصاحب القبر، كدعائه من دون الله، والاستعانة والاستغاثة به، والطواف، والذبح، والنذر له، ونحو ذلك.

١٣- الوسائل لها حكم المقاصد، وكل ذريعة إلى الشرك فى عبادة الله أو الابتداع فى الدين يجب سدّها فى كل محدثة فى الدين بدعة. وكل بدعة ضلالة.

* * *

رابعًا: الإيمان

١- الإيمان قول، وعمل، يزيد، وينقص. فهو: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. فقول القلب: اعتقاده وتصديقه؛ وقول اللسان: إقراره ، وعمل القلب: تسليمه وإخلاصه، وإذعانه، وحبه وإرادته للأعمال الصالحة.

وعمل الجوارح: فعل المأمورات، وترك المنهيات.

٢- من أخرج العمل عن الإيمان فهو مرجئ ؛ ومن أدخل فيه ما ليس منه فهو مبتدع.

٣- من لم يُقرّ بالشهادتين لا يثبت له اسم الإيمان، ولا حكمه، لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة.

٤- الإسلام والإيمان إسمان شرعيان بينهما عموم وخصوص من وجه ويسمى أهل القبلة مسلمين.

٥- مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، فهو فى الدنيا مؤمن ناقص الإيمان، وفى الآخرة تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، والموحدون كلهم مصيرهم إلى الجنة وإن عذّب منهم بالنار من عذب، ولا يخلد أحد منهم فيها قط.

٦- لا يجوز القطع لمعين من أهل القبلة بالجنة أو النار إلا من ثبت النص فى حقه.

٧- الكفر فى الألفاظ الشرعية قسمان: أكبر مخرج من الملة وأصغر غير مخرج من الملة ويسمى أحيانًا بالكفر العملى.

٨- التكفير من الأحكام الشرعية التى مردها إلى الكتاب والسنة فلا يجوز

تكفـير مسـلم بقول أو فـعل ما لم يدل دليل شـرعى على ذلك، ولا يلزم من إطلاق حكم الكفر على قول أو فعل ثبوت موجبه فى حق المعين إلا إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع.

والتكفير من أخطر الأحكام فيجب التثبيت والحذر من تكفير المسلم.

* * *

خامساً: القرآن والكلام

١- القرآن كلام الله حروفه ومعـانيه، مُنزل غير مخلوق ؛ منه بدأ ؛ وإليه يعود، وهو معجز دال على صدق من جاء به ﷺ. ومحفوظ إلى يوم القيامة.

٢- الله - تعالى- يتكلم بما شـاء، متى شاء، كيف شاء، وكـلامه تعالى حقيقة، بحرف وصوت، والكيفية لا نعلمها ولا نخوض فيها.

٣- القول بأن كـلام الله معنى نفسى، أو أن القرآن حكاية، أو عـبارة، أو مجاز أو فيض، وما أشبهها ضلال وزيغ، وقد يكون كفراً.

٤- من أنكر شيئًا من القرآن أو ادعى فـيه النقص أو الزيادة أو التحريف، فهو كافر.

٥- القـرآن يجب أن يُفسّـر بما هو مـعلوم من منهج السلف، ولا يجـوز تفسيره بالرأى المجرّد فإنه من القول على الله بغير علم. وتأويله بتأويلات الباطنية وأمثالها كُفر.

* * *

سادساً: القدر

١- من أركان الإيمان، الإيمان بالقدر خيره وشره، من الله - تعالى -، ويشمل: الإيمان بكل نصوص القدر ومراتبه ؛ (العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق)، وأنه تعالى لا رادّ لقضائه، ولا مُعقّب لحكمه.

٢- الإرادة والأمر الواردان فى الكتاب والسنة، نوعان:

أ- إرادة كونية قدرية: (بمعنى المشيئة) وأمر كونى قدرى.

ب- إرادة شرعية: (لازمها المحبة) وأمر شرعى. وللمخلوق إرداة ومشيئة ولكنها تابعة لإرادة الخالق، ومشيئته.

٣- هداية العباد وإضلالهم بيد الله، فمنهم من هداه الله فضلاً. ومنهم من حقت عليه الضلالة عدلاً.

٤- العباد وأفعالهم من مخلوقات الله - تعالى -، الذى لا خالق سواه، فالله خالقٌ لأفعال العباد، وهم فاعلون لها على الحقيقة.

٥- إثبات الحكمة فى أفعال الله - تعالى -، وإثبات تأثير الأسباب بمشيئة الله - تعالى -.

٦- الآجال مكتوبة، والأرزاق مقسومة، والسعادة والشقاوة مكتوبتان على الناس قبل خلقهم.

٧- الاحتجاج بالقدر يكون على المصائب والآلام، ولا يجوز الاحتجاج به على المعايب والآثام، بل تجب التوبة منها، ويلام فاعلها.

٨- الانقطاع إلى الأسباب شرك فى التوحيد، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع، ونفى تأثير الأسباب مخالف للشرع والعقل، والتوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب.

سابعًا: الجماعة والإمامة

١- الجماعة - فى هذا الباب - هم أصحاب النبى ﷺ، والتابعون لهم بإحسان، المتمسكون بآثارهم إلى يوم القيامة، وهم الفرقة الناجية.

وكل من التزم بمنهجهم، فهو من الجماعة، وإن أخطأ فى بعض الجزئيات.

٢- لا يجوز التفرّق فى الدين، ولا الفتنة بين المسلمين، ويجب ردّ ما اختلف فيه المسلمون إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح.

٣- من خرج عن الجماعة وجب نصحه، ودعوته، ومجادلته بالتى هى أحسن، وإقامة الحجة عليه، فإن تاب وإلا عوقب بما يستحق شرعًا.

٤- إنما يجب حمل الناس على الجُمَل الثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، ولا يجوز امتحان عامة المسلمين بالأمور الدقيقة، والمعانى العميقة.

٥- الأصل فى جميع المسلمين سلامة القصد، والمعتقد، حتى يظهر خلاف ذلك، والأصل حمل كلامهم على المحمل الحسن، ومن ظهر عناده وسوء قصده فلا يجوز تكلّف التأويلات له.

٦- فِرقُ أهل القبلة الخارجة عن السنة، متوعدون بالهلاك والنار، وحكمهم حكم عامة أهل الوعيد، إلا من كان منهم كافرًا فى الباطن.

والفرق الخارجة عن الإسلام كُفّار فى الجملة، وحكمهم حكم المرتدين.

٧- الجمعة والجماعة من أعظم شعائر الإسلام الظاهرة، والصلاة خلف مستور الحال من المسلمين صحيحة، وتركها بدعوى جهالة حاله بدعة.

٨- لا تجوز الصلاة خلف من يظهر البدعة أو الفجور، مع إمكانها خلف

غيره، وإن وقعت صحت، ويأثم فاعلها إلا إذا قصد دفع مفسدة أعظم. فإن لم يوجد إلا مثله، أو شرٌّ منه جازت خلفه، ولا يجوز تركها.

ومن حُكِمَ بكفره فلا تصح الصلاة خلفه.

٩- الإمامة الكبرى تثبت بإجماع الأمة، أو بيعة ذوى الحلّ والعقد منهم، ومن تغلّب حتى اجتمعت عليه الكلمة وجبت طاعته بالمعروف، ومناصحته، وحرم الخروج عليه إلا إذا ظهر منه كفر بواح، فيه من الله برهان.

١٠- الصلاة والحج والجهاد واجبة مع أئمة المسلمين وإن جاروا.

١١- يحرم القتال بين المسلمين على الدنيا أو الحمية الجاهلية ؛ وهو من أكبر الكبائر ؛ وإنما يجوز قتال أهل البدعة والبغى وأشباههم، إذا لم يمكن دفعهم بأقل من ذلك، وقد يجب بحسب المصلحة والحال.

١٢- الصحابة الكرام كلهم عدول، وهم أفضل هذه الأمة، والشهادة لهم بالإيمان والفضل أصل قطعى معلوم من الدين بالضرورة، ومحبّتهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق، مع الكفّ عما شجر بينهم، وترك الخوض فيه بما يقدح فى قدرهم.

وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على، وهم الخلفاء الراشدون. وتثبت خلافة كل منهم حسب ترتيبهم.

١٣- ومن الدين محبة آل بيت رسول الله ﷺ، وتولّيهم، وتعظيم قدر أزواجه أمهات المؤمنين، ومعرفة فضلهن ؛ ومحبة أئمة السلف، وعلماء السنة والتابعين لهم بإحسان. ومجانبة أهل البدع والأهواء.

١٤- الجهاد فى سبيل الله ذروة سِنَامِ الإسلام، وهو ماض إلى قيام الساعة.

١٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أعظم شعائر الإسلام. وأسباب حفظ جماعته، وهما يجبان بحسب الطاقة، والمصلحة معتبرة فى ذلك.

أهم خصائص أهل السنة والجماعة وسماتهم

أهل السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة. فإنهم على تفاوتهم فيما بينهم، لهم خصائص وسمات تميزهم عن غيرهم منها:

١- الإهتمام بكتاب الله حفظًا وتلاوة، وتفسيرًا، والاهتمام بالحديث، معرفة وفهمًا وتمييزًا لصحيحه من سقيمه، (لأنهما مصدر التلقى)، مع اتباع العلم بالعمل.

٢- الدخول فى الدّين كله، والإيمان بالكتاب كله، فيؤمنون بنصوص الوعد، ونصوص الوعيد، وبنصوص الإثبات، ونصوص التنزيه ويجمعون بين الإيمان بقدر الله، وإثبات إرادة العبد، ومشيئته، وفعله، كما يجمعون بين العلم والعبادة، وبين القُوّة والرحمة، وبين العمل بالأسباب والزهد.

٣- الاتباع، وترك الابتداع، ونبذ الفرقة والاختلاف فى الدين.

٤- الاقتداء، والاهتداء بأئمة الهدى العدول، المقتدى بهم فى العلم والعمل، والدعوة -الصحابة ومن سار على نهجهم- ومجانبة من خالف سبيلهم.

٥- التوسط: فهم فى الاعتقاد، وسط بين فرق الغلو وفرق التفريط، وهم فى الأعمال والسلوك وسط بين المُفرِطين والمفرِّطين.

٦- الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحقّ وتوحيد صفوفهم على التوحيد والاتباع، وإبعاد كل أسباب النزاع والخلاف بينهم.

ومن هنا لا يتميزون على الأمة فى أصول الدين، باسم سوى السنة والجماعة، ولا يوالون، ولا يعادون، على رابطة سوى الإسلام والسنة.

٧- الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد، وإحياء السنة، والعمل لتجديد الدين ؛ وإقامة شرع الله وحكمه فى كل صغيرة وكبيرة.

٨- الإنصاف والعدل: فهم يراعون حقّ الله - تعالى - لا حقّ النفس أو الطائفة، ولهـذا لا يغلون في مُوالٍ، ولا يجـورون على معـاد، ولا يغمطون ذا فضل فضله أيًّا كان.

٩- التـوافق في الأفـهـام والتـشـابه في المواقف، ورغم تبـاعـد الأقطار والأعصار، وهذا من ثمرات وحدة المصدر والتلقي.

١٠- الإحسان والرّحمة وحسن الخُلق مع الناس كافةً.

١١- النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

١٢- الاهتمـام بأمور المسلميـن ونصرتهم، وأداء حقـوقهم، وكفّ الأذى عنهم.

* * *

السُّنَّة

(أقسامها، منزلتها من القرآن، وظيفتها، فضلها)

السُّنَّة في اللغة: الطريقة . **وشرعًا**: الطريقة المسلوكة فى الدين، بأن سلكها رسول الله ﷺ أو السلف الصالح من بعده .

وهى عند أهل الحديث: «أقوال النبى ﷺ و أفعاله وإقراراته وأحواله وصفاته». وعلى هذا المعنى تكون شاملة للواجب، والمندوب، والمباح، سواء كان من قبيل الأعمال، أو الأقوال، أو الاعتقادات، أى أن من السُّنَّة ما يؤدَّى على سبيل الوجوب، ومن ذلك تفصيله ﷺ فى العبادات والعقيدة .

ومنها ما كان أداؤه على سبيل الندب كصيام التطوع، وصلاة التهجد، والضحى، والتراويح، والعيدين، وغير ذلك من الطاعات التى تؤدى من غير مقتضٍ للوجوب على سبيل الاستزادة من الثواب .

ومنها ما كان أداؤه مباحًا، وذلك كفعله ﷺ فيما يتصل بطبائع الناس، كالأكل، والقيام، والقعود، والنوم، والجلوس على مائدة الطعام، وطريقة تناول الطعام، وأنواع المراكب فى السفر، فكل ذلك وأمثاله مباح له ﷺ ولأمته، ولا يطلق على فعل منها أنه واجب أو مندوب، أو محرم، أو مكروه؛ لأنها كلها أفعال تتصل بالجبلَّة، أى: طبائع الناس، ومعلوم أنها تتغير من عصر إلى عصر فى ضوء التسابق العلمى، والإسلام دين يسر، وليس فيه ما يعقد على الناس حياتهم، أو يتصدى للتقدم العلمى، حتى لا يتهم الإسلام بالجمود؛ بل نراه يدعو إلى التقدم والرقى لتكريم بنى آدم، وبخاصة أهل الإيمان، وذلك فى قوله سبحانه: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [الأعراف: ٣٢].

أقسام السُّنَّة

تنقسم السُّنَّة إلى قسمين: (فعلية، وتركية) .

أولاً: السُّنَّة الفعلية:

هى التى فعلها الرسول ﷺ ويندرج تحتها ثلاثة أنواع:

١- ما كان من أفعال الجبلة (الطبيعة) أى: طبائع الناس. وحكمها: الإباحة، كالأكل، والقعود، والمشى، والنوم... وغيرها مما يُباح فعله للنبى ﷺ ولأمته، وهذا ما قرره الجمهور .

٢- ما كان خاصًا به ﷺ : كوجوب التهجد بالليل، والمشاورة، والتخيير لنسائه، وإباحة الوصال فى الصوم، والزيادة على الأربع فى النكاح، ودخول مكة المكرمة بغير إحرام... وغير ذلك مما كان خاصّاً به ﷺ فلا يجوز لنا أن نقلده فيه .

٣- ما كان بيانًا منه لحكم الله - تعالى - : وذلك كتفصيل القول فى أمر الله تعالى ونهيه، وكذلك أوامره ﷺ ونواهيه .

وهذا النوع من هديه ﷺ يخضع للحكم التكليفى، وجوبًا، أو ندبًا، أو تحريمًا، أو تحديدًا لمراد الشارع .

مثال ذلك: توجيهاته ﷺ بالإفصاح عن مراد الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصَّلاة...**﴾ [البقرة: ٤٣] .

فالأمر فى الآية عام وطلب على سبيل الإجمال حيث لم يفصح عن أنواع الصَّلاة وكيفيتها وعدد ركعاتها، وهل هى فرض أو سنة، فبيَّن ﷺ كل ذلك بتوجيه الله له عن طريق جبريل - عليه السلام - وذلك فى أحاديث كثيرة رويت ببيان فعله ﷺ فى الصَّلاة، ثم أصدر أمره ﷺ المقتضى للوجوب، وذلك فيما رواه البخارى فى الأدب المفرد قوله ﷺ : «**صَلُّوا كَمَا رأيتمونى أُصلى**» .

فقد بَيَّن ﷺ أن فرائض الصَّلاة خمس فى اليوم والليلة، وهذه واجبة، إلا

أن يتطوع المسلم كصلاة الضحى، وعدد ركعات الليل، والتراويح فى رمضان، والعيدين . وكذلك بيَّن ﷺ مراد الله من الأمر بقطع يد السارق فى قوله سبحانه: ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة: ٣٨] فبين أن القطع يكون من مَفْصِل الرسغ، لا من المِرْفق، ولا من الكتف.

ومثل هذا ما فصل به ﷺ القول فى بيان أحكام الزكاة، والصيام والحج، فقال ﷺ فى شأن الحج: «خُذُوا عنى مَنَاسِكَكُمْ».

ومعلوم أن القرآن الكريم لم يبين ترتيب المناسك فى الحج والعمرة ولا كيفية أدائها، فقام بهذا البيان العملى النبى ﷺ ثم أمر أصحابه - رضى الله عنهم - وجميع المسلمين أن يقلدوه فى أداء النسك . وكذلك الحال فى كل ما يتصل بأحكام الصيام والزكاة على التفصيل المبين فى كتب الفقه والحديث .

٤- من السُّنَّة الفعلية أفعال ليست جبلية ولا مختصة به ولا بيانًا لمراد الشارع، ففعله ﷺ إما أن يظهر فيه قصد القربى كخلعه ﷺ نعلَه عند الصَّلاة، وحلقه ﷺ رأسه فى الحديبية حين أمر الصحابة به فلم يفعلوا حتى حلق، فقيل: هو للوجوب. وقيل: للندب. وقيل: للإباحة. وقيل: بالوقف وللعلماء فى اختيار هذه الأحكام توجيهات ذكرها صاحب كتاب الإبداع .

وإن لم تظهر فيه القربى ففيه الأقوال الأربعة، ورجح الشوكانى كونه للندب معللاً ذلك بأن فعله ﷺ لا يخلو من قربى، وأقل ما يتقرب به المندوب، ولا دليل على زيادة على الندب فوجب القول به ، وأقرب مثال على ذلك لبس الجبة، ففعله هذا يحتمل أن يكون قربى على سبيل الندب، أو إخراج من الحظر إلى الإذن فيه فقط .

ومثله: لبس القباء (العباءة) حينًا، ثم خلعها، فهذا إذا فعله المسلم بنية التشبه بالرسول ﷺ أثيب على نيته، ولكن لا يكون الفعل ملزمًا له تعبدًا - والله أعلم .

ثانيًا: السُّنَّة التركية:

ما تركه النبى ﷺ مع قيام الداعى والمقتضى، ولم يكن هناك منه مانع. مثل ترك الأذان للعيدين، وكذلك الإقامة لهما، والغُسل لكل صلاة والأذان والإقامة للتراويح، والقراءة على الموتى، وصلاة ليلة النصف من شعبان، والزكاة على الخضار وغير ذلك مما تركه ﷺ مع قيام الداعى لفعله، فهذه الأمور تبقى متروكة كما هى تأسيًا به ﷺ لأن فعلها يعد ابتداعًا، فالترك واجب .

ذلك؛ لأن الله تعالى كلفنا اتباع الرسول ﷺ فى فعله الذى يتقرب به إذا لم يكن من باب الخصوصيات، كذلك أمرنا اتباعه ﷺ فيما تركه ، ومن ثَمَّ يكون الترك سنة .

وكذلك فإن العبد لا يتقرب إلى الله سبحانه بترك ما فعل النبى ﷺ ولا يتقرب إليه بفعل ما ترك .

الرد على القائلين بأن الخلفاء الراشدين فعلوا أمورًا تركها النبى ﷺ:

إن ما تركه النبى ﷺ فى عهده وواظب على تركه مع عدم المانع من فعله، ووجود المقتضى، والوقت وقت تشريع ومع ذلك تركه، فيعد ذلك كله دليلاً على أن المشروع هو الترك، وأن الفعل خلاف المشروع ففعله بدعة، لا يتقرب به إلى الله - عز وجل - لأن القربى لابد أن تكون مشروعة .

أما ما فعله الخلفاء الراشدون ولم يكن موجودًا من قبل، أى: فى عهد النبوة، ففعلهم هذا قائم على أن المقتضى للفعل لم يكن موجودًا فى عهد النبى ﷺ ثم وجد فى عهد الخلفاء، كجمع المصحف الشريف أى: جمع القرآن الكريم فى كتاب واحد، ولم يكن النبى ﷺ قد جمعه إلى أن انتقل إلى رحاب ربه، فتركه فى العهد النبوى لعدم وجود المقتضى، ولتوقع أن يغير الله ما يشاء أو ينسخ ما يشاء ﴿**يمحو الله ما يشاءُ ويثبت**﴾ [الرعد: ٣٩] . وأيضًا فإن الوحى كان لا يزال ينزل بما شاء الله .

فلما انتهى الوحى بموت النبى ﷺ وأمن التغيير، وخيف على القرآن

الكريم من الضياع بموت الحفاظ وكتبة الوحى حينئذٍ وجد المقتضى لجمعه، وهو المحافظة عليه من الضياع أو التحريف، وذلك ليبقى دستورًا خالدًا لهذه الأمة .

وأما المواظبة على صلاة التراويح فى جماعة طوال شهر رمضان ولم يكن هذا الفعل فى عهد النبى ﷺ ولكن فعله عمر - رضى الله عنه - فى خلافته واستمر عليه المسلمون، فترك النبى ﷺ صلاتها فى جماعة كان لوجود المانع، وهو الخوف من فرض هذه الصَّلاة على الأمة، فلما مات النبى ﷺ صلاها عمر فى جماعة لزوال المانع، وكان دليله على ذلك أن النبى ﷺ صلاها فى جماعة فى بعض ليالى رمضان .

هذا، ومما يجب أن نؤكد عليه أنه ليس من حق أحد مهما أوتى من العلم أن يجترئ على فعل أمر تركه النبى ﷺ أما فعل الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدون فيعدُّ سنة أخبر بها النبى ﷺ فى قوله: «... **فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضُّوا عليها بالنواجذ**» .

فما فعله الصحابة - رضى الله عنهم - بعد موت النبى ﷺ يُعد سنة أو من المصالح المرسلة، وسوف أوجه القول فيها عند الكلام على الفرق بين البدعة والمصالح المرسلة .

• ما يفعل أو يترك وليس بحرام ولا مكروه:

هناك أمور فى حياة الناس تدور بين الفعل والترك، وفعلها أو تركها لا يؤدى إلى الحرمة أو الكراهة .

كالأكل مثلاً كان للنبى ﷺ هيئة فى جلوسه وتناوله للطعام والشراب، فلاشك أن التأسى برسول الله ﷺ فيه فضل وخير .

أما إن جلس الناس على المائدة، وأكلوا بالملاعق أو غيرها فلا يوصف فعلهم هذا بحرام، ولا مكروه؛ لأنه لم يثبت فيه نهى، وقد يكون فيه حفظ للطعام، وراحة للجالسين، وبخاصة من تعودوا الجلوس على كراسى أو نحوها.

وأما قول عائشة -رضى الله عنها-: «**أربع من البدع أحدثت بعد النبى ﷺ: الشبع - المناخِلُ - الغُسْلُ بالأشْنَانِ - المائدة**» فإنه لا يدل على تحريم هذه الأربعة؛ لأن منها الغسل بالأشنان وهو نظافة يحبها الدين، كما ذكر ذلك الغزالى فى الإحياء، وصاحب الإبداع.

وهناك أمور استحدثت بعد أن طلبتها حياة الناس فى ضوء التقدمات العلمية، ولم يرد نهى يمنع فعلها فلا تُوصف بالحرمة ولا الكراهة، وسوف أفصل القول فيها فى موضعها من هذا الكتاب - والله تعالى أعلم .

• مكانة السُّنَّة من القرآن الكريم ووظيفتها:

القرآن الكريم هو كتاب الله المحكم الذى تولى حفظه ﴿**ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ [فصلت: ٤٢] ، وهو دستور الله تعالى للبشر فى الأرض وتشريعه إن تمسكوا به وعملوا بما فيه سعدوا وإن هجروه، وأغفلوا أحكامه شقوا وضلوا وذلوا .

وجاءت السُّنَّة المطهرة تبين وتفصح عما فى القرآن الكريم، ففصَّلت المجمل، وخصصت العام، وأفصحت عن المبهم، ففصل ﷺ الأحكام الشرعية، وكل ما يتصل بالعبادات والعقيدة والمعاملات والسلوكيات بمنهاج واضح، وبيان شاف .

وقد عُدَّت السُّنَّة المصدر الثانى للشريعة الإسلامية، ومن ثَمَّ كان اتباع النبى ﷺ واجبًا أمر به القرآن، قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١] .

فجعل سبحانه وتعالى علامة محبته اتباع الرسول ﷺ فمن لا يتبع الرسول، ويدعى محبته فهو كاذب فى دعواه؛ لأن عصيانه للنبى ﷺ عصيان لله، وقد أفصح ربنا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠] .

وقال تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمل**

وعليكم ما حُملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [النور: ٥٤] .

وسر تكرير الفعل يكمن فى الدلالة على أن ما يأمر به رسول الله ﷺ تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه فى القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة كما تجب طاعته مقرونة بأمر الله سبحانه، وقد أفصح ﷺ عن هذا التوجيه فى قوله: «**يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول: بينى وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شىء اتبعناه. ألا إنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه**».

وفى هذا القول رد على من ينكر الأخذ بالسُّنَّة والعمل بها، فمن كان حاله كذلك فهو إنسان مخبول العقل، ذلك لأنه ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فالأمة فى حاجة إلى التفصيل الشافى الواضح الذى نراه فى السُّنَّة فبدونه لا يمكن أن تتحقق تأدية العبادات والحدود والسلوكيات وفق المنهج الربانى الذى ارتضاه الله سبحانه لعباده، ويكفى أن الله تعالى يقول: ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾ [النور: ٥٤] ويكفى للمنكرين ردعًا وزجراً تهديدهم بمصيبتين إن خالفوا أمره ﷺ وذلك قوله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ [النور: ٦٣] والكلام فى هذا المقام يطول وليس هذا موضعه .

ولكن ما يجب أن نؤكد عليه أن التمسك بالسُّنَّة أمر واجب، ذلك لأن التارك للسنة يُعَدُّ تاركًا للشرع فى عمومه، وكلمة السُّنَّة فى عرف أهل الحديث تشمل دين الله عقيدة وعبادة، وعملاً وواجبًا ونفلاً وأخلاقًا . رزقنا الله الاتباع، وصرفنا عن الابتداع.

• الأمر باتباع السُّنَّة ثابت فى القرآن الكريم:

لقد وجه الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ أن يبين القرآن الكريم ويفسر آياته ليهتدى الناس إلى فعل ما أمر الله، وأن ينتهوا عما ينهاهم عنه وفق مراد الله سبحانه، ومن المعلوم المؤكد لدينا نحن المسلمين أن النبى ﷺ لا ينطق عن

الهوى، قال سبحانه: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [النحل: ٤٤].

والأمر المقطوع به والذى لا مرية فيه أنه ﷺ المعلم الأول لأحكام الدين، والمقوم لألسنة الناس بما ينطق من القرآن، المزكى لسلوكهم بتوجيهاته الرشيدة وسلوكه القويم؛ لأن خُلُقه كان نابعًا من القرآن الكريم، وقد أفصح ربنا سبحانه عن هذه المهام وغيرها فى قوله: ﴿ **لقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

ومن مهام النبى ﷺ أنه يأمر وينهى، ويحل ويحرم، وهذا عين التشريع، ذلك لأن الله تعالى كان يوحى إليه فيستلهم مراد الله تعالى، ثم يوجه أمته إليه ليسعدوا، قال تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم...** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إلى غير ذلك من النصوص التى أفصحت عن سلطان بيانه ﷺ فى ضوء كتاب الله - عز وجل - وبأمر الله تعالى له، لأن هذه مكانته - صلوات ربى وسلامه عليه -.

أقوال بعض الأئمة فى منزلة السُّنَّة:

قال أبو حنيفة: «**لولا السُّنَّة ما فهم أحد منا القرآن، ولم يزل الناس فى صلاح ما دام فيهم من يطلب الحديث؛ فإذا طلبوا العلم بلا حديث فسدوا**».

وقال مالك: «**إياكم ورأى الرجال، واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، وما جاء عن نبيكم، وإن لم تفهموا المعنى فسلموا لعلمائكم، ولا تجادلوهم فإن الجدال فى الدين من بقايا النفاق**».

وقال الشافعى: «**كل شىء خالف أمر رسول الله ﷺ سقط، ولا يكون معه**

رأى، ولا يُقاس، فإن مراد الله تعالى بقول رسول الله ﷺ فليس لأحد معه أمر ولا نهى غير ما أمر هو به».

«وكل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن لقوله ﷺ : **«إنى لا أحل إلا ما أحل الله فى كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله فى كتابه»**.

وقال أحمد بن حنبل: **«أو لأحد كلام مع رسول الله ﷺ »**. يعنى السُّنَّة النبوية .

وقال الشوكانى: **«إن ثبوت حجية السُّنَّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف فى ذلك إلا من لا حَظَّ له فى الإسلام»** .

إلى غير ذلك من أقوال علماء السلف، وكل ذلك يدل على جميع فروع الدين من عقيدة وعبادات ومعاملات وسلوكيات، وأحوال شخصية لابد أن يشملها بيان السُّنَّة المطهرة حيث لا تفهم دقائق الأمور إلا بها والله من وراء القصد .

• فضل السُّنَّة:

بعد البيان الشافى الموجز الذى ذكرته آنفًا عن مكانة السُّنَّة ووظيفتها يتضح لهذه الأمة المسلمة، بل ولكل الناس أن شؤون الحياة لا تنطلق عجلتها لتؤدى مهام الخلافة على الأرض وفى الأرض إلا بتوجيهات النبى الرشيدة، وبمنهاجه الذى وضعه لهذه الأمة وفق مراد الله تعالى لها .

كما أن الأوامر الإلهية والنواهى، والحلال والحرام، لا يتضح منهج الأداء فيها إلا بتوجيهاته ﷺ إلى غير ذلك مما يلزم العبد أداؤه ليصل نفسه بربه ضبطًا لحياته ومماته ابتغاء مرضاة الله سبحانه الأمر الذى يوجب على الناس فهم السُّنَّة والتمسك بها عملاً وسلوكًا، وهم بذلك يكونون قد فهموا فضلها ومكانتها فى نفوسهم .

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة فى كتاب الله تعالى، وفى أقوال رسوله ﷺ وقد ذكرت جانبًا منها فيما سبق، وإليك بعضُ الأحاديث والآثار :

روى ابن أبى الدنيا والحاكم بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**من أكل طيبًا، وعمل فى سنة، وأمن الناس بوائقه - أى: شروره - دخل الجنَّة**».

وروى المنذرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر شهيد**». وفى رواية: «**مائة شهيد**».

وروى المنذرى أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال: «**من أحيا سنة بعدى أميتتْ كان له من الأجر مثلُ من عملَ بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء**».

وروى الحاكم بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة الوداع: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا، وإنى قد تركتُ فيكم المعتصم: كتاب الله وسنة نبيه**».

هذه الأحاديث وغيرها مما ذكرت فى هذا الباب تؤكد فضل السُّنَّة النبوية، وأن العمل بها عز وشرف، فالعمل بالسُّنَّة طريق مفتوح إلى الجنة، وإحياء السُّنَّة يؤدى إلى رفعة فى المقام وزيادة فى الأجر، وفى العلم بالسُّنَّة دحر للشيطان، وهداية لبنى الإنسان، ذلك؛ لأن فى الاتباع هداية، وفى الابتداع غواية، وشتان بين أهل الهداية، وأهل الغواية، ويكفى أن الله - تعالى - يقول: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠]، وقال سبحانه ﴿**وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم**﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [الحشر: ٧]، وقال - عز من قائل: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]

ففى هذه النصوص بيان شاف لمن أراد لنفسه سعادة فى الدنيا والآخرة.

ولقد بلغ من حرصه ﷺ على أمته ودعوتها إلى الخير أنه قال فيما روى الترمذى - وقال حديث حسن - عن أنس - رضى الله عنه - قال: قال لى رسول الله ﷺ: «**يا بنى إن قدرت أن تصبح وتُمسى ليس فى قلبك غش لأحد**

فافعل - ثُمَّ قال: يا بُنى وذلك من سنتى، ومن أحب سنتى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة» .

• السُّنَّة باب النجاة من تيه الغرباء:

روى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - والنسائى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**» .

ورواه الطبرانى وأبو النصر فى الإبانة عن عبد الرحمن بن سنة بلفظ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء ، قيل يا رسول الله: وما الغرباء؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الناس**» .

وفى رواية أنه سئل عن الغرباء يقال: «**الذين يحيون ما أمات الناس من سنتى**» .

كان الإسلام غريبًا لسبق الكفر عليه، وإنكار الكفرة له، وسيعود غريبًا، وذلك لغلبة الجهالة وكثرة الضلالة، فكان فى الزمان الأول كالغريب لا يعرفه أحد، وعندما يتركه أهله وينصرفون عنه تعود له الغربة. وطوبى: هى الجنة، ستكون دارًا لأولئك الذين كانوا فى أول الإسلام ويكونون فى آخره بما صبروا على أذى الكفار والفجار فتمسكوا بدين الإسلام، وينطبق هذا الأمر على الدعاة والمصلحين فى كل زمان ومكان ممن يتعرضون للظلم والاضطهاد من الذين ينكرون عليهم تمسكهم بدينهم فيعذبونهم .

ومن ثَمَّ كان المخرج من تيه الغربة والجهالة هو التمسك بالصلاح والإصلاح والتصدى لأهل الفساد عن طريق إحياء ما أماته الناس من سنة النبى ﷺ والتأسى به فى منهج الدعوة إلى الله - عز وجل - بالحكمة والموعظة الحسنة - نجانا الله من غربة هذا الدين ورزقنا العصمة بالسُّنَّة - .

* * *

٢- البدعة

البدعة: طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الطريقة الشرعية، يقصد فاعلها المبالغة فى عبادة الله من علم أو عمل أو حال .

أو : هى ما أحدث بعد النبى ﷺ على أنه دين وشرع بتأويل أو شبهة غير معتدٍّ بها.

والاختراع: هو الإتيان بجديد، ليس للناس به عهد .

فاستحداث بعض الصناعات فى ضوء التقدم العلمى يُعد اختراعًا كإحداث السيارات والطائرات، والإذاعة المسموعة والمرئية، والأقمار الصناعية، وغيرها مما تقدمت فى صنعه البشرية يُعد اختراعًا ، لكنه محمود؛ لأن فيه نفعًا يعود على الإنسانية، ولم يرد فى ذلك نهى يمنع هذه المخترعات، بل حث الإسلام على ذلك وأمر به .

أما الذين يخترعون أعمالاً وأقوالاً، ويزينونها للناس حتى يحسبوها دينًا فهم المبتدعون الذين جاءوا من عند أنفسهم بما لم يُنزِّل الله، ولم يُعلم نبيه ﷺ وذلك عين البدعة التى نص الشارع على تحريمها؛ لأن فعلها أو القول بها لا يؤدى إلى قربة لله - عز وجل - بل يؤدى إلى لعنة .

وأصل الابتداع : خلق ما ليس له مثل سابق، ومنه سمى الله -عز وجل- «البديع»؛ لأنه اخترع هذا العالم الفخم العجيب فى صنعه، فهو غير مسبوق إليه بشىء يشبهه، قال تعالى: ﴿**بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون**﴾ [البقرة: ١١٧].

والابتداع فى الدين بما لم يكن من عند الله تعالى، ولا من هدى رسوله ﷺ يُعد محرمًا يجلب اللعنة لصاحبه، وكل من يعمل به، وهذا هو موضوع البحث فى هذا الكتاب.

• ذم البدع والتحذير منها:

إن عصابات التخريب فى كل مجتمع يطوقون أقوالهم وأفعالهم ببريق يجذب إليهم أبصار الناس، ويستميلون قلوبهم .

وهذا اللون من الخداع إن خدع به بعض الناس لهوى وضعف فى نفوسهم فرب البشر لا يخدع بأهواء الخلق .

ومن ثَمَّ فإن كل ما يصدر عن البشر وهو مخالف لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ يرد عليهم، أى أن عملهم لا يُعدّ مقبولاً، ويؤيد ذلك ما روى فى الصحيح من حديث عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحدث - أى: ابتدع - فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» .

وأيضًا ما أخرجه البخارى ومسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» أى: مردود .

فقوله: «من أحدث» للمبتدع و«من عمل» للمقلد .

فسواء كان صاحب البدعة مبتدعًا لها أو مقلدًا لغيره فيها فهو ضال وبدعته مردودة عليه، ومن ثَمَّ فلا ثواب له، بل تصب اللعنة على المبتدع .

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يقول فى خطبته: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**» .

وقد روى الحديث بروايات مختلفة وطرق متعددة، ومرماها واحد، وكلها تؤكد أن كلام الله هو خير حديث، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ فمن صرف نفسه عنهما، واتبع هواه ضل وأضل، وسقط فى تيه الجهالة. . . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

• إرشادات تربوية فى ظل التحذير من البدع:

حرص النبى ﷺ على تحذير أمته من التغيير فى دين الله جعله يشدد عليهم

ألوان الوعيد ليأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة وإلى الصراط المستقيم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢] ، وفى هذا التوجيه من المنهج التربوى ما لا يخفى ، وإليك جانبًا منه:

١ - التحذير من الدخن والقذف فى النار والدعوة إلى لزوم الجماعة:

المراد بالدخن: هو الأمر الذى ليس خيرًا خالصًا؛ بل فيه كدورة بمنزلة الدخان من النار، وقد نشأ ذلك بسبب الفساد والاختلاف وعدم صفاء القلوب. وهذا التحذير والوعيد المصحوب بالدعوة إلى لزوم الجماعة كمخرج من الفتنة أفصح عنه المعصوم ﷺ فيما روى فى صحيح البخارى عن حذيفة أنه قال: **«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول الله إنا كنَّا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن.**

قلتُ: وما دخنه؟

قال: قوم يهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر. قلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟.

قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قلت: يا رسول الله صفهم لنا .

قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت:فما تأمرنى إن أدركنى ذلك.

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت: فإن لم يكن جماعة ولا إمام .

قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» .

من هذا الحديث نتعلم ما يلى:

(أ) السؤال عن كل ما يحتاجه المسلم فى معرفة أمور دينه واجب .

(ب) الجاهلية ضلال وإضلال وشر وإذلال، والإسلام نور وهداية، ورحمة وسعادة.

(ج) الانصراف عن الفساد والإفساد فى الأرض، ونبذ الاختلاف والابتداع، والدعوة إلى صفاء القلوب أمر واجب .

(د) خير هاد إلى الصراط المستقيم الكتاب والسُّنَّة، ودعوة المسلمين إلى التمسك بهما أمر واجب .

(هـ) الالتزام بالجماعة وإمام المسلمين واجب .

(و) الاعتزال عن أهل الضلالة والبدع، ودعاة الفتنة عند عدم وجود الجماعة والإمام واجب تجنبا من الاشتراك فى الفتن .

- عافانا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن - .

٢- الانطلاق على الصراط مقيد بترك البدع:

ويفصح عن ذلك المعصوم ﷺ فيما رواه عنه الحسن - رضى الله عنه - أنه قال: «**إن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث فى دين الله حدثًا برأيك**» .

٣- الرسول ﷺ يضم المقتدى به إليه ويبرأ ممن رغب عن سنته:

وذلك قوله ﷺ : «**من اقتدى بى فهو منى، ومن رغب عن سنتى فليس منى**» .

٤- المغالاة فى البدعة تنطع وخروج عن هدى النبى ﷺ:

روى البخارى عن أبى بكر - رضى الله عنه - أنه قال: «**لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به لأنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أزيغ**».

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: «**اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم**» .

وعنه أيضًا من أثر رواه ابن وهب أنه قال: « ... **وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق**» .

التنطع في الكلام: التعمق فيه، ويكون ذلك بكثرة الجدل بعيدًا عن هدى الكتاب والسُّنَّة .

وللصحابة والتابعين توجيهات وتحذيرات من السقوط في البدع وترك الهدى النبوي الشريف، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «**عليكم بالاستقامة والأثر، وإياكم والبدع**» .

٥- العمل بالسُّنَّة هداية ونصر، وتركها خروج عن سبيل المؤمنين:

هذا أصل لا يختلف عليه اثنان من أولي العلم ممن فقهوا دين الله وتذوقوا توجيهات النبي ﷺ ومن بين أولئك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – الذي قال كلامًا أعجب به مالك، واعتنى العلماء بحفظه؛ لأنه قول لم يصدر إلا عن قلب مخلص ولسان صادق، يقول عمر بن عبد العزيز: «**سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها ، من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا**» .

هذا قول لا يصدر إلا عن قلب ذي بصيرة إيمانية، وهذا التوجيه صدر في ضوء قوله تعالى: ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا** ﴾ .

ومما كان يكتبه عمر بن عبد العزيز في كتبه قوله:

«**إني أحذركم ما مالت إليه الأهواء والزيغُ البعيدة**» .

ويوم أن بايعه الناس خليفة للمسلمين أرسى عمد حكمه على الأصول الثابتة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم

قال: «**أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبى ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحل الله فى كتابه على لسان نبيه حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرم الله فى كتابه على لسان نبيه حرام إلى يوم القيامة. ألا وإنى لست بمبتدع، ولكنى متبع، ألا وإنى لست بقاض، ولكنى منفذ، ألا وإنى لست بخازن ولكنى أضع حيث أمرت. ألا وإنى لست بخيركم، ولكنى أثقلكم حملاً. ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ثم نزل**»

إنه دستور للأفراد والجماعات للقضاة والحكام، إن مراده من قوله: إنه ليس هو الشارع ولكنه منفذ الشرع بالحكم به، فهو منفذ لحكم الله ورسوله ﷺ وليس قاضيًا، وهو يضع كل أمر حيث أمره الله به، وذلك لأن الحلال والحرام، وتدبير شؤون العباد كل ذلك ثابت إلى يوم القيامة ليس لأحد أن يزيد عليه أو ينقص .

إنه الورع فى ذروته، وحسن المراقبة لله طاعة له سبحانه وامتثالاً لأمر رسوله ﷺ .

إن التوجيهات التربوية فى هذا المقام كثيرة يطول المقام ببسط القول فيها، فحسبى منها ما ذكرت من إشارات ضوئية على الطريق لنهتدي بها على صراط ربنا المستقيم .

ويكفينا القول أن الشريعة الإسلامية كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان، وقد قضى ربنا سبحانه بذلك فى قوله: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ [المائدة: ٣] .

ومن ثَمَّ فإن المبتدع معاند للشرع وهو بذلك غير محب لله ولرسوله ﷺ وتماديه فى البدع والإكثار منها ورفضه للنصيحة يؤدى إلى انحرافه عن دين الله، كأنه يقول للشارع أنت تعلم وأنا أيضًا أعلم، وربما يصل بتبجحه على الله ورسوله إلى أنه يعلم ما لا يعلمه الشارع وعندئذٍ يكون قد دخل فى محيط الكفر والضلال المبين، وفى ذلك اتباع للهوى فيزل العقل ويموت القلب .

وخروجًا من هذا المحيط المظلم وجب علينا أن نلزم أنفسنا أمر الله، وأن نتبع هدى رسوله ﷺ ونترك ما أحدث المحدثون فى دين الله، وبذلك نكون قد رضينا لأنفسنا ما رضى به الله وسيرضى إن شاء سبحانه به عنا، وأحببنا ما أحبه رسوله فننال حبه وشفاعته، تحقيقًا لقوله ﷺ :

«**من قال: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً أخذت بيده - وأنا الزعيم - يوم القيامة لأدخلهُ الجنة من أى أبوابها شاء**» - أو كما قال - .

أقسام البدعة

تنقسم البدعة إلى حقيقية وإضافية، وهما أشهر أقسامها:

• أولاً: البدعة الحقيقية:

سميت حقيقية؛ لأنها ظاهرة البيان فى خروجها عن أصل الدين حيث لا سند لها من كتاب أو سنة أو غيرهما . فهى ما كان الابتداع فيها من جميع وجوهها، ولم تدخل فى أية ناحية من الدين، لا كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا سند، أى أنها مخترعة عن هوى بجهل وضلال، ومن أمثلتها ما يأتى:

١ - **التقرب إلى الله - تعالى - بالرهبانية:** والرهبانية: هى المبالغة فى العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس، وترك الزواج مع الداعى وعدم المانع، وترك عمل الدنيا الحلال .

٢- **أفعال بعض الفرق تقربًا إلى الله بما يتنافى مع الدين:** كفرق الهند التى تحرق نفسها تقربًا إلى الله - تعالى - استعجالاً للموت لنيل الدرجات العليا فى زعمهم .

وكذلك ما يفعله الشيعة من العجم يوم عاشوراء، من خدش الرؤوس والوجوه، واللطم والنواح، والتمثيل الفظيع بأجسادهم، وذلك؛ لأن الحسين -رضى الله عنه- قد قتل فى هذا اليوم، وهم يفعلون ذلك زاعمين القربة إلى الله - عز وجل - والحق أنهم على جهالة وضلال، وأن فعلهم هذا لا سند له من كتاب ولا سنة فهم آثمون .

ولقد شاهدت بنفسى مواقفهم وأفعالهم المخزية التى ينكرها الدين، ويأباها العقل، بل يلفظها أى فكر إنسانى، وكان ذلك فى مدينة روالبندى فى جمهورية باكستان الإسلامية فى سنة (١٩٨٣،١٩٨٤م) .

٣- **تعليق الشموع والمصابيح على الأضرحة**، بعض الجهلة يفعلون ذلك وغيره من غير سند من كتاب ولا سنة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا تقربًا إلى الله تعالى بما لم يشرع.

٤- تحكيم العقل ورفض النصوص فى دين الله: وهذا العمل يُعدُّ مخالفة صريحة لقول الله - تعالى - : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ [النساء: ٥٩] .

وقوله سبحانه: ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ [الأنعام: ٥٧] .

ومن مظاهر تحكيم العقل تأويل النص القرآنى بحل الخمر الوارد فى قوله تعالى: ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ [المائدة: ٩٣] .

تأولها قوم على أن الخمر حلال، وأنها داخلة تحت قوله: ﴿ **فيما طعموا** ﴾ فهؤلاء استحلوا بالتأويل ما حرم الله بنص الكتاب، وشرعوا فى دين الله ما لم يأذن به، وهذا هو الابتداع بعينه ويمكنك مراجعه الصواب فى توجيه القول حول سبب نزول الآية ومراد الشارع منها فى كتب التفسير، وفى كتاب الإبداع.

• ثانياً: البدعة الإضافية:

هى التى ليست بدعة فى ذاتها، وإنما دخلها الابتداع النسبى، وهى التى لها أصل فى الشرع، ولكنها تختلف عنه فى الزمن والمكان، أو الكيفية .

البدعة الإضافية فى المكان: مثل: الطواف، فقد شرعه الله حول الكعبة فقط، فنقلوه إلى مكان آخر وهى الأضرحة، فسمى بدعة إضافية فى المكان .

ومثله أيضًا: تلاوة القرآن فى الركوع والسجود، وهذان الموضعان شرع

لهما تسبيح مخصوص فابتدع بعض الناس قراءة القرآن مكانهما وهذا ليس من السُّنَّة .

البدعة الإضافية فى الزمن: مثل: المواظبة على صيام يوم الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع مع أن اليومين اللذين وصَّى بصيامهما النبى ﷺ هما: يوم الإثنين، ويوم الخميس.

ومن ذلك أيضًا صيام يوم ميلاد النبى ﷺ وهو ١٢ ربيع الأول، أو صيام نصف شعبان، أو يوم ٢٧ من شهر رجب على أنه صباح الإسراء والمعراج، فهذه تُعدّ بدعًا إضافية فى الزمن، ذلك؛ لأن الصيام المسنون نبه عليه النبى ﷺ وواظب على صيامه فى أيام معلومة ومحدودة .

البدعة الإضافية فى الكيفية: مثل: ذكر الله تعالى بصوت مرتفع مع التحريف فيه لأسماء الله تعالى مع قوله سبحانه: ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفةً ودون الجهر من القول** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وأيضًا ذكر الله مع استحضار المريد الذاكر صورة شيخه أمامه على حد زعم بعض المتصوفة ممن يدعون المعرفة والوصول إلى الله تعالى، وغير ذلك من وسائلهم المخترعة فى الذكر والصَّلاة .

فأصل الذكر مطلوب، ولكن التحريف فى كيفيته هو المحرم .

مما سبق نعلم أن البدعة الإضافيه ليست بدعة مخترعة أساسًا، ولكن البدعة دخلت إلى الدين من التخصيص لها فى زمن مخصوص، أو مكان مخصوص أو كيفية مخصوصة مع أنه يوجد لها أصل فى الشرع، فوجه هذا الأصل على غير مراد الشارع – والله أعلم .

هذا ، وهناك أقسام أخرى للبدعة وهى:

١- تنقسم إلى فعلية وتركية .

٢- تنقسم إلى عملية واعتقادية .

٣- تنقسم باعتبار الأزمنة أو الأمكنة أو الأحوال كالتى تقع فى الموالد

والأفراح والمآتم والمساجد والمقابر .

٤- تنقسم إلى كلية وجزئية .

٥- تنقسم إلى عبادية وعادية .

راجع تفصيل القول وتوجيهه حول هذه الأقسام فى كتاب الإبداع، وذكرتها هنا مجملة من باب تمام القول فى أقسام البدعة .

• البدعة فى ظل الأحكام الخمسة:

البدعة تعتريها الأحكام الخمسة، وهى:

(الواجب - والمندوب - والمباح - والمحرم - والمكروه) .

١- البدعة الواجبة:

هى ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع. كجمع القرآن وتدوينه فى المصاحف، وجمع الناس على المصاحف العثمانية، وترك ما سوى ذلك من القراءات التى كانت مستعملة فى زمان رسول الله ﷺ .

وكذلك جمع العلوم وتدوينها، والاشتغال بالعلوم التى يُفهم بها كلام الله تعالى ورسوله - ﷺ- والكلام فى الجرح والتعديل لتمييز الصحيح من السقيم.

وأيضًا تقرير قواعد الفنون العربية والشرعية، وبيان فروعها وأحكامها .

وتفسير القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، وتدوين كل ذلك، وجملة القول فى ذلك: كل ما حدث مما يرجع إلى حفظ الدين من الضياع والتحريف، كالرد على أهل البدع والأهواء المحرمة كالقدرية والمجسمة وغيرهم .

وذلك؛ لأن تبليغ الدين إلى من يأتى بعدنا واجب إجماعًا، كما أن إهمال ذلك حرام.

وأيضًا فإن التفقه فى الدين واجب، ويتحقق أداء هذا الواجب فى ضوء ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وتسمية مثل هذا العمل بدعة باعتبار عدم

وجوده فى العهد النبوى الشريف .

٢- البدعة المندوبة:

وهى ما تناولته قواعد الندب وأدلته .

كصلاة التراويح عشرين ركعة فى جماعة على الهيئة التى يؤدى بها الناس من عهد عمر - رضى الله عنه - وحتى الآن، فإن هذه الهيئة لم تكن معروفة فى عهد النبوة وعهد أبى بكر، وصدر من خلافة عمر .

٣- البدعة المباحة:

وهى ما تناولته قواعد الإباحة وأدلتها من الشرع .

ومنها : اتخاذ المناخل للدقيق، والأكل على الموائد، ولحجة الإسلام الإمام الغزالى توجيه فى ذلك بالإباحة لعدم ثبوت النهى عن ذلك .

ومنها: استخدام السفرة، وهى اسم لقطعة من الجلد ونحوه يوضع عليها الطعام عند التناول .

ومنها: الأكل بالملاعق.

ومنها: التوسع فى الطيب من المأكل والمشرب والملبس، والمسكن . إلى غير ذلك مما يباح استعماله ما دام لم يرد فى شأنه نهى يمنع من فعله، أو تضاد مع سنة ثابتة .

٤- البدعة المحرمة:

وهى ما تناولته قواعد التحريم وأدلته من الشرع.

كالمكوس، والمحدثات من المظالم، والمحدثات المنافية لقواعد الشريعة، كتقديم الجهال على العلماء، وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التوريث بعلة أن المنصب كان لأبيه، وهو فى نفسه ليس بأهل لحمل الأمانة .

ومنها أيضًا: مذاهب أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة،

كمذهب الكرامية فى تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ ترغيبًا أو ترهيبًا، والروافض فى قولهم بوجوب صوم يوم الشك أى: اليوم الذى قبل رمضان، وفى ذلك مخالفة صريحة لقول النبى ﷺ : «**لا تقدموا رمضان بصوم يوم**» .

ومنها: تلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربى ومن ذلك أيضًا: الانتماء إلى جماعة من الدجالين يزعمون التصوف وهم يخالفون أهل العلم من الفاهمين لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى غير ذلك من الأفعال والأقوال المحرمة .

٥- البدعة المكروهة :

وهى ما تناولته قواعد الكراهة وأدلتها من الشرع .

كتخصيص الأيام الفاضلة أو غيرها بنوع من العبادة، إذ ليس لأحد أن يحدث شعارًا دينيًا من قِبَل نفسه، وشأن العبادة إذا التزمت فى وقت مخصوص أن تكون من شعائره. وقد ورد فى الصحيح فيما أخرجه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بقيام، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم**» رواه الجماعة إلا النسائى .

ولمسلم: «**لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم**» .

ومن البدع المكروهة : الزيادة فى المندوبات المحدودات شرعًا كالتسبيح ثلاثًا وثلاثين عقب الصلوات فيسبح مائة .

ومنها: زخرفة المساجد، وتزويق المصاحف، وأخذ الفأل من المصحف... وغير ذلك مما لا يحتمل المقام ذكره، وسنذكره فى موضعه .

* * *

أسباب اختلاف الأئمة فى فقه القرآن والسنة

يحسن أن نذكر هنا، مجمل الأسباب التى أدت إلى اختلاف العلماء فى استنباط الأحكام من الآيات والأحاديث، حتى تكون بمثابة إرشاد - لمن يريد فقه الشريعة من القرآن والسنة - إلى معرفة طرقهم فى الاستنباط، وإلى الموازنة بينها، وترجيح ما يظهر له رجحانه، من آرائهم وأفهامهم.

وقد اتفقوا جميعًا على أن الأصل الذى لا يعدل عنه فى التشريع، ويقضى على كل ما سواه متى وجد، هو كتاب الله، ثم سنة الرسول ﷺ.

وما من إمام إلا بذل غاية جهده فى الوصول إلى ما يدل عليه القرآن، أو السنة، أو هما معًا، وعلى الرغم من هذا وقع بين الأئمة اختلاف كثير فى استنباط الأحكام من هذين المصدرين.

ويمكن حصر أسباب الاختلاف فى نوعين: أحدهما : أسباب تعم القرآن والسنة، وثانيهما : أسباب تخص السنة.

أولاً: أسباب الاختلاف التى تعم القرآن والسنة

من خصائص اللغة العربية: اشتراك اللفظ فى الوضع لمعنين فأكثر، وتردده بين المعنى المجازى، أو بين المعنى الحقيقى والمعنى الشرعى.

ومن خصائصها أيضًا: اشتراك الجمل المركبة بين معنين مختلفين بسبب تركبها بحروف خاصة، (كأداة الاستثناء)، وكلمتى (أو) و (الفاء).

ومن المعلوم أن القرآن والسنة عربيان، فيهما ما فى اللغة العربية من هذه الخصائص التى تؤدى إلى الاحتمال فى المعنى، ومن هنا وقع الاختلاف فى فهم ما يدلان عليه.

ولنذكر جملة أمثلة نوضح بها كيف نشأ الخلاف بينهم من هذه الخصائص.

الاختلاف الذى يرجع إلى الاشتراك فى اللفظة المفردة :

١ - ولهذا النوع من الاختلاف أسباب :

تردد اللفظة المفردة بين صنيعين حقيقيين :

أمثلة : **المثال الأول :**

فمن أمثلة الاشتراك فى اللفظة المفردة : كلمة (قرء) الواردة فى قوله تعالى، بيانًا لعدة المطلقات ذوات الحيض : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ [البقرة : ٢٢٨]، فإنها مشتركة بين الحيض والطهر، وثبت ورودها فى كلام العرب لهما على حد سواء، ولا خلاف بين العلماء فى ذلك كما لا خلاف بينهم فى أن المراد منها هو أحد المعنيين لا مجموعهما ؛ وإنما اختلفوا فى المراد منها فى الآية :

فذهب جماعة من الفقهاء ومنهم مالك، والشافعى، إلى أن المعنى المراد هو الطهر. وعليه فإن عدة المطلقة المذكورة تحسب بالأطهار، أعنى الأزمنة التى تقع بين الدمين، وتنتهى العدة بانتهاء الطهر الثالث، فلا يكون للزوج عليها رجعة، ويحل لها أن تتزوج بغيره.

وذهب جمهور آخرون ومنهم أبو حنيفة إلى أن المراد منها هو الحيض. وعليه فعدة المطلقة المذكورة تحسب بالحيض، ولا تنتهى العدة عندهم إلا بانتهاء الحيضة الثالثة.

وقد أكثر كل فريق من استظهار القرائن التى تدل فى نظره على أن المراد من الكلمة هو المعنى الذى ذهب إليه. ومما قاله الأولون : أن اسم العدة (ثلاثة) جاء فى الآية مؤنثًا، وهو فى اللغة العربية يدل على أن المعدود به مذكر، وهو لا يكون مذكرًا إلا إذا كان المراد به الطهر. وأم كلمة (قرء) إذا كانت بمعنى الحيض جمعت على (أقراء)، ومنه قول الرسول ﷺ للمستحاضة : « **دعى الصلاة أيام أقرائك** »، أما الذى بمعنى الطهر فإنه يجمع على (قروء)، كالوارد فى الآية، فليكن هو المراد.

ومما قاله الآخرون:-

١- أن العدة شرعت لتعرف براءة الرحم من الحمل، والذى يدل عليها إنما هو الحيض لا الطهر، بدليل أن الشارع اعتبر استبراء الجوارى المشتراة بالحيض، نظرًا لأنه المعروف للبراءة المطلوبة، فليعتبر الحيض فى العدة أيضًا؛ لأن المقصود منها هو المقصود من الاستبراء.

٢- أن الرسول ﷺ قال: «**طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان**»، والأمة لا تخالف الحرة فى جنس المشروع، وإنما تخالفها فى التنصيف، فإذا كانت عدة الأمة بالحيض، كانت عدة الحرة به أيضًا.

٣- أن الآية نصت على عدد مخصوص وهو (ثلاثة)، وحقيقته ثلاث وحدات، ولا يطلق على وحدتين وبعض الثالثة إلا مجازًا. وعلى رأى الآخرين قد تكون العدة طهرين وبعض الثالث، وذلك فيما إذا وقع الطلاق فى نهاية الطهر، فلا يصدق العدد على سبيل الحقيقة، وليس كذلك على ما ذهبنا إليه؛ لأن الحيضة التى يقع فيها الطلاق لا تحسب عندنا من العدة.

٤- أن قوله تعالى، فى بيان عدة التى لا تحيض: ﴿**وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ**﴾ [الطلاق: ٤]، صريح فى جعل الأشهر بدلاً من الحيض فى العدة، فصار الاعتداد بالأشهر مشروطًا بعدم الحيض، فدل على أن الحيض هو الأصل، وهذا شأن قاعدة البدل والمبدل منه، كما تراه فى التيمم والوضوء، أخذًا من قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا**﴾ [المائدة: ٦] فإنه دل عند الجميع على أن الأصل هو التطهر بالماء، وأن التطهر بالتراب بدل عنه، فكذلك هنا.

ثم قالوا بعد هذا: صحته روى الشعبى عن ثلاثة عشر من أصحاب النبى ﷺ: «**أن الرجل أحق بامرأته ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة**»، ولو كانت العدة بالطهر لا تثبت بالدخول فى الحيضة الثالثة، ولم تتوقف على الاغتسال منها، كما جاء عن هؤلاء الصحابة وهذا دليل آخر على أن المراد من الكلمة هو الحيض لا الطهر.

ثم ناقشوا ما أورد الأولون من قرائن، فأثبتوا لهم مجىء (قروء) جمعًا لقرء بمعنى الحيض، ووجهوا تأنيث العدد بأنه منظور فيه إلى اللفظ، ومراعاة اللفظ كثيرة فى اللغة، والآية جاءت على هذا الاعتبار، فلا يدل على تذكير المعدود.

وقد قال ابن رشد: (ولكلا الفريقين احتجاجات طويلة، ومذهب الحنفية أظهر من جهة المعنى، وحجتهم من جهة المسموع متساوية أو قريب من متساوية)

ولعلك تأخذ من هذا النقاش فكرة مدى نحب الفقهاء فى الاستنباط وتأييد الآراء.

المثال الثانى:

ومن الأمثلة أيضًا اختلاف الفقهاء في معنى كلمة (نكح)، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢]، فإنها مشتركة بين العقد والوطء، ومن هذا الاشتراك نشأ اختلافهم فى معنى الآية:

فحملها أبو حنيفة على الوطء ورأى حرمة من زنى بها الأب على الابن.

وحملها الشافعى وآخرون على العقد، ورأوا أن مزنية الأب لا يحرم زواجها على الابن.

وقد وردت الكلمة فى القرآن، ولسان العرب، بمعنى الوطء مرة، وبمعنى العقد أخرى ؛ فاختلف العلماء فى تعيين المعنى المراد. والترجيح بين الرأيين مذكور فى كتب التفسير والفقه، فارجع إليه إن شئت.

ب- تردد اللفظة المفردة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى:

ومن أمثلة الاختلاف الناشىء من تردد اللفظة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى: اختلافهم فى معنى كلمة (أو ينفوا من الأرض) الواردة ضمن عقوبات المحاربين لله ولرسوله، فى الآية التى تذكر بعد.

فقد حملها الجمهور على الإخراج من الأرض التى ارتكب فيها الإفساد،

وهو المعنى الحقيقى للكلمة، وحملها الحنفية على السجن، وهو معنى مجازى لها.

ومنشأ الاختلاف أن كلمة (نفى) تستعمل مجازًا فى السجن، فرأى الأولون أن اللفظ يجب حمله على المعنى الحقيقى ما لم يصرف عنه صارف، ولم يوجد هنا صارف، فلا يصح استعماله فى المعنى المجازى.

أما الحنفية فقالوا: قد وجد ما يصرف عن إرادة المعنى الحقيقى وهو استحالة أن يراد نفيه من جميع الأرض؛ لأنه لا يكون إلا بالقتل، والنفى عقوبة غير القتل. وإن أريد النفى من خصوص أرض المسلمين، كان فيه زج المسلم فى دار الكفر، وهو لا يجوز شرعًا. وإن أريد خصوص الأرض التى ارتكب فيها الإفساد، إلى أرض أخرى من أرض المسلمين، لم يتحقق الغرض المقصود من العقوبة، وهو الزجر عن إخافة السبيل، وكف الأذى عن الناس، فإنه قد يرتكب فيها مثل ما ارتكب فى الأرض الأولى. ومن هنا رأى الحنفية تعيين الحمل على المعنى المجازى، وهو السجن، وهو ممكن بدون قتل، ولا يمنع منه مانع شرعى، ومحقق للغرض المقصود من التشريع.

ج- تردد اللفظة المفردة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى:

ومن أمثلة الاختلاف الناشىء من تردد اللفظة بين المعنى اللغوى والشرعى: اختلافهم فى كلمة (بناتكم) الواردة فى آية المحرمات من النساء.

فحملها أبو حنيفة على ما يشمل البنت المتخلقة من ماء الزنا، نظرًا إلى أنها بنت بالمعنى اللغوى، ورأى حرمتها على من تخلقت من مائه.

ورأى الشافعى أنها لا تتناولها، فلا تحرم على من تخلقت من مائه، نظرًا إلى أنها ليست بنتًا شرعية، بدليل عدم توريثها، وعدم إباحة الخلوة بها، وعدم ثبوت ولايته عليها.

ومنشأ هذا الخلاف تردد اللفظ بين المعنى اللغوى، وهو المتولد من ماء الرجل مطلقًا، والحقيقة الشرعية، وهو خصوص المتولد من ماء الرجل فى ظل نكاح شرعى صحيح.

الاختلاف الناشيء من الاشتراك الواقع فى تركيب الألفاظ بعضها على بعض:

٣- أمثلة: المثال الأول:

ومن أمثلة الاشتراك الواقع فى تركيب الألفاظ بعضها على بعض قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ**﴾ [المائدة: ٣٣]، فقد ركب فيها الكلام بكلمة (أو)، وهى تجيء فى لسان العرب للتخيير بين شيئين أو أشياء تارة، وتجيء للتنويع والتوزيع، بالنظر إلى حالات مختلفة تارة أخرى.

ومن هنا نشأ اختلاف الفقهاء فى هذه العقوبات: هل هى مرتبة على الجنايات التى علم الشارع ترتيبها عليها؟ وعليه فلا يقتل من المحاربين إلا من قتل، ولا يقطع منهم إلا من أخذ المال، ولا ينفى إلا من لم يقتل ولم يأخذ المال. وإلى هذا الرأى ذهب جمهور العلماء حملاً لكلمة (أو) على التنويع والتوزيع.

أو هى ليست مرتبة على الجنايات، وإنما سيقت على وجه للتخيير؟ فيكون للإمام الخيرة فى توقيع أيتها شاء على من شاء، ممن ثبت عنده أنه يحارب الله ورسوله، ويسعى فى الأرض بالفساد، سواء أقتل أم لم يقتل، وسواء أخذ المال أم لم يأخذ، وإلى هذا ذهب جماعة آخرون.

وحجة الأولين أن المذكور فى الآية عقوبات متفاوته: (القتل - الصلب - قطع الأيدى والأرجل - النفى). والجرائم التى يرتكبها المحاربون متفاوته أيضًا، فمنها القتل، ومنها أخذ المال، أو هما معًا، والتخويف والتهديد دون واحد منهما، وإذا كان الأمر كذلك فإن التخيير يقتضى جواز ترتيب أغلظ العقوبات على أخف الجرائم، وأخفها على أغلظها، وهذا مما تدفعه قواعد الشريعة العادلة، فلا بد من مراعاة ما عهد فى الشرع من ترتيب القتل، والقطع على

أخذ المال، والنفى على الإخافة. ونتيجة هذا وذاك وجوب توزيع العقوبات المذكورة على ما يقع من الجرائم بحسب الغلظ والخفة.

وينبغى أن يعلم هنا أن الذى قال بالتخيير للإمام، لم يرد أن الإمام يحكم بمجرد الهوى والشهوة، حتى يقال أن التخيير يقتضى ترتيب أغلظ العقوبات على أخف الجرائم إلخ، وإنما يريد أن الحاكم مخير بحكم اجتهاده فى اتخاذ ما يراه دارئًا للمفسدة، محققًا للمصلحة. وليس المقصود من هذه الآية بيان عقوبات جرائم معينة تقع من الأفراد، وإنما القصد بيان عقوبة المحاربين - عصبة لا أفراد - وأن الإمام مخير في توقيع ما يراه، مما يمليه عليه النظر للمصلحة وقد تكون جرائمهم ثابتة من قتل وأخذ مال، ولكن يرى الإمام أن لهم باغتصابهم شرور ومفاسد فى الأمة، تربو بكثير عن قتل شخص فقط، أو عن قتله وأخذ ماله، وذلك كما فى العصابات المتآمرة على خطف الأولاد والسيدات، وتدبير الثورات الداخلية، التى من شأنها أن تفسد الأمن العام، وتروع الآمنين فى المساكن والطرقات. ولا شك أن هذا التخيير هو أساس صلاحية هذه الآية لأن تكون مصدرًا لأعظم تشريع، يضرب به على أيدى العصابات المفسدة.

أما هذا التوزيع الذى ذهب إليه الأولون، ففضلاً عن أنه ليس له سند يحتمه، فهو تقييد للحاكم بما لم يرد الله أن يقيده به. ومراعاة ما عهد فى الشرع لجرائم الأفراد فى عقوبة المحاربين - ليس فى الشرع ما يدعو إليه، أو يدل عليه، ويرشد إلى هذا أن القطع هنا لليد والرجل معًا بخلافه فى جريمة السرقة المعتادة، وأن الصلب هنا بخلافه فى أية جريمة أخرى فردية.

فالحق الذى نراه فى هذه المسألة هو الحمل على التخيير، المبنى على الاجتهاد والمشورة فى تعرف المصلحة، وما يجب أن يسن من قوانين . أما الاختيار بالهوى والشهوة فلا يعرفه الإسلام من الحاكم الإسلامى المنوط به تنفيذ حدود الله وأحكامه.

ولا يهولنك ما تسمع من أفواه المشوهين للإسلام فى عقوباته، فتذكر كما يذكرون: «أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف»، وتقول

كما يقولون: عقوبات تتخلع من هولها القلوب. بل عليك أن تستحضر معنى قوله - تعالى - : ﴿ **الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ وعندئذ يفتح لك باب من العلم والحكمة، تؤمن منه بحكمة المشرع الحكيم، ثم تلتفت إلى هؤلاء الذين يقتلون الجماعات والأمم، رجالاً ونساءاً وأطفالاً، ويذرون الديار بلاقع من غير أشجار ولا بناء، وتقول لهم أين رحمتكم التي لا تظهر إلا لغرض تشويه الجمال، وإلباس الحق بالباطل؟ ولكنه الهوى يملي على صاحبه ما يشاء.

المثال الثاني:

ومن أمثلة الاشتراك الواقع في التركيب أيضًا، قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ٤]؛ فقد ركب الكلام فيها بكلمة (إلا) بعد جملتين متعاطفتين، وهما قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا** ﴾ وقوله ﴿ **وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾. ومثل هذا التركيب في اللغة، يحتمل رجوع الاستثناء فيه إلى الجملة الثانية فقط، ويحتمل رجوعه إلى الجملتين معا.

وبالنظر إلى هذا الاشتراك اختلف العلماء: فذهب الحنفية إلى الأول، ورأوا أن المجلود بالقذف يظل بعد التوبة غير مقبول الشهادة.

وذهب غيرهم إلى التأني، ورأوا أن التوبة ترد إليه اعتباره في الدنيا، فتقبل شهادته، كما ترد إليه اعتباره عند الله، فتخرجه من زمرة الفاسقين.

وإنما ذهب الحنفية إلى الأول؛ لأنهم يرون أن رد شهادة القاذف من تمام الحد لأن الآية رتبت على القذف أمرين: أحدهما إيجابي، هو الحاد المذكور في قوله تعالى: ﴿ **فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً** ﴾، والآخر سلبي، وهو عدم قبول الشهادة المذكور بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا** ﴾.

أما غيرهم فرأى أن الحد هو الجلد، وأن رد الشهادة عقوبة زائدة؛ وحجتهم في ذلك أن المعروف في الحدود أنها عقوبات بدنية، ورد الشهادة عقوبة

أدبية، ولم تعهد عقوبة أدبية فيما شرعت له الحدود.

وقد اتخذ كل منهما نظرته إلى رد الشهادة أساسًا لرأيه فى رجوع الاستثناء، وبهذا وذاك كان الخلاف فى المسألة.

وقد عرض الأصوليون لمسألة (رجوع الاستثناء بعد الجمل المتعاطفة بالواو)، وبينوا ما للعلماء فيها من مذاهب، وما لهم على مذاهبهم من حجج، فليرجع إليها من شاء.

وينبغى أن تعلم أن الخلاف فيها إنما هو فى حالة ما إذا تجرد الكلام عن دليل يعين أحد الاحتمالين، كما هو الشأن لكل اختلاف فى مشترك.

أما إذا وجد فى الكلام ما يعين أحد الاحتمالين، فإنه يجب المصير إليه باتفاق، وذلك مثل قوله تعالى، فى كفارة القتل الخطأ: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾، فإنه قد اشتمل على قرينة تعين أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فقط، وهذه القرينة هى امتناع عود الاستثناء إلى تحرير الرقبة؛ لأن تحرير الرقبة حق لله - تعالى-، وتصدق الولى لا يتعلق به ولا يسقطه.

ومثال ذلك أيضًا: الاستثناء الواقع فى آية المحاربين السابقة وهى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، فإنها قد اشتملت على قرينة تفيد رجوع الاستثناء إلى الجمل كلها، وهى قوله تعالى: ﴿**من قبل أن تقدروا عليهم**﴾، وتمنع رجوعه إلى الأخيرة وحدها، وهى قوله تعالى: ﴿**ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**﴾؛ لأنه من المعلوم أن التوبة من الذنوب تسقط العذاب الأخروى مطلقًا، كانت قبل القدرة عليهم أم بعدها، فلا يبقى على هذا الفرض للتقييد بقبل القدرة فائدة، فوجب رجوع الاستثناء بهذا إلى جميع ما ذكر، فترفع للتوبة الحد كما ترفع العذاب والخزى.

المثال الثالث:

ومثال الاشتراك الواقع فى التركيب أيضًا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وينبغى أن تعلم هنا أولاً، أن الإيلاء هو حلف الرجل على هجر امرأته أربعة أشهر فأكثر، وقد كان عند الجاهلية من أساليب إضرارهم بالزوجة، وكان يمتد عندهم إلى سنتين، تكون المرأة فيهما كالمعلقة، لا متزوجة ولا مطلقة، فعدله الإسلام ورده إلى أربعة أشهر، ورتب عليه حكمه الذى يرفع عن المرأة الضرر بهذه الآية، وقد ركب الكلام فيها بكلمة الفاء وهى للتعقيب، غير أنها تجىء فى لسان العرب للتعقيب الزمنى تارة، فيكون زمن ما بعدها زمن ما قبلها، نحو أراد الصلاة فتوضأ، وتجىء أخرى للتعقيب الذكرى .

وقد نشأ من هذا الاحتمال اختلاف الفقهاء فى معنى الآية، فمن ذهب إلى الأول رأى أن المعنى: فإن فاءوا بعد انقضاء المدة فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق أى بعد المدة أيضًا، فإن الله سميع عليم، وبذلك رأوا أن مضى الأجل لا يقع به طلاق، والواجب على الزوج حينئذ أن يطلق، فإن أبى رفع أمره إلى الحاكم فيجبره على الطلاق أو يوقعه عليه.

ومن ذهب إلى الثانى رأى أن الطلاق يقع بمضى المدة لأن المعنى: فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق أيضًا فيهن، وذلك بعدم الفىء إلى مضى المدة، فإن الله سميع لحديث نفوسهم بهذا العزم، عليم بما يكنونه من الأضرار بالمرأة.

وهكذا كان الخلاف فى حكم الإيلاء مترتبًا على الخلاف فى تعيين المراد من التعقيب الذى تدل عليه (الفاء).

وقد اعتمد الحنفية الذين ذهبوا إلى الاحتمال الثانى على قراءة ابن مسعود: «فإن فاءوا فيهن»، وقال الكمال من علمائهم: (رجحت قراءة ابن

مسعود احتمال التعقيب الذكرى؛ لأن الأصل توافق القراءات، أو لأنها قراءة آحادية، وهى تثبت الحكم وقد قام الدليل على صحة الإثبات بها، إذ ليس من شك فى أنها قرآن عن صاحب الوحى عند الراوى، فإذا امتنعت القرآنية لعدم التواتر، بقى أنها عن صاحب الوحى. ونفى الخاص، وهو أنها قرآن، لا ينفى العام، وهو أنها عن صاحب الوحى، فهى إما قرآن أو حديث، وهذا دوران بين الحجية على وجه، والحجية على وجه آخر، لا بين الحجية وعدمها)، وعلى كل فلكل فريق استدلالات وترجيحات يرجع إليها من شاءها فى كتب التفسير والفقه، وفى هذا القدر كفاية فى المراد هنا.

المثال الرابع: ومن أمثلته أيضًا، قوله تعالى ﴿**وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ [النساء: ٢٣]، وقد ركب الكلام فيها على صفة بعد موصوفين، فالصفة قوله تعالى ﴿**اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ والموصوفان «نسائكم» المذكورة مع الأمهات، و «نسائكم» المذكورة مع الربائب ؛ ومثل هذا يحتمل رجوع الصفة إلى الموصوف الثانى فقط، ومن هنا نشأ الاختلاف بين الفقهاء.

فرأى جماعة رجوع الصفة إليهما، وكان المعنى عندهم: حرمة أمهات النساء اللاتى دخلتم بهن، وعليه فلا تحرم الأم بالدخول على البنت، كالبنت لا تحرم إلا بالدخول على الأم.

ورأى آخرون أنها صفة الثانى فقط، فلا تفيد سوى تقييد حرمة البنت بالدخول على الأم، وتبقى حرمة الأم مطلقة حصل دخول بيتها أم لم يحصل، وإلى هذا ذهب الجمهور، وهو معنى القاعدة المشهورة: (العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات).

الاختلاف الناشىء من الاختلاف فى القواعد الأصولية:

٣- إن معرفة هذا النوع من أسباب الاختلاف، تستدعى الإلمام بآراء الفقهاء فى القواعد الاصولية، وهى كثيرة متنوعة.

ففى باب الأمر: هل يدل على الوجوب، أو على الندب.

وفى باب النهى: هل يدل على الفساد، أو على الصحة، أو لا يدل على واحد منهما؟.

وفى باب العام: هل هو حجة بعد التخصيص فى الباقى، أو ليس حجة؟

وهل يصح التخصيص بحديث الآحاد، وبالقياس، أو لا يصح؟.

وفى باب المطلق: هل يحمل على المقيد أو لا يحمل عليه، وهل يصح التقييد بحديث الآحاد أو لا يصح؟.

وفى باب المفهوم: هل له دلالة على نقيض الحكم فى الجانب المخالف للمنطوق، أو ليس له دلالة؟ وغير ذلك مما عرض لبحثها علم الأصول، وعرفت آراء العلماء فيه.

ونذكر هنا جملة أمثلة توضح كيفية الاختلاف الناشىء من الاختلاف فى هذه القواعد، لتكون بمثابة إرشاد لمعرفة التطبيق الخلافى من هذه الناحية.

المثال الأول:

فمن ذلك اختلافهم فى المقدار المحرم من الرضاع: فقالت طائفة يحرم قليلة وكثيره، ورأت أخرى أن مطلق الرضاع لا يحرم، وإنما يحرم منه قدر مخصوص، ومع هذا اختلفوا فى تحديد ذلك القدر: فمنهم من يرى أنه ثلاث رضعات، ومنهم من يرى أنه خمس رضعات، ومنهم من يرى أنه عشر رضعات، ويرجع اختلافهم هذا إلى معارضة إطلاق الكتاب لأحاديث وردت بالتحديد، وإلى معارضة أحاديث التحديد بعضها بعضا.

وإطلاق الكتاب فى هذا هو قوله تعالى: **﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم﴾**، ومن الأحاديث قول الرسول ﷺ: «لا تحرم المصة ولا المصتان»، وقوله ﷺ: **«كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات، ثم نسخن بخمس معلومات»**.

فمن رجح ظاهر القرآن على هذه الأحاديث. فلم يقيد بها مطلقه، قال بتحريم الرضاع ولو كان قطرة. ومن قبل هذه الأحاديث وقيد بها الكتاب، قال بالتحديد. وبعد هذا اختلف هؤلاء فى ترجيح بعض أحاديثهم على بعض، ولكل طريقة فى ترجيح ما رجح.

ويلاحظ هنا أن الفقهاء جميعًا حصروا نظرهم فى دلالة كلمة (أرضعنكم)، فبعضهم أخذها منفردة عن الأحاديث، وبعضهم أخذها مفسرة بما صح عنده منها. ولكن لم نعرف أحدًا منهم نظر إلى ما تعطيه كلمة (أمهاتكم)، من طول مدة الاحتضان الأمومى، الذى يستحق فى العرف أن يعبر عنه بكلمة (أمهات) ؛ ولو أن ناظرًا نظر إلى هذا وأخذ ما تعطيه الكلمة بحسب العرف من معانى الأمومة، لتغير وجه الحكم فى مسألة التحريم بالرضاع، وليس فى هذا أكثر من عدم الأخذ بالأحاديث الواردة فى الموضوع، كما صنع فريق المطلقين اكتفاء بإطلاق الإرضاع فى الآية، وكان عليهم أن ينظروا تركيب «اللاتى أرضعنكم»، على كلمة «أمهاتكم»، فينكشف المعنى الذى نحاول الإشارة إليه، ولهذا مجال آخر يبحث فيه.

المثال الثانى:

ومن أمثلة ذلك اختلافهم فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها: فقد ذهب الجمهور إلى أن عدتها وضع الحمل، وذهب مالك إلى أن عدتها أطول العدتين: (عدة المتوفى عنها زوجها وهى أربعة أشهر وعشر، وعدة الحامل وهى وضع الحمل).

ومنشأ الخلاف تعارض نصين عامين وردا في الموضوع، أحدهما قوله تعالى: ﴿**وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ٤]، وهي تشمل بعمومها المطلقة والمتوفى عنها زوجها، والآخر قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهى بعمومها تشمل الحامل وغير الحامل.

فرأى الأولون تخصيص الآية الثانية بالآية الأولى، وحجتهم أن الأولى نزلت بعدها فتكون مفسرة لها، وعليه يكون المعنى: أن المتوفى عنها زوجها تعتد بالعدة المذكورة، ما لم تكن حاملاً، فتعتد بوضع الحمل، وبقيت الآية الأولى على عمومها، فتعتد الحامل بوضع الحمل، ولو كانت متوفى عنها زوجها.

ورأى الآخرون أن خصوص كل منهما، أثر فى عموم الأخرى، وكان المعنى: أن ذات الحمل تعتد بوضع الحمل، ما لم تكن متوفى عنها زوجها؛ فإذا كانت متوفى عنها زوجها، ووضعت قبل مضى مدة المتوفى عنها زوجها، فلابد من إتمامها، فإذا مضت المدة وهى حامل بقيت فى العدة حتى تضع حملها، وإن وضعت حملها قبل المدة، وجب عليها إتمامها، فعدتها أطول العدتين، فهى معاملة بالآيتين.

المثال الثالث:

ومن أمثلة ذلك أيضًا اختلافهم فى نفقة المبتوتة وسكناها، إذا لم تكن حاملاً فذهب الحنفية إلى أن لها السكنى والنفقة، وذهب أحمد إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى. وذهب مالك والشافعى إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها.

ويرجع هذا الخلاف إلى اختلاف الرواية فى حديث فاطمة بنت قيس، ومعارضة ظاهر الكتاب له.

فالذين أوجبوا لها السكنى والنفقة تمسكوا بعموم قوله تعالى: **﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾** [الطلاق: ٦]، فقد أوجبت الآية بصريحها السكنى، فوجبت النفقة لأنها تابعة للسكنى فى المعهود من الشرع. وأهملوا حديث فاطمة بنت قيس، وهو أنها قالت: طلقنى زوجى ثلاثًا على عهد رسول الله ﷺ، فأتيت النبى ﷺ فلم يجعل لى سكنى ولا نفقة. وفى بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما السكنى والنفقة لمن لزوجها عليها الرجعة**».

لم يلتفت الحنفية إلى هذا الحديث، بل ردوه مقدمين عليه عموم الآية المذكورة، وسلفهم فى ذلك عمر بن الخطاب الذى روى عنه أنه قال فى حديث فاطمة هذا: «لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة»، يريد الآية التى أشرنا إليها، ويريد أن السنة قد جرت بوجوب النفقة حيث وجبت السكنى.

أما الذين لم يوجبوا لها نفقة ولا سكنى، فقد قبلوا الحديث وجعلوه مخصصًا للآية بالمطلقة الرجعية.

أما الآخرون فقد عملوا هم أيضًا فى سقوط النفقة، بحديث فاطمة الذى ثبت عندهم، كما جاء فى موطأ مالك أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ليس لك عليه نفقة**»، وأمرها أن تعتد فى بيت أم كلثوم، ولم يذكر فيه إسقاط السكنى، فبقيت الآية على عمومها فى السكنى، وإنما قطعوا ما بين السكنى والنفقة من اتصال وتلازم، ولم يروا أن إيجاب السكنى مستلزم لإيجاب النفقة، خصوصًا وقد صرحت السنة بإسقاط النفقة والآية بوجوب السكنى، فكأنهم عملوا بالمصدرين اللذين لا يتعارضان.

المثال الرابع:

ومن أمثلة ذلك أيضًا اختلافهم فى القضاء بشاهد ويمين المدعى. فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى عدم جوازه فى شيء ما.

وذهب الجمهور إلى جواز القضاء بالشاهد مع يمين المدعى فى الأموال.

وسبب هذا الخلاف معارضة ما روى من أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد، لظاهر قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقال الحنفية: إن الآية أفادت أن الاستشهاد، وهو حجة المدعى، لا بد أن يكون إما برجلين، أو برجل وامرأتين، ولا ثالث لهما. والحديث تضمن زيادة عما فى الكتاب، والزيادة على الكتاب نسخ، ونسخ الكتاب لا يكون بأحاديث الآحاد.

أما الجمهور فقد قبلوا الحديث، وعملوا بمقتضاه، ومنعوا أن الزيادة به على الكتاب نسخ، وقالوا: إنها زيادة عما فى الكتاب، وليست تغييراً لحكم ثبت بالكتاب حتى تكون نسخًا. وقد ألزموا الحنفية بعد هذا الرد بأنهم خالفوا قاعدتهم هذه فى كثير من فروعهم المذهبية، فقد قدروا المهر، ومقدار المسروق بعشرة دراهم، مع أن القرآن فيهما وهو قوله تعالى: ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن**﴾، بالنسبة للمهر، وقوله تعالى: ﴿**والسارق والسارقة**﴾ بالنسبة للسرقة وهو مطلق يشمل القليل والكثير، فصنيعهم فى مثل هاتين المسألتين لا يتفق وصنيعهم فى مواضع النزاع التى ردوا بها الأحاديث الآحادية، بحجة أنها زيادة على الكتاب. ولكن الأحناف يقولون فى مثل هذه الفروع التى يعترض بها على قاعدتهم: إن الأحاديث التى وردت فيها ليست أحاديث آحاد، وإنما هى أحاديث مشهورة، (والأحاديث المشهورة قسم ثالث بين الآحاد والمتواتر)، وللمشهور من القوة ما للمتواتر، فصح قبولها وتخصيص عموم الكتاب، أو تقييد مطلقه بها.

ولا يخفى أن هذه نزعة قد لا يوافقهم عليها خصومهم، فالأحاديث المذكورة لم تصل قطعًا إلى درجة التواتر الذى يحكمونه فى الكتاب بالزيادة والنسخ.

ولقد كانت هذه القاعدة مجالاً واسعًا يرجع إليه كثير من الخلافات الفقهية بين الحنفية وغيرهم. وقد عرض ابن القيم فى كتابه «إعلام الموقعين» إلى هذه المسألة، فى الجزء الثانى تحت عنوان (بحث الزيادة على القرآن نسخ)، وبحثها بحثًا مستفيضًا، وأورد لها شواهد متعددة، وبين أن الحنفية تضاربوا مع أنفسهم فى تأصيلها والعمل على خلافها. والموضوع هناك عظيم النفع يجب الرجوع إليه والإلمام به.

وللإمام ابن تيمية كلام جيد فى توجيه الآية التى استدل بها الحنفية فى هذا الموضوع، بما يخرجها عن محل النزاع، فضلاً عن أنها تفيد حصر طريق القضاء فى الشاهدين، كما يريد الحنفية، ونحن نورده هنا لما فيه من الفوائد الفقهية

المتصلة بطريق القضاء على وجه عام:

قال: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل وامرأتين فى طرق الحكم التى يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات إلى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه. وبعد أن ذكر الآية قال: فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتابة، وأمر من عليه الحق أن يملى الكتاب؛ فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه وليه. ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه رجلين؛ فإن لم يجد فرجل وامرأتان. ثم نهى الشهداء المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها إذا طلبوا لذلك، ثم رخص لهم فى التجارة الحاضرة ألا يكتبوها، ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع، ثم أمرهم إذا كانوا على سفر ولم يجدوا كاتبًا، أن يستوثقوا بالرهان المقبوضة، كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم، وما تحفظ به الحقوق شىء، وما يحكم به الحاكم شىء آخر، فإن الحكم أوسع من الشاهدين، والرجل والمرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول، ولا ذكر له فى القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد واليمين مخالفًا لكتاب الله، فالحكم بالنكول أشد مخالفة .

آية المداينة:

ونحن إتمامًا للفائدة نسوق هنا آية المداينة التى جاء فيها الاستشهاد برجلين، أو برجل وامرأتين، مع الإشارة إلى ما دلت عليه من أهم الأحكام .

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً**

حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣] .

هذه هى الآية، وهى المعروفة فى لسان الفقهاء بآية (المداينة)، والمراد بالمداينة: التعامل بالدين، والدين هو المال الذى يكون فى الذمة عينًا كان أو نقدًا، فهو يشمل القرض، والسلم، وبيع الأعيان بثمن مؤجل. والأجل المسمى هو: الوقت الذى يعين بين المتعاملين بالتسمية، كالشهر، والسنة .

أما أمهات الأحكام التى تدل عليها الآية، فإنا نجملها فيما يلى:

أولاً: يؤخذ من هذه الآية على وجه عام وجوب المحافظة على الأموال، وقد احتوى أسلوبها على أنواع كثيرة من التأكيدات والتحذيرات المشددة فى أوامرها ونواهيها، وعليك بتدبرها لتضع يدك على ما اشتملت عليه من ذلك، فتعلم مدى عناية القرآن بحفظ الأموال واستثمارها، وبتقرير الحق على وجه يملأ القلوب طمأنينة، وحسبك فى المحافظة على الأموال أن جعلها القرآن قيامًا للناس، وربط بها سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

ثانيًا: طلبت الآية فى الاستيثاق بالديون أمورًا ثلاثة: الكتابة، والإشهاد، والرهن المقبوض .

١- أما الكتابة: فقد أشار فيها القرآن إلى ما يجب على الكاتب، من تحرى العدل بين الطرفين، ولا ريب أن تحرى العدل يستدعى العلم بشئون التوثيق الذى يحفظ الحقوق، حسب المعروف بين الناس أو المنصوص عليه فى القوانين الموضوعة، وفى هذا إيحاء قوى إلى أنه ينبغى أن يكون فى الأمة المتعلمون القادرون على القيام بهذه المهمة، وهم المعروفون اليوم باسم (المحررون). وأشار فيها إلى أن الذى يتولى إملاء الكاتب إنما هو المدين،

والقصد من هذا أن يكـون بحضرته واعترافـه؛ ليكون ما فى الوثيقة حـجة عليه تحفظ الحق الذى يتفق عليه مع دائـنه، ثم وكلت الإملاء المذكور إلى وليه الذى يكفله ويرعى شئونه، فيما إذا كان غير رشيد، أو عاجزاً بآفة تمنعه من النطق، أو جاهلاً بشئـون التعامل وكيفيتـه، وذلك حرصًا على حقه، وخوفًـا من أن توقعه حالته فى الإساءة إلى نفسه .

٢- إما الإشهـاد، فقد طلبت الآية أولاً: أن يكون برجلين من المخـاطبين وهم المؤمنون. وقـد أخـذ جـمهـور العلمـاء من هذا، ومن قـوله تعـالى فى الاستشـهاد على مراجعة الرجل لزوجـته بعد الطلاق: ﴿ **وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [الطـلاق: ٢] . ومن قـوله تعـالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ١٤١] أنه لا يعمل بشهادة غير المسلم ولو زعموا ذلك فى المماليك وغيرها.

وقد عـرض ابن القيـم فى كتابـه «الطرق الحكميـة» لبحث (شـهادة غـير المسلمـين على بعضهم، وعـلى المسلمين)، وبين آراء الفـقهاء فـيهـا وأدلتهم، والناظر فى المصادر التشريعية لهذه المسألة يخرج منها بأن الشريعة الإسلامية تقبل شهادة غير المسلمين بعضـهم على بعض، وعلى المسلمين، فى المعاملات العامة التى جرت العادة بحصولها أمامهم أو اشتراكهم فيها .

أمـا مثـل الرجعـة، والزواج، وطهـارة الماء ونجاسـته، وحل الذبـيحـة وحرمتها، من الشئون الخاصة بالمسلمين، والتى يغلب فيها الجانب الدينى - فإن شهادتهم فيها لا تقبل، وبهذا ضعف الاستدلال بآية الاستشهاد على الرجعة .

أمـا تقيـيد الشـاهدين فى الآية التى نحن بصـددها بكونهـما من رجـال المخاطبين، وهم المؤمنون، فهو منظور فيه إلى أن الغالب فى معاملات المسلمين أن تجرى بينهم دون أن يحـضرها غيرهم، ومـثل هذا التقيـيـد على فرض تسليم دلالة المفهوم - لا مفهـوم له باتفاق- فلا يدل على عدم صحة الاستـشهاد بغير المسلمين، ما دام الشرط الجوهرى للشهادة، وهو الصدق، متحققًا .

أما آية النساء، فـيدل سابقها ولاحقـها على أن (السبيل) فيـها، لا يشمل

الشهادة، ولا القضاء، إنما هو سبيل العزة والقهر من (الكافرين)، على (المؤمنين).

وفى الواقع أن السبيل فى الشهادة والقضاء إنما هو للحق الذى ظهر للقاضى بأى طريق كان، ولا سبيل لذات الشاهد، لا على المشهود عليه، ولا على القاضى. وبهذا تبين أنه لا دلالة لقوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾ على منع قبول شهادة غير المسلمين .

وقد أرشد الله بعد ذلك إلى أن الرجل والمرأتين، يقومون مقام الرجلين فى الاستيثاق، إذا لم يوجدا وقت المعاملة، وأشارت الآية إلى أن الحكمة فى جعل المرأتين بمنزلة الرجل الواحد، هى أن المرأة يغلب عليها النسيان أو الخطأ، ولعل ذلك يرجع إلى أن ممارستها لشئون المعاملات العامة قليلة غير مألوفة لها، فليس عندها من المران ما يجعلها ذاكرة أو حفيظة على كل ما ترى منها أو تسمع؛ تأمل قوله تعالى: ﴿**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ**﴾ .

٣- أما الرهن، فقد أرشدت إليه الآية، إذا كان المتعاملان على سفر ولم يجدا الكاتب، ولا يدل هذا التقييد على أن مشروعية الرهن فى الاستيثاق خاصة بتلك الحالة؛ لأنه قد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ رهن درعه فى المدينة ليهودى، وجرى التعامل بين المسلمين على الرهن، فى السفر والحضر، وجد الكاتب أم لم يوجد، وإنما أرشدت الآية إلى ما يقوم مقام الكتابة فى الحالة التى يغلب فيها عدم وجود الكاتب، وهى حالة السفر، وقد وصفت الآية (الرهان) بأنها (مقبوضة)، وأخذ منه جمهور العلماء أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، وأن مجرد العقد لا يكفى فيه، ورأى المالكية أنه يلزم بالعقد، ويجبر الراهن على دفع الرهن، عملاً بالنصوص الدالة على وجوب الوفاء بالعقود، وعلى أن المؤمنين عند شروطهم .

ثالثًا: دل قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ ، على أن طرق الاستيثاق التى تضمنتها الآية حق للمتعاملين، فإذا ما حلت الأمانة فيما بينهم محلها، وذهبت بخوف الجحود، وضياع

الحقوق، كان لهم أن يركنوا إليها، وكان على المدين أن يقدر ثقة صاحبه وائتمانه إياه، فليؤد إليه أمانتـه، وليتق الله ربه، وقد استدل الفقـهاء بهذا على أن الأوامر التى تضـمنتهـا الآية فى أصل الاسـتشـهاد، والكتـابة، والرهن، ليست أوامـر إيجابية، وإنما هى إرشادية، تلفت نظر الناس إلى ما يطمئنهم على حقوقهم عند الخوف، وعدم الثـقة. أما الأوامر المتعلقـة بالعدل كتابة وإمـلاءً، وبأداء الشهادة وعدم كتمانها، وغير ذلك مما فى الآية، فلم يذهب أحد إلى أنها إرشاد وتعليم، بل أجمع الكل على أنها للوجوب والتحتيم .

رابعًا: دلت الآية بإرشادها إلى الكتـابة فى طرق الاستيثـاق، على أنها من طرق القضاء أيضًا، وإلا لما تحقق أنها وثيقة تحفظ الديون .

وقد اختلف الفقـهاء قديمًا فى القضاء بالكتابة، وكانت حـجة الجمهور أن الكتابة يدخلهـا التزوير كثيـرًا، وأن الخطوط متشـابهة، فلا تفيـد الطمأنينة على أحقية ما احتوت عليه. ولكن المحققـين من الفقهاء يرون أن التزوير قدر مشترك بين الشهـادة والكتابة، وربما كـان فى الشهـادة أكثر منه فى الـكتابة، وأن طرق مضاهاة الخطوط التى عـرفها الخبراء وأتقونها قللت من الضـرر المتوقع للكتابة، ولا يوجد مثل ذلك فى الشهـادة، والمطلوب للقاضى هو ظهور الحق ولو بغلبة الظن ومتى وجد ذلك بطريق ما، وجب عليه الحكم، وكـان حكمه نافذًا مقبولاً فى نظر الحق والعدالة .

ومن لطائف ما يحكى فى شأن القضاء بالكتابة: أن مدعيًا تقدم إلى قاضٍ بوثيقة كتابية موقع عليهـا بختم المدعى عليه، فقال له القاضى: إنه لا يعمل بهذا الصك؛ لأن الختم ليس بينة شـرعية، والبينة هى الشهـود، فقال له المدعى: من قال بهـذا؟ قال القـاضى: الإمام أبو حنيـفة. فـقال المدعى: هل عندك شـهود سمعت من الإمام ذلك؟ فبهت القاضى ولم يجد جوابًا.

ومغزى هذه الحكاية، أن الكتابة كـانت هى الطريق الوحيد فى حفظ آراء الفقـهاء، ووصولها إلينا، ومـعرفتنا بهـا، فإذا كانت مما يعتـمد عليه فى معـرفة القوانين والأحكام، فـلأن يعتمد عليـها فى القضـاء بتلك القوانين أولى، وهى

تدل فى الوقت نفسه على أن اعتماد الكتابة فى حفظ الحقوق فى شأن فطرى يدركه أصحاب الفطر السليمة التى لم تطف بها مظاهر التقليد .

هذا ما أردت أن أنبه إليه مما تضمنته هذه الآية الكريمة التى اتخذها الفقهاء مصدرًا لكثير من الأحكام حتى قال بعضهم : إنها تضمنت ثلاثين حكمًا، وعلى الباحث أن يستخرج ما يستطيع استخراجه منها .

المثال الخامس:

ومن أمثلة اختلافهم الناشئ من الاختلاف فى هذه القواعد، اختلافهم فيما تدل عليه الآية التى جاء فيها قوله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** [النساء: ٢٥] . من حكم التزوج بالأمة الكتابية .

فقد رأى الجمهور أن حل الأمة مشروط بأمرين: عدم طول الحرة المؤمنة، وأن تكون الأمة مؤمنة، وذلك جريًا منهم على رأيهم فى العمل بالمفهوم، فإن مفهوم الشرط وهو قوله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾**، يدل على أن من استطاع طولاً نكاح المحصنات المؤمنات، لا يُباح له التزوج بالأمة، وأن مفهوم الوصف المذكور من قوله تعالى: **﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾**، يدل على أنه لا يُباح تزوج الأمة الكتابية .

وخالف الحنفية فى ذلك، جريًا منهم أيضًا على رأيهم فى إلغاء العمل بالمفهوم، فأباحوا نكاح الأمة، وإن كانت كتابية .

والترجيح بين الرأيين يدفعنا إلى معرفة حجج الفريقين فى هذه المسألة الأصولية، ومحلها علم الأصول، وليرجع إليها من شاء .

الاختلاف الناشئ من الاختلاف فى تحكيم القواعد الفقهية:

٤- ويلحق باختلاف الفقهاء الناشئ من الاختلاف فى القواعد الأصولية، الذى ذكرنا له هذه الأمثلة السابقة اختلافهم الناشئ من تحكيم القواعد الفقهية.

ويظهر هذا فى موقفهم أمام الحديث المعروف بحديث «المصراة»، وهو ما روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد، فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن شاء أمسك، وإن شاء ردها، وصاعًا من تمر» .

والمصراة هى الدابة التى ربط ضرعها ليجتمع اللبن فيه، من قولك: صريت الماء فى الحوض - بالتخفيف والتشديد - إذا جمعته . والمراد بالنظرين: الرأيان، والصاع قدحان وثلث.

فكان العلماء أمام هذا الحديث فريقين: فريق أخذ بمقتضاه، فأثبت حق الرد للمشترى، وإلزامه بصاع من تمر يدفعه إلى البائع، سواء أكان اللبن قليلاً أم كثيرًا. ومقتضاه أن اللبن لا يرد عليه؛ لأن الحديث أثبت له صاع تمر بدلاً من اللبن .

وخالف الحنفية هذا الحديث، فلم يثبتوا الرد بعيب التصرية، ولم يوجبوا رد الصاع من التمر، ومنشأ ذلك عندهم أن الحديث فيما يرون يخالف الأصول الفقهية من جهات، فلا يصح الأخذ به.

يخالفها من جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر، والتمر ليس مثليًا، ولا قيميًا للبن، والقاعدة أن ضمان المثليات يكون بمثلها، والقيميات بقيمتها .

ومن جهة أنه قد حدد قدر الضمان بالصاع، ولم ينظر إلى كمية اللبن، والقاعدة أن الضمان إنما يكون بقدر التالف .

ومن جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر مع بقائه، والقاعدة أن الأعيان إنما تضمن عند هلاكها .

قالوا: فلما خالف الحديث هذه القواعد الفقهية، وهى مقطوع بها، وجب رده ولم يثبتوا بهذا حق الخيار للمشترى بعيب التصرية، كما لم يوجبوا عليه الضمان المذكور، وقد حاولوا بعد هذا طعن الحديث تارة بالقدح فى الصحابى الراوى، وأخرى بالاضطراب، وثالثة بالنسخ، ورابعة بأنه معارض بقوله تعالى:

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾. وقد قال الصنعانى فى كتابه «سبل السلام»: وكلها أعذار مردودة ثم عرض لتفصيل الرد عليهم وليرجع إليه من شاء.

وقال ابن القيم فى الرد عليهم: (وزعمهم أن هذا حديث يخالف الأصول فلا يقبل، فيقال: الأصول كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أمته، والقياس الصحيح الموافق للكتاب والسنة، فالحديث الصحيح أصل بنفسه، فكيف يقال الأصل يخالف نفسه؟! هذا من أبطل الباطل. والأصول فى الحقيقة اثنان لا ثالث لهما: كلام الله، وكلام رسوله، وما عداهما، فمردود إليهما، فالسنة أصل قائم بنفسه، والقياس فرع، فكيف يرد الأصل بالفرع؟!.

قال الإمام أحمد: إنما القياس أن تقيس على أصل، فأما أن تجئ إلى الأصل فتهدمه، ثم تقيس، فعلى أى شىء تقيس؟

وقد تقدر موافقة حديث «المصراة» للقياس، وإبطال قول من زعم أنه خلاف القياس، وأنه ليس فى الشريعة حكم يخالف القياس الصحيح، وأما القياس الباطل فالشريعة كلها مخالفة له .

والذى يفهم من كل ما كتبه فى هذا الموضوع، أن الحديث أصل فى الرد بالتدليس والغش؛ فإنه والخلف فى الصفة من باب واحد، والتدليس أولى فى الرد به من العيب، ولا ريب أن هذا محض القياس، وموجب العدل، فإن المشترى إنما بذل ماله بناء على الصفة التى أظهرها له البائع فى المبيع، ولو أنه علم فى المبيع خلافها لم يبذل له ما بذل، فإلزامه بالمبيع مع التدليس والغش من أعظم الظلم. أما كيفية الضمان وأنه بالتمر، فقد نظر فيه إلى المعروف عندهم، وتحديده بالصاع إنما كان حسمًا للنزاع فى تقدير الضمان، وكان التمر؛ لأنه أقرب شىء يشبه اللبن فيما يقتاته العرب، ومتى اتفق الطرفان أو الحاكم على كيفية الضمان وقدره، كان محل الرضا والعدالة .

ولنكتف بهذه الأمثلة فى سبيل الإرشاد إلى أسباب الخلاف الواقع بين الفقهاء فيما يعم القرآن والسنة، ولننتقل بكم إلى النوع الآخر وهو:

• ثانيًا - أسباب الاختلاف التى تخص السنة وحدها •

وترجع هذه الأسباب إلى ثلاث جهات: جـهة الرواية والنقل، وجهة فعل الرسول ﷺ ودلالتـه بالنسبة إلى الأمة، وجـهة تكييف التقـرير الصادر منه ﷺ لفعل شىء رأى غيره يفعله .

الاختلاف الذى يخص بالسنة من جهة النقل والرواية:

٥- والاختـلاف الذى يرجع إلى هذه الجهـة يمكن إبطاله فيـما يأتى: أن يصل الحديث إلى أحد الأئمـة بينما لا يصل إلى غيره، أو يصل إليـهما، ولكن يصل إلى أحـدهما عن طريق لا تقـوم به الحجـة، بينما يصل إلى الآخـر عن طريق تقوم به الحجـة أو يصل إليهما من طريق واحـد، ولكن يرى أحدهما أن فى بعض رواته ضعفًا لا يراه الآخر. أو يصل إليهما من طريق واحد متفق على أوصاف رجـاله، غير أن أحدهمـا يشترط فى العـمل بمثله شروطًا لا يشتـرطها الآخر، كعرضه على كتاب الله، أو فقه المحدث، أو اشتهار الحديث فيما تعم به البلوى، أو الاتصال وعدم الإرسال ، وغير ذلك .

وقد نشـأ من هذه الجهة اختـلاف واسع النطاق بين أئمة الحديث، وتبـعه اختـلاف الفقهاء فى العـمل بالأحاديث المروية، وعدم العـمل بها؛ ولعل ذلك أوسع أسباب الاختلاف بين الأئمـة فى الأحكام التى للسنة دخل فيها، إما على سبيل الاستقلال، أو على سبيل البيان للكتاب .

الاختلاف الذى يخص السنة من جهة الفعل:

٦- فإنه بالنظر إلى فعل الرسول ﷺ ودلالته إلى الأمة يتبين ما يأتى:

[١] فعل ثبت أنه من خـواصه ﷺ، وذلك كوجوب الضحى، والتـهجد بالليل، والتزوج بما فوق الأربع، أو بغـير مهر، وهذا القسم لا يدل الفـعل فيه على مشاركة الأمة له.

ولكن قد يقع الخلاف بين العلماء فى أن الفـعل خاص به، أو عام يشمل

أمته، وذلك كالتزوج بلفظ الهبة، فقد أجازه الحنفية، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ، بناء على أن الأصل فى أفعاله ﷺ أن تكون تشريعًا عامًا، ولم يثبت لديهم خصوصية ذلك به ﷺ ، ومنعه غيرهم بناء على أنه خاص به ﷺ ، كما ترشد إليه الآية فى قولها: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ووجه الحنفية هذا الخلوص إلى سقوط المهر، لا إلى الصيغة .

وينبنى على هذا أنه يجوز لغيره من أمته أن يعقد النكاح بلفظ الهبة على مذهب الحنفية، ولا يجوز ذلك على مذهب الشافعية، مع اتفاقهم جميعًا على عدم سقوط المهر، وإن لم يجر له ذكر فى العقد ولا فيما بينهما .

[٢] ثبت أنه بيان لنص من الكتاب، وهذا تشريع فى حق الأمة باتفاق، وحكمه حكم النص الذى يعتبر أصلاً له، فإن كان الوجوب فالوجوب، أو الندب فالندب، أو الإباحة فالإباحة .

ويعرف أن الفعل بيان للنص تارة، بصريح مقاله ﷺ ، كقوله: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**»، وقوله ﷺ : «**خذوا عنى مناسككم**» ، فإنهما قد دلا على أن صلاته ﷺ ، بيان لقوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾، وأن حجه وعمرته، بيان لقوله تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ .

ويعرف تارة أخرى بوقوعه عقب مجمل، أو عام، أو مطلق لم يسبق منه بيان له لعدم تطبيقه، وذلك كقطعه ﷺ يد السارق من الكوع، بيانًا لقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [سورة المائدة: ٣٨] ، وكتيممه إلى المرفقين ومسحه كل الوجه، بيانًا لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦] .

هذا وقد يقع الخلاف أيضًا فى أن الفعل الصادر منه بيان، أو ليس بيانًا، فينشأ بذلك خلاف فى الحكم الذى يدل عليه. وهذا مثل مداومته ﷺ على المضمضة والاستنشاق فى الوضوء، فإن الحنفية قالوا بعدم وجوبها مع مواظبته

عليها بناء على أنها ليست بيانًا للوضوء الواجب. ورأى غيرهم وجوبها فى الوضوء، بناء على أن مواظبته عليها كانت بيانًا للوضوء الواجب .

[٣] فعل لم تثبت خصوصيته به ﷺ ، ولم يثبت أنه وقع بيانًا لنص سابق عليه، ولكن قد عرفت له صفة شرعية من قبل أن يفعله، وذلك مثل صلاة النوافل الراتبة مع الفرائض - قبلاً ، أو بعدًا - وحكم هذا القسم أن أمته مثله فيه .

[٤] فعل لم يثبت فيه شىء مما تقدم، لا الخصوصية، ولا البيان، ولا معلومية الصفة الشرعية .

وهذا القسم قد اختلف العلماء فى صفته بالنسبة إلى الأمة - على أقوال: قيل: يدل على الوجوب، وقيل: يدل على الإباحة، والمختار أنه إن كان قربة، أى من جنس ما يتقرب به إلى الله، ولم يواظب عليه، دل على الندب فى حق الأمة، وإن لم يكن من جنس القربات، دل على الإباحة بالنسبة لها، وإنما كان هذا هو المختار؛ لأن المتيقن من صدور الفعل منه ﷺ إباحته، فلا يثبت ما زاد عليه إلا بدليل .

وبهذه القاعدة التى ذكرناها لأفعال الرسول ﷺ يعرف منشأ اختلاف الأئمة فيما ورد منها بالنسبة للأمة .

الاختلاف الذى يخص السنة من جهة التقرير:

٧- أما التقرير، وهو سكوته ﷺ عن الإنكار عند رؤيته شخصًا يفعل شيئًا، فقد اتفق العلماء على أنه يدل على إباحة ذلك الفعل؛ لأن النبى ﷺ لا يقر أحدًا على فعل منكر فى الدين، وشرطوا لذلك أن يكون قادرًا على الإنكار، وأنه لم يعلم تقدم إنكاره على ذلك الفعل، فإن لم يكن قادرًا على الإنكار، أو كان قادرًا، ولكن علم تقدم إنكاره عليه فإنه لا يدل على إباحة الفعل .

وقالوا أيضًا : إن التقرير المذكور إذا اقترن بالاستبشار وإظهار الفرح بالفعل الذى رآه، كان ذلك أدل على الإباحة .

وقد يوجد التقرير، وقد يظهر الاستبشار، ولكن يختلف العلماء فى مثار التقرير، ومنشأ الاستبشار، أو هو مشروعية الفعل فيدل على الإباحة، أم شىء آخر وراء المشروعيــة، وأن المشروعية لم تكن ذات دخل فى التقرير والاستبشار فلا يدل على الإباحة؟

وقد كان من أثر ذلك، اختلاف الفقهاء فى اعتبار «القيافة» دليلاً على ثبوت النسب، فذهب إليه مالك والشافعية، وخالفهم فى ذلك الحنفية .

والقيافة مصدر قاف قيافة، والقائف هو الذى يتتبع الآثار ويعرفها، ويعرف أصحابها، ويعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه، والأصل فى هذا الموضوع ما روى عن عائشة $ أنها قالت: «دخل علىَّ النبى ﷺ ذات يوم مسرورًا تبرق أساريره فقال: «**ألم ترى إلى مجزز المدلجى، نظر آنفًا إلى زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد، فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض**»، وكان الكفار يقدحون فى نسب أسامة بن زيد؛ لأنه كان أسود شديد السواد، وكان زيد أبيض شديد البياض، أقر الرسول ﷺ فى هذه الحادثة مجزز المدلجى على القيافة، واستبشر بمقالته التى قالها فى زيد وأسامة، والتقرير المقترن بالاستبشار، أقوى صور التقرير الذى يدل على إباحة الفعل .

ومن هنا قال مالك، والشافعى، وجماهير العلماء، باعتبار (القيافة) دليلاً فى ثبوت النسب، ولكن الحنفية قالوا: إن سكوت النبى ﷺ على فعل مجزز وعدم الإنكار عليه، ليس تقريرًا لفعله، حتى تتخذ القيافة دليلاً على ثبوت النسب؛ لأن نسب أسامة كان معلومًا من قبل وأنه لزيد، وإنما كان الكفار يقدحون فى نسبه لما بينه وبين أبيه من تباين اللون، واستبشاره إنما كان لإلزام الكفار الطاعنين فى نسب أسامة، بما يقررونه ويعتمدون عليه فى عاداتهم وأعرافهم، وإذن فليس السكوت فى هذه الحادثة من باب التقرير الدال على مشروعية الفعل، حتى تكون القيافة دليلاً على ثبوت النسب، فهذا نوع اختلافهم فى دلالة التقرير المقترن بفعل خاص، على مشروعية ذلك الفعل أو عدم المشروعية .

أما ترجيح أحد الرأيين فى المسألة، فسبيله استقصاء كل ما ورد فيها، ومرجعه كتب الفقه والحديث، وإن الناظر فيها يخرج بترجيح رأى الجمهور، واعتماد أن «القيافة» دليل يعتمد عليه شرعًا فى ثبوت النسب. وهو بعد هذا يلتقى مع ما تقرر فى الشريعة على وجه عام من وجوب الرجوع فى معرفة الوقائع على وجهها، إلى قول أهل البصر والمعرفة، وقد كان هذا أصلاً عظيمًا فى الأخذ برأى الطب الشرعى، فى الحوادث التى يعتبر القانون نظرها، لتبين جهة الحق فيها من الجهالة، ويمكن أن نلج من هذا الباب إلى الاعتماد فى القضاء والحكم على الوسائل الجديدة التى لم تعرفها الفقهاء من قبل، كتحليل الدم، وكآثار الأيدى والأقدام، وغير ذلك مما يعرفه علماء التحقيقات الجنائية وأهل الخبرة، ويشهدون بصحتها، أخذًا من التطبيق المتكرر الذى يحدث عامًّا أو غلبة ظن على الأقل، فى حقيقة ما يدل عليه.

ولهذا الموضوع صلة وثيقة بموضوع الحكم بالقرائن فى الشريعة، وما القيافة وتحليل الدم، وإظهار آثار البصمات ومضاهاتها، إلا قرائن لها دلالات يفهمها العارفون لها.

• القضاء بالقرائن •

ومما ينبغى المسارعة إليه فى هذا المقام، أن الناظر فى كتب الأئمة يرى أنهم مجمعون على مبدأ الأخذ بالقرائن، فى الحكم والقضاء، وأن أوسع المذاهب فى الأخذ بها مذهبا المالكية والحنابلة، ثم الشافعية، ثم الحنفية.

وقد أفاض ابن القيم فى كتابيه: (إعلام الموقعين، والطرق الحكمية) فى هذا المقام بما لا يدع مجالاً للشك فى اتخاذ القرائن بينة للقضاء، ومن قوله:

(لا يجوز لحاكم ولا لوالٍ رد الحق بعدما تبين وظهرت أمارته بقول أحد من الناس).

وهذا منه بناء على تفسير كلمة «بينة» الواردة فى لسان الشرع بما يبين الحق ويظهر.

(وهى تارة تكون أربعة شهود) إلى أن قال: (وتكون شاهد الحال فى صور كثيرة).

ثم قال:

(ولم يزل حذاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والأمارات، فإذا ظهرت لم يقدموا عليها شهادة تخالفها ولا إقرارًا). وقال:

(والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس فى الأمارات ودلائل الحال ومعرفة شواهده والقرائن الحالية والمقالية أضاع حقوقًا كثيرة على أصحابها وحكم بما يعلم الناس بطلانه) .

ثم ذكر وقائع كثيرة قص القرآن والسنة الحكم فيها بمقتضى القرائن، وجرى على ذلك عمل الصحابة والتابعين، فمن ذلك قميص يوسف فى حادثتى إخوته وامرأة العزيز.

ومن ذلك حكم سليمان بين المرأتين اللتين ادعتا ولدًا إذا قال: «ائتونى بالسكين أشقه بينكما نصفين، فقالت الصغرى -وقد كان داود حكم بالولد للكبرى-:

لا تفعل رحمك الله، وهو ابنها.

فقضى به للصغرى معتمدًا على ما بدا منها من قوة الشفقة والإشفاق .

وبهذا يتبين أن الأخذ بالقرائن فى الأحكام، ليس من مبتكرات القوانين الحديثة، وإنما هو شريعة إسلامية جاء بها كتاب الله، وقررته السنة، ودرج عليه حكام المسلمين وقضاتهم فى جميع العصور، وأن رمى الشريعة بالقصور أو الجمود فى طرق الحكم ناشئ عن الجهل بها، وعدم الاطلاع على كنوزها، أو عن سوء النية، وقصد تشويه الحق والجمال.

نعم كان للمحدثين ظاهرة التنظيم والتنويع، مع العلم بأن كل ما أوردوه من تقسيم للقرائن موجود بذاته فى كتب الفقه الإسلامى، لا ينقصه إلا الأسماء الجديدة، والذهب هو الذهب، وإن علاه الصدأ .

وجود الله - تعالى-

لا شك أن الإيمان بوجود الله - جلا وعلا - هو أساس العقائد الإيمانية كلها، بل أساس جميع الأديان والشرائع السماوية لأنها جميعًا إنما قامت على أساس أنها نازلة من عند الله سبحانه.

ولهذا كان أهم ما يهدف إليه أهل المروق والإلحاد من أعداء الرسل والأديان هو التشكيك فى وجود الله - تعالى- كما نرى اليوم فيما يشغف به دعاة الشيوعية وأذناب الوجودية وغير هؤلاء وأولئك من عناصر الشر والفوضى والانتهازية.

ومن المؤسف حقًا أن نرى كثيرًا من شبابنا المسلم المثقف يستجيب سريعًا لهذه الدعوات المخزية مأخوذًا بما يزينه له شياطينها من زخرف القول وباطله وما يغرونه به من التحلل والانطلاق من قيود الدين والأخلاق. فلا يلبث أن يقع فى شراكهم صيدًا سهلاً فيسلبونه دينه وخلقه وجميع مقومات حياته التى يعتز بها ويعيش من أجلها ويصبح أداة طيعة فى أيدى هؤلاء الأبالسة يستخدمونه لتحقيق مآربهم الخبيثة فى الترويج لمبادئهم الهدامة التى ما سادت فى أمة إلا سلبتها أعز ما تعتز به من دين وشرف وتقاليد وجميع مقدراتها الأدبية والروحية.

ولست أدرى كيف يسوغ لعاقل يحترم عقله ويقدر نعمة التمييز التى أكرمه الله بها أن ينخدع لهذه الدعوات الإلحادية الخبيثة فيما تهذى به من إنكار وجود الله وهو يراه سبحانه ظاهرًا فى نفسه وفى كل ما حوله من الأشياء التى هى آثار قدرته ومجالى علمه وحكمته وفيض وجوده ورحمته، والتى حمل النظر فيها كثيرًا من علماء الغرب الملحد أن يقروا بوجود الله - عز وجل - على أنه ضرورة علمية لا مناص منها لما عجزوا عن تفسير ظواهر الكون وأعاجيبه تفسيرًا ماديًا بحتًا ورأوا أنها تسير كلها وفق غاية مرسومة ونظام محكم دقيق، وإذا كان

وجود الله - عز وجل - يعتبر من أجلى البديهيات لدى العقول السليمة والفطر المستقيمة التى لم يفسدها الهوى والتقليد الأعمى، فهو ليس بحاجة إلى تلك الجدليات الفارغة التى اصطنعها علماء الكلام وسموها جهلاً براهين كقولهم (العالم جواهر وأعراض والأعراض حادثة والجواهر لا تخلو من الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فثبت حدوث العالم بجواهره وأعراضه).

فهذا الدليل هو عمدتهم والاستدلال على وجود الله؛ لأنه إذا ثبت حدوث العالم بجميع أجزائه فلا بد أن يكون له محدث، وهو الله - عز وجل- مع أن الدليل كما ترى مبنى على مقدمات افتراضية غير مسلمة وعلى نظرية قديمة فى العالم الطبيعى قال بها (ديمقريطيس اليونانى وملخصها أن العالم مركب من ذرات فى غاية الصغر متشابهة وأنها تجتمع بحركة تلقائية فتكون الأجسام ثم تتفرق كذلك فتنحل الأجسام وتفنى) ولعل هذه النظرية الآن بعد نجاح العلم فى تحطيم الذرة قد أصبحت فى خبر كان.

ومن العجب أن هؤلاء المتكلمين يقدمون هذا الهذيان على أدلة القرآن ويزعمون أنه البرهان الأوحد على وجود الرحمن حتى يقول بعض هؤلاء الحمقى: أن من لم يؤمن بالله من طريق هذا الدليل لم يتم إيمانه ويوجب من أجله الإيمان بذرات ديمقريطيس الوثنى. فكم من المسلمين يستطيع أن يفهم هذا الدليل أو يقتنع به ؟ وعلى رأى هذا الجاهل لم يكن رسول الله ﷺ ولا صحابته ولا التابعون لهم بإحسان ولا أحد ممن مات قبل اختراع هذا الدليل مؤمنًا لأننا نعلم بالضرورة أن هذا الدليل مبتدع لا أصل له فى كتاب ولا سنة ولا هو مأثور عن أحد ممن يعتد بدينهم وإيمانهم من سلف هذه الأمة.

إنا لنرجو مخلصين من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومعاونيه فى إدارة تلك الجامعة الإسلامية الكبرى وكلهم بحمد الله دكاترة فضلاء يؤمنون بحرية البحث وتطور الفكر أن يرحموا عقول طلاب الأزهر من هذه الكتب الجافة العقيمة التى لا تحمل بين سطورها إلا نتاج عقول مريضة وأفكار ونظريات غريبة عن الإسلام.

إن طريقة القرآن الكريم هى أقوم الطرق وأهداها وفيها لمن تأملها الكفاية والشفاء بل هى الأدلة التى يتعين الإيمان بالله وأسمائه وصفاته من طريقها، وليس لقائل أن يقول أنها أدلة نقليه لا يؤمن بها إلا من يعتقد بالقرآن؛ لأننا نقول أن أدلة القرآن نقلية وعقلية فهى نقلية من جهة ورودها ونصب الشارع لها، ولكنها عقلية من جهة دلالتها لأن الله - عز وجل - إنما نصبها للعقول جميعًا لننظر فيها ونستدل بها، وهى أقرب إلى العقل من تلك الألغاز والأحاجى التى يستعملها أهل الكلام والجدل - فإنها تستند دائمًا إلى ما يشاهده الناس ويقع تحت حواسهم ويتصل بحياتهم ويتفاعل مع مشاعرهم من اختلاف صور الأشياء وألوانها ومنافعها وما يتجلى فيها من دقة الصنع وإحكام التركيب وتناسب الأجزاء، وما يحصل من ذلك من مصالح ومنافع مقصودة، إلى غير ذلك مما يراه كل أحد ولا يستطيع أن ينكره، ولهذا كانت أدلة القرآن هى التى تصلح لجميع الناس على اختلاف عقولهم وتفاوت ثقافتهم كما قال الله - تعالى- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ .

وأرى بعد هذه المقدمة أن أعرض عليك أيها القارئ الكريم بعض النماذج من أدلة القرآن العظيم، تاركًا لك أن تتأملها بعقلك وتفتح لها قلبك ووجدانك حتى يتم انتفاعك بها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ .

قال الله - تعالى- فى سورة البقرة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

وقال فى سورة الأنعام: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ

الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقال جل شأنه في أول سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

وقال جلت آلاؤه في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال تقدست أسماؤه في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وقال جل ثناؤه في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

هذا قليل من كثير مما ورد فى القرآن الكريم من دلائل وبراهين لا تدل على وجوده سبحانه فحسب ولكنها تدل أيضًا على وحدته وعلمه وقدرته ومشيئته، وحكمة وجوده ورحمته.

كتبنا عن الاعتقاد بوجود الله - عز وجل - وقلنا أنه أمر مركوز فى الفطر كما حكى الله عن الرسل عليهم الصلاة والسلام أنه قالوا لأممهم **﴿أفى الله شك فاطر السموات والأرض﴾** وقدمنا بين يدى القراء جملة صالحة من آيات القرآن الكريم التى تدعو إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله فيهما من أشياء تنطق بعظيم قدرته وجسيم وبالغ تدبيره وحكمته. وتركنا لهم أن يتأملوا بأنفسهم فى هذه الآيات حتى يدركوا ما تتضمنه من الدلائل والبراهين وكنا نحسب أن فيما قدمناه الكفاية، ولكن بعض الإخوان رغب إلينا أن نزيد هذا الموضوع تجلية نظرًا لأهميته وحاجة الناس إليه بسبب ما يلقيه الملاحدة فى أوساط الشباب من سموم الجحود والأفكار لا سيما وقد اتسم هذا الإلحاد بسمة العلم ولبس ثوب التفلسف، فلا بد من مقابلته بالأدلة التى تكفى لاستئصال شأفته ودحض فريته.

وأرى قبل أن أجيبهم إلى طلبهم أن أذكرهم بحكاية ذلك الأعرابى الذى قيل له بم عرفت ربك؟ فأجاب على البديهة (البعرة تدل على البعير والقدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا تدل على اللطيف الخبير)- وهى حكاية نسوقها كشاهد على أن الفطرة السليمة التى لم تتدنس بالجحود ولم تفسد بالتقليد الأعمى والجرى وراء الأهواء والشهوات لا تحتاج فى إيمانها بالصانع الأعظم -جل وعلا- إلى أن تحشد لها الحشود فى الأدلة والبراهين.

فليس مناط الأفكار هو قلة الأدلة ولا قصورها عن إفادة المطلوب فإن كل شئ مما يراه الإنسان أو يحسه صالح لأن يكون دليلاً. ولكنه الإعراض والغفلة والاستكبار عن النظر فى آيات الله - عز وجل - والتعامى عنها. والغرور الأحمق بما وصل إليه علم الإنسان من تقدم فى الكشف والاختراع. ونسيان

الإنسان نفسه وعدم تفكيره فيما خلق له، حتى ظن أنه واحد من هذه الحيوانات التى تملأ البر والبحر فليس لوجوده غاية ولا من ورائه حكمة وإنما هو وليد الصدفة وسليل التطور إلى غير ذلك مما تهجس به أفكار الناس فى هذا العصر الذى لا يعرف إلا المادة وقوانين المادة، ولا يكلف نفسه النظر إلى ما وراء ذلك من الغايات البعيدة والحكم العالية، وهذا التناسب والانسجام الذى يلمحه البصير فى كل ذرة من ذراته فلا عوج ولا فطور ولا تفاوت ولا تنافر بل نظام والتئام كما قال تعالى: ﴿صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون﴾، ﴿الذى أحسن كل شىء خلقه﴾، ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

يحكى ابن كثير فى تفسيره أن جماعة من الزنادقة جاؤا إلى أبى حنيفة - رحمه الله- وطلبوا إليه أن يقيم لهم الدليل على وجود الله فقال لهم نعم سأفعل ولكن أمرًا قد بلغنى الساعة فأقلقنى وحيرنى وقد جئتم وأنا أفكر فيه قالوا وما ذاك؟ قال بلغنى أن سفينة بعرض دجلة موقرة بأنواع المتاع تمشى وحدها بلا ربان يقودها ثم ترسو على الشاطئ بنفسها فتفرغ حمولتها وحدها ثم تعود لتمتلئ ثم تجئ فتفرغ ليس معها أحد. فقالوا له وهل ذاك يعقل؟ فقال لهم إذا كنتم لا تصدقون هذا ولا تعقلونه فى سفينة صغيرة فكيف ساغت عقولكم أن هذا الكون العظيم الممتلئ بما لا يحصى من الأجرام العلوية والسفلية يسير وحده بلا مدبر فرجع هؤلاء الزنادقة عن أفكارهم وأسلموا.

ويذكر ابن كثير أيضًا أن هارون الرشيد سأل مالك بن أنس - رحمه الله - دليلاً على وجود الله فاستدل له باختلاف الألوان واللهجات والأصوات. ولا شك أنه استدلال صحيح والقرآن الكريم نفسه قد نوه به وجعله من جملة الآيات قال تعالى فى سورة الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

وقال فى سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ومما يستوقف النظر هنا أن كلاً من الآيتين قد ختمت بما يفيد أن آية الاختلاف فى الألوان والأصوات قد اختص بإدراكها العلماء وأى عالم يسعه إلا أن يطأطئ الرأس أمام هذه الآية الكبرى التى لا يزال العلم رغم تقدمه عاجزًا عن تعليلها مما يشهد بأن هذا التنويع والتخصيص إنما هو بتقدير العزيز العليم.

ويروى ابن كثير عن الإمام الشافعى - رحمه الله - أنه قال بصدد الاستدلال على وجود الله - عز وجل - (هذه ورقة التوت شىء واحد تأكله النحلة فتخرج عسلاً وتأكله الدودة فتخرج أبريسم وتأكله البهيمة فتخرج لبنًا»

ومن هذا أن الشافعى يستدل بالاستحالات المختلفة التى يصير إليها الشئ الواحد وهو باب واسع جدًا من أبواب الاستدلال ويكفى أن يتأمل الإنسان فى نفسه فهذا الدم الذى يجرى فى عروقه شىء واحد ومع ذلك يدخل فى تركيب الأعضاء المختلفة وهو فى الفم لعاب وفى العين دمع وفى الأصلاب نطف وفى الثداء لبن. . . إلخ.

وهذه النطفة التى يتخلق منها قد تقلبت فى أطوار عدة واستحالت من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام حتى صارت بشرًا سويًا فتبارك الله أحسن الخالقين. وأما الإمام أحمد -رحمه الله- فيحكى عنه ابن كثير أنه قال (هاهنا حصن محكم أملس ليس به منافذ ولا ثقوب فبينما هو كذلك إذا انفتح الحصن وخرج منه حيوان سميع بصير) فالحصن هو البيضة تظهر ملساء لا ثقوب بها يتخلق فيها الطائر حتى إذا اكتمل، نقرها وخرج منها.

وأخيرًا فليتأمل البصير فيما يحدث حوله من أشخاص النبات والحيوان: فهل يعقل أن تكون قد أحدثت نفسها أو أحدثت بلا محدث؟ وهل يخرج العدم وجودًا وهل تنشئ الفوضى نظامًا؟ وهل يحدث بيت بلا رسم وتصميم سابق؟ وصدق الله **﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾** ؟.

• توحيد الله - عزوجل - •

انتهيت فى الكلام السابق إلى أن التوحيد الذى هو صفة الله - عز وجل- إما أن يكون توحيدًا فى ألوهيته بمعنى أنه هو الإله المعبود بحق الذى ينبغى أن يتألهه القلوب محبة وتعظيمًا وإجلالاً وخوفًا ورجاء وأن تفرده بالعبادة والتقديس وأن تخلص له الدين فى كل ما دان به عباده من أمر أو نهى، وهذا النوع هو المتبادر من لفظ التوحيد عند إطلاقه نظرًا لأهميته فهو التوحيد الذى دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام أممهم وقاتلتهم عليه وهو الذى خلق الله الخلق جميعًا لأجله كما قال تعالى ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾.

وجعلت كلمة لا إله إلا الله لأنها معبرة عنه دالة عليه أفضل الكلام وبالإقرار بها يثبت الدخول فى دين الإسلام وإما أن يكون توحيدًا فى ربوبيته بمعنى إفراده سبحانه بكل ما هو من شئون الربوبية وخصائصها من الخلق والرزق والتدبير والحكم فهو وحده رب العباد ومليكهم ومدبر أمورهم لا يخرجون عن مشيئته وقدره وكلماته التامات التى لا يجاوزها بر ولا فاجر وهذا النوع من التوحيد كان يقر به المشركون ولا ينكرونه، كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

وإما أن يكون توحيدًا فى الأسماء والصفات بمعنى اختصاصه تعالى بكل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات وعدم مشاركة أحد من المخلوقين فى شىء منها وبمعنى إثباتها كلها له دون تعرض لشىء منها بالإنكار أو التأويل.

وهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد وإن كانت تبدو متغايرة فى المفهوم وفيما يتعلق به كل منها إلا أنها متلازمة فى الوجود بحسب العقل فإنه كلما ثبت له سبحانه الانفراد بشئون الربوبية كلها من الخلق والملك والرزق والتدبر ونحوها فقد ثبت له الانفراد باستحقاق العبادة والتقديس إذ لا يستحق ذلك إلا من كان

خالقًا مالكًا.

وبالعكس كل من عبد الله - عـز وجل - وحده فلابد أن يكون قد رضى به ربًا فلم يشرك به أحدًا فيما هو من سمـات الربوبية وخصائصها إذ لو جاز أن يشركه أحد فى شىء من ذلك لكان مستحقًا للعبادة معه حاشاه سبحانه. وكذلك كل من وحد الله فى إلهيته وربوبيته فلا بد أن يعتقد اختصاصه بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى التى لا تنبغى إلا له فلا يجعل له شبيهًا فيها.

وينبغى أن يعلم أن التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه ينقسم من ناحية أخرى إلى قسمين.

توحيد الإثبات والمعرفة ويسمى التوحيد العلمى الخبرى وتوحيد فى القصد والطلب ويسمى التـوحيد الإرادى الطلبى. فالأول: يتـعلق بإثبات حقـيقة ذات الرب سبحانه وصفاته وأفعاله وأسـمائه ليس كمثله شىء فى ذلك كله كما أخبر بذلك عن نفسه وكما أخبر عنه رسوله ﷺ.

وإنما سمى هذا النوع من التوحيد بالعلمى أو الخبرى لأنه لا يقصد منه إلا مجرد العلم بالله - عز وجل - وأسمائه وصفـاته والإخبار بها عنه كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ - ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله فى سـورة آل عمران: ﴿الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقوله فى أول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله فى آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى فى سورة الاخلاص التى تعدل ثلث القرآن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وأما الثانى أعنى التوحيد فى القصد والطلب فمعناه إخلاص النية لله - عز وجل - وتمحيض القصد له فلا يريد بعمله وقوله إلا وجه الله ولا ينبغى إلا ثوابه ورضاه فيكون الله- عز وجل - هو مطلوبه ومقصوده فى عبادته وتكون إرادته متجردة من شوائب التعلق بغيره.

وقد جاء القرآن الكريم بإثبات هذا النوع من التوحيد والدعوة إليه كقوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقوله فى سورة الأنعام: ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

وقوله فى أول سورة الزمر: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

وقوله فى أواخر سورة الزمر: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وكما كانت سورة الإخلاص نصًا فى التوحيد العلمى فقد جاءت سورة "الكافرون" نصًا فى التوحيد القصدى. ولهذا ورد أن النبى ﷺ كان يقرأ بهما

فى سنة الفجر وسنة المغرب وبالجملة فغالب سور القرآن بل كلها متضمنة لهذين النوعين من التوحيد - فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمى الخبرى - وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادى الطلبى، وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل لهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة وهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل لهم فى الدنيا من النكال وما يفعل بهم فى العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم والله - تعالى- أعلم.

والآن قد وضح لك أيها القارئ الكريم معانى التوحيد الثلاثة التى هى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وكيف أن هذه المعانى وإن كانت متغايرة بحسب مفهوماتها فهى متلازمة عند العقل، كما تبين لك أن توحيد الألوهية هو أهمها جميعًا لأنه التوحيد الذى يتعلق بحق الله على عباده فى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ ولأنه متضمن للنوعين الآخرين، أو يستحيل كما قدمت أن يفرد بالعبادة والتقديس إلا من كان منفردًا بالخلق والملك والتدبير، وكان منفردًا أيضًا بما هو ثابت له من صفات الكمال ونعوت الجلال، ولأنه أيضًا التوحيد الذى ينقسم إلى القسمين اللذين ذكرتهما لك آنفًا، أعنى توحيد الإثبات والمعرفة وتوحيد القصد والطلب، وأما غيره فلا يكون إلا من قبل القسم الأول فقط.

أقول: إذا كانت هذه المقدمات كلها قد أصبحت واضحة فى ذهنك بحيث يسهل عليك الفرق بين هذه المعانى ولا يشتبه عليها أحدها بالآخر، فسأحاول هنا إن شاء الله أن أقفك على الطرق التى سلكها القرآن الكريم فى إثبات النوع الأول، والأهم من التوحيد وهو توحيد الألوهية، وهذه الطرق يمكن إجمالها فيما يأتى:

أولاً: من المعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ وأمر بقتالهم، كانوا يقرون بتوحيد الربوبية كما حكى ذلك القرآن عنهم في مثل قوله تعالى من سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾.

وفى مثل قوله من سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

وفي مثل قوله من سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

والقرآن الكريم يؤاخذهم بهذا الإقرار فى قوة ويعيب عليهم أنهم مع إقرارهم بأن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه المدبر للأمور كلها يجعلون له أندادًا يسوونها به فى استحقاق العبادة مع علمهم بأنها لا تخلق شيئًا ولا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

فهو يتخذ من توحيد الربوبية الذى يقرون به دليلاً على توحيد الألوهية الذى ينكرونه ويصرف القول فى هذا الباب تصريفًا عجيبًا يحمل القول حملاً على الإقرار بقضية التوحيد ويعلق القلوب تعليقًا بهذا الخالق المنعم الرحمن الرحيم حتى تؤلهه وحده محبة وتعظيمًا وإجلالاً وخوفًا ورجاء وإنابة واستكانة وتضرعًا ودعاء وتوكلاً واستعانة، ساخرة كل السخرية من هذه الآله المزعومة التى لا تملك شروى نقير - وإليك بعض النماذج من هذا الباب.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال من السورة نفسها: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقال في سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وقال في هذه السورة أيضًا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال فيها كذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويطول بي القول جدًا لو حاولت استقصاء كل ما في القرآن الكريم في هذا الباب ولكني أحيلك أيها القارئ، على بعض السور التي يكثر فيها إيراد مثل هذه الأدلة العظيمة التي تصرخ في وجوه أهل الشرك والوثنية وتبرزهم في صورة من السفاهة والجهل لا يرضاها عاقل لنفسه، فأقرأ هذا إن شئت في مثل

سورة يونس وهود والرعد والحجر والنحل والأنبياء والمؤمنون والفرقان والعنكبوت والروم وفاطر والزمر وحم السجدة والزخرف وق والواقعة وعم والنازعات وغيرها فى القرآن كثير.

قلت فى الكلام السابق أن القرآن الكريم يسلك بالناس مسلك التقرير والإلزام فى دعوتهم إلى توحيد الإلهية الذى هو إفراد الله - عز وجل - بالخلق والرزق والملك والتدبير ويجعله دليلاً على استحقاقه وحده للعبادة.

وسقت كثيراً من الآيات التى توضح هذا المنهج ثم أحلت القارئ إلى بعض السور التى توجد فيها مثيلات هذه الآيات ليزداد معرفة بهذا الأسلوب القرآنى الكريم.

وأنتقل بعد ذلك إلى أسلوب آخر من أساليب القرآن فى الدعوة إلى توحيد الإلهية. وهو تصوير لهذه الآلهة المزعومة فى صور قوية أخاذة تظهر حالها الشنيعة وما هى عليه من النقص والعجز والذلة والمهانة. فهى لا تخلق شيئًا ولا تدبر أمراً ولا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضراً بل هى عند الموازنة قد تنقص حالها عن حال العابدين لها فكيف يرضى إذًا عاقل لنفسه أن يعبد من هو أسوء منه حالاً وأهون شأنًا، وأن يذل ويخضع لمن هو فى نفسه خاضع ذليل، وأن يدعو ويسأل من لا يملك أن يستجيب له بشيء وأن يتزلف ويتقرب إلى من لا تفيد عنده الزلفى ولا رغب لديه ولا رهب. وأنى له ذلك وهو جماد ميت لا حس ولا حركة ولا سمع، ولا بصر وكيف يبلغ السخف بالعقول أن تعتقد أن لهؤلاء الموتى قدرة بها يفعلون ما لا يقدر عليه البشر وأن فيهم حياة بها يحسون بمن دعاهم أو استغاث بهم وهو لم يروا أحدًا منهم خرج من قبره مرة فمشى بينهم ولا كلموا أحدًا منهم مرة فجاءهم رجع الجواب سبحانك هذا بهتان عظيم، وكما يصور القرآن الكريم هؤلاء المعبودين بتلك الصورة الشنيعة التى تنفر كل ذى عقل ممن كرمت عليه نفسه أن يقصدهم بحاجة أو يشعر نحوهم بشيء من الرهبة أو يخشى على نفسه غضبهم ونقمتهم. كذلك يصور العابدين لهم بصورة يربأ كل عاقل كريم أن يكون عليها، صورة يتمصل

فيها الغباء والجهل والضلال والحمق والظلم والافتراء، بل الإجرام والتجني.

يقول تعالى في سورة المائدة منكرًا على من عبد المسيح وأمه من النصارى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

ففي هذه الآيات ينفي الله - عز وجل - عن المسيح عبده ورسوله وعن أمه مريم الصديقة الإلهية بدليل أنهما كان يأكلان الطعام فاحتياجهما إلى الطعام لدفع غائلة الجوع ثم احتياجهما بعد ذلك لإخراج الأذى المتخلف عن الطعام دليل النقص، والنقص ينافي الألوهية ثم يأمر رسوله ﷺ أو كل أحد أن يعجب من حال هؤلاء في انصرافهم عن الحق بعد بيان الآيات ووضوحها، ثم ينعى عليهم عبادة ما لا يملك لهم شيئًا من الضر ولا من النفع ثم يخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة لأنه السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأعمالهم ولا يكون إلهًا إلا من كان سميعًا عليمًا.

ويقول سبحانه في سورة الأعراف في آخرها: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾.

فهل رأيت أيها القارئ الكريم صورة أخزى وأشنع من تلك التي تصوره

الآيات حال هذه الآلهة الباطلة في عجزها وجهلها ونقصها فهي أولاً، لا تقدر أن تخلق شيئًا حتى ولا مثقال ذرة، بل هى فى ذاتها مخلوقة محتاجة إلى من يعطيها خلقها، فكيف تعطى الخلق لغيرها؟ وهل يعطى الشيء فاقده؟ - ثم هى ثانيًا لا تستطيع نصرًا لعابديها فلا قوة لها تمنعهم بها من عدوهم ولا تدفع عنهم عذاب الله أن نزل بهم ثم هى ثالثًا لا تستطيع نصر نفسها ولا تملك أن تدفع أى أذى لحق بها فلو قام الناس على هذه القباب والأضرحة فهدموها وأزالوها وجردوا هذه القبور من كل حلية حلوها بها ومن كل مظهر شركى كاذب زينوها به، فهل تستطيع أن تمتنع عليهم وصدق الله إذ يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾.

ثم هى رابعًا لا تسمع من دعاها إلى الهدى ولا تستجيب له فسواء عليه أدعاها أم سكت وكيف يجيب إلى الهدى من لا يسمع ولا يعى وهو خال من الإدراك والحياة.

ثم هى بعد ذلك عباد لله أمثال العابدين لها وليس من المعقول أن يعبد عبد عبدًا مثله. أو يستجيب عبد لعبد مثله. ولهذا قال: ﴿**فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين**﴾ ثم نزل بهذه الآلهة المزعومة إلى أبعد حد من النقص والهوان فنفى عنها الأرجل والأيدى والأعين والآذان، ثم أمر رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين وآلهتهم بأن يكيدوا له شيئًا من الكيد دون تريث أو إمهال. كما قال نوح لقومه: ﴿**فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون**﴾ وكما قال هود لقومه: ﴿**قال إنى أشهد الله واشهدوا أننى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تُنْظرون**﴾ ثم أعلن فيهم أن وليه وناصره هو الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين من عباده، ولكن مايدعونهم من دونه لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون، وإن دعوا إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك بأبصار كاذبة صنعها عابدوهم وهم فى الواقع لا يبصرون.

وهكذا ترسم لنا هذه الآيات الكريمة أروع صورة لهذه الآلهة تنفى عنها كل ما يزعمه العابدون لها حتى لا تبقى لأحد شبهة فى الجرى وراء هذه الأوهام الكاذبة التى صورت لهم أصحاب هذه القبور فى صورة أبطال الأساطير.

وقفت فى المقال السابق عند إيراد بعض الآيات الكريمة التى تصور تلك الآلهة المزعومة فى أبشع صورة من الجهل والنقص والعجز والمهانة لتستثير فى النفس البشرية معانى الكرامة التى فقدتها ولتوقظ العقل الإنسانى الحالم من ذلك النوم الطويل الذى ضرب عليه.

وقلت: إن هناك من الآيات ما يعنى بتصوير حال العابدين أنفسهم وما هم فيه من إغراق فى الوهم وإمعان فى الضلال حين يتوجهون بالعبادة والخضوع لآلهة من الموتى والحجارة يعلمون أنها صماء بكماء لا تسمع من يدعونها، وفضلاً عن أن تستجيب لهم ولا تملك شيئًا مما يسألونها إياه من رزق أو نصر أو شفاء. وأريد الآن توفية للموضوع أن أورد ما بقى من هذه الآيات وتلك على قدر الجهد فعسى أن ينفع الله - عز وجل - بها أولئك الذين لا يزالون عاكفين على أصنامهم يتمرغون على أعتابها ويوسعونها لثمًا بالشفاه ومسحًا بالأيدى وضراعة وذلاً وتملقًا واستجداء. ولعل بصيصًا من نور هذه الآيات ينفذ إلى قلوبهم فيرد إليها ما فقدته من حياة وعافية.

يقول الله - تعالى- فى سورة يونس: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**.

فهذه الآية الكريمة توبخ أشد التوبيخ من يعبد هذه الآلهة حتى على سبيل الاستشفاع بها إلى الله - عز وجل - وهذا ما يدعيه أكثر الناس اليوم حين ينكر عليهم أهل الحق صنيعهم ويضيقون عليهم الخناق يقولون: إنما نتخذها وسائط تبلغ حوائجنا إلى الله وتشفع لنا عنده نفس ما كانت الجاهلية الأولى تفعله. ويقول سبحانه فى نفس السورة: **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**

فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين﴾.

فأى وعيد أبلغ من هذه الآية التى تسجل الظلم على رسول الله ومصطفاه إن هو دعا من دون الله أحدًا، أو جعل له من عباده ندًا؟ وما كان لرسول الله ﷺ أن يفعل ولكنه تحذير لأولئك المفتونين حتى لا يغتروا بما يزعمونه لآلهتهم من جاه ومنزلة. فإنهم إذا علموا أن مقام الرسالة نفسه لا يشفع لصاحبه عند الوقوع فى حماقة الشرك وأن وعيد الله جدٌّ لاحق بكل من عبد غيره أو دعاه، أيأسهم ذلك عن الطمع فى شفاعة آلهتهم وعلموا أنها لن تغنى عنهم من الله شيئًا.

ويقول جل شأنه حكاية عن هود عليه السلام حين خوفه قومه نقمة آلهتهم وقالوا له: **﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾** فأجابهم بلهجة الخبير بحال هذه الآلهة وأنها لا تملك أن تناله بأقل أذى وأنه متوكل على ربه الذى بيده نواصى الخلق كلهم، واثق من نصره وتأييده **﴿قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم﴾**.

ويقول تعالى فى سورة الرعد: **﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)﴾**، و**﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**.

والمتأمل فى هذه الآيات الثلاث يجدها قد بلغت الغاية فى بيان زيف هذه الآلهة الباطلة عند مقارنتها بالإله الحق وأنها لا تملك من مقومات الألوهية شيئًا. فهو وحده الحقيق بأن يدعى ويرغب إليه لأنه هو الحى القيوم السميع البصير

الذى يملك أن يستجيب لمن دعاه. وأما ما يدعى من دونه فهو فى غفلة عمن دعاه لا يسمعه ولا يراه ولا يقدر أن يستجيب له بشىء. وما أروع تشبيه من يدعو غير الله أو يسأله برجل بسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

ثم هو وحده الذى يخضع له كل من فى السموات والأرض وينقادون لحكمه طائعين أو مكرهين لا يستطيع أحد منهم أن يخرج عن أحكام ربوبيته وقهره. وهو وحده رب السموات والأرض باعتراف هؤلاء المشركين أنفسهم، فكيف يتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا. وكيف يجعلون له شركاء من خلقه، فهل رأوهم خلقوا شيئًا فتشابه الخلق عليهم، كلا بل هم يعلمون أن الله وحده هو خالق كل شىء وهو الواحد القهار.

ويقول سبحانه فى سورة النحل: **﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾**.

فتأمل هذه الأوصاف الثلاث التى أجراها الله - عز وجل - على ما دعى من دونه فهم أولاً لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون. وهم ثانيًا أموات غير أحياء. وهم ثالثًا لا يشعرون أيان يبعثون. فمن كان على هذه الصفة من كونه مخلوقًا وميتًا وغافلاً لا يدرى متى يبعث كيف يجوز أن يدعى ويسأل.

ولا يستطيع القبوريون أن يدعوا أن هذه الآية فى حق الأصنام التى هى خشب وحجارة. بل هى فى شأن الموتى من الأنبياء والصالحين بدليل قوله: **﴿أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾** فإنه لا معنى لوصف الأصنام بذلك إذ ليس من شأنها الحياة والشعور.

ويقول سبحانه من هذه السورة نفسها: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**.

فهذان مثلان ضربهما الله - عز وجل- لنفسه ولما يعبد من دونه، فهو في الأول يشبهه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فكيف يستوى هو ومالك غنى ينفق كيف يشاء؟

وفي الثاني يشبه برجل أبكم لا يقدر على شيء وهو مع ذلك عالة على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، فكيف يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟.

ويقول تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾.

نزلت هذه الآيات فيمن كانوا يدعون المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة، قيل لهم إن هؤلاء مهما دعوتموهم فلا يملكون إزالة الضر عنكم ولا تحويله إلى غيركم، وهم مع ذلك عباد مثلكم يبتغون ما يقربهم إلى الله - عز وجل - ويرجون رحمته كما ترجون، ويخافون عذابه كما تخافون.

ويقول جل شأنه في سورة الحج: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾.

فإذا بلغت هذه الآلهة من العجز أنها لو اجتمعت على خلق ذبابة لا تقدر عليها بل حتى لو سلبها الذباب شيئًا لا تستطيع استنقاذه منه. فكيف يليق بعاقل بعد ما عرف من عجزها وهوانها أن يذل لها ويخضع، أو أن يتوجه إليها طالبًا سائلاً.

ويقول سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾.

فهل رأيت العنكبوت في ضعفه وحقارته، وهل نظرت إلى بيته في رقة نسجه ووهن خيوطه بحيث لا يمنع حرًا ولا بردًا، ولا يحمى من أذى. فهذا

مثل ضربه الله لمن يتخذهم الناس أولياء من دونه، فإذا كان بيت العنكبوت يغنى عمن يلجأ إليه شيئًا أمكن أن يغنى هؤلاء عن عابديهم. ونكتفى بهذ القدر الذى نعتقد أن فيه الكفاية لمن طلب الهدى والله الهادى إلى سواء السبيل.

تكلمت عن بعض أساليب القرآن الكريم فى الدعوة إلى توحيد الألوهية الذى هو الأساس الأول لجميع الرسالات السماوية والذى يقوم - كما قدمنا - على إفراد الله - عز وجل - بالعبادة والتقديس وإخلاص الدين له وحده - وعدم صرف شىء من العبادات التى شرعها لعباده وأمرهم أن يتقربوا بها إليه لأحد غيره كائنًا من كان، وأريد الآن أن استكمل بقية هذه الأساليب القرآنية فى الدعوة إلى هذا النوع من التوحيد قبل الأخذ فى بيان متعلقاته من صور العبادات المتنوعة، ثم بيان ما يضاده وينافيه من ألوان الشرك المختلفة، فمن هذه الأساليب ما يجريه الله تبارك وتعالى على نفسه من أسماء وصفات يعلم المشركون أن آلهتهم التى يدعون من دون الله لا تسمى بها ولا تتصف بشىء منها، فاختصاصه سبحانه بهذه الأسماء والصافات التى لا تنبغى إلا له، والتى لا يكون إلهًا إلا من اتصف بها، دليل على استحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

فمن ذلك قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾.

فبعد أن ذكرت الآية قضية التوحيد، أردفتها بذكر إسمين من أسمائه تعالى، وهما الرحمن الرحيم، ليكون هذان الاسمان بمثابة الدليل عليها.

ولا شك أن ما يفيده اقتران هذين الاسمين الكريمين من الرحمة الواسعة التى اتصف بها سبحانه، والتى رحم بها عباده من خصائصه التى لا يشاركه فيها غيره.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى فى آية الكرسى التى هى أعظم آية فى كتاب الله - عز وجل - ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا**

يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

فانظر كيف صدرت هذه الآية العظيمة بكلمة التوحيد «لا إله إلا هو» ثم أجرت عليه سبحانه بعد ذلك جملة من الأسماء والصفات فى النفى والإثبات يصلح كل منها وحده ليكون دليلاً على وحدانيته، فذكرت أولاً أنه الحى القيوم، أى المتصف بالحياة الذاتية الكاملة التى هى من لوازم ذاته لم يستفدها من غيره، فهى لهذا أبدية دائمة لا يلحقها موت ولا فناء، والمتصف بالقومية الشاملة التى هى قيامه بنفسه واستغناؤه عن غيره من كل وجه مع قيام غيره به، بحيث لا يستغنى عنه لحظة لأنه فقير إليه فقراً ذاتيًا لا غنى معه أبدًا، وقد ذكر العلماء أن اقتران هذين الإسمين الكريمين فى هذا الوضع وغيره من القرآن كما فى أول سورة آل عمران، وكما فى سورة طه، لتضمنهما جميع صفات الكمال الذاتية والفعلية.

فصفة الحياة تقتضى للمتصف بها صفات من العلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام، وغير ذلك مما تعتبر الحياة شرطًا فيه، بحيث لا يوجد شيء منها إلا مع الحياة ولا توجد هذه الصفات جميعًا على أكمل وجه إلا فيمن كانت حياته أكمل حياة، وكذلك صفة القيومية تقتضى للمتصف بها من كمال الفعل وتمام التدبير، وسمو الحكمة وحسن الرعاية الكلاءة ما لا يمكن أن تتم القيومية بدونه.

فكمال حياته وقيوميته سبحانه مستلزم لكماله فى جميع ماله من صفات الكمال فى الذات وفى الفعل، ولهذا ورد أنهما اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب.

ثم نفت الآية عنه سبحانه ما ينافى كمال قيوميته من السنة والنوم، والسنة: النعاس الذى هو أول النوم، فهى لا تستغرق الحس كما يستغرقه النوم، ثم أخبرت عن تمام ملكه وشموله لجميع العوالم العلوية والسفلية، فقالت: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

ولكن تمام الملك يقتضى أن لا يكون لأحد معه شركة أصلاً لا بشفاعة ولا معاونة ولا مشاورة ولا غيرها، فنبهت الآية على ذلك بنفى الشفعاء الذين

يشفعون عنده بغير إذنه وأوردت ذلك النفى فى أسلوب إنكارى صريح يقطع أطماع القبوريين، فقالت: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾.

ولما كان موجب الشفاعة هو جهل المشفوع عند بحال المستشفع بحيث يحتاج إلى من يعرفه حاله ويبين له من أمره ما يقتضى قبول شفاعته فيه، فقد نزهت الآية ربنا سبحانه عن حاجته إلى شفاعة شافع من جهل، فذكرت من تمام علمه بالأمور كلها مستقبلها وماضيها وحاضرها وظاهرها وخافيها وحسيها ومعنويها ما لا يمكن معه أن يخفى عليه حال أحد من هؤلا المستشفعين إليه، وعلى هذا فلا شفاعة عنده إلا بإذنه، وإلا لمن رضى قوله وعمله، ثم نبهت الآية على قلة علوم العباد إذا قيست إلى علمه تعالى فهى لا تعدو أن تكون قطرة فى بحر، وهم لا يتوصلون إلى شيء من العلوم الدينية أو الكونية إلا بما شاء هو أن يعلمهم إياه مما يهيئ لهم أسبابه ويهديهم إلى طرقه من الفكر والاستنتاج والتجربة ثم دلت على سعة ملكه وعظيم سلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالسموات والأرض حتى كأنها فى جوفه كحلقة ملقاة فى فلاة كما ورد بذلك الحديث.

ثم ختمت الآية العظيمة بذينك الاسمين الجليلين وهما ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ فأفادت علوه المطلق على سائر خلقه من كل وجه، فهو علو الذات وعلو القدرة وعلو القهر، كما أفادت عظمته التى لا حد لها، والتى يتضاءل ويصغر أمامها كل عظيم.

وهكذا تشتمل سيرة آى القرآن على هذه الطائفة من الأسماء والصفات الكريمة التى لا توجد فى آية غيرها، والتى يصلح كل واحد منها لأن يكون وحده برهانًا كافيًا على انفراده -عز وجل- باستحقاقه العبادة والتقديس، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى فى سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وهكذا جعل القرآن الكريم اختصاصه سبحانه بما لـه من الأسماء الحسنى والصفات العليا شاهد صدق وبرهان حق على ما دعت إليه رسله عليهم الصلاة والسلام من وجوب توحيده وإخلاص الدين كله له، فله يسلمون وجوههم وإليه يفزعون فى كـل ما ينوبهم ويكون له وحده خضوعهم وضراعتهم، فهو الإله المألوه وحده الذى تألهه القلوب محبة وخوفًا ورجاء وإنابة وذلاً واستكانة ورغبة ورهبة وتوكلاً واستعانة وسؤالاً ودعاء وتوبة وإنابة، وحلفًا ونذرًا وذبحًا، إلى غير ذلك من أنواع العبادات التى هى حقه على عباده والتى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله. والله ولى التوفيق.

الآن وقد انتهيت - تقريبًا - من ذكر صور الأدلة وأنواع البراهين التى يسوقها القرآن الكريم على توحيد الربوبية ببيان أن هذا الإقرار برب واحد منفرد بالخلق والرزق والتدبير والملك والإحياء والإماتة والتصوير والإبداع ومت إلى ذلك من شئون الربوبية المطلقة التى تشمل كل شىء وتنظم جميع العالم علويه وسفليه.

كان هذا الإقرار يقتضيهم لو أنهم أنصفوا من أنفسهم ولم يركبوا متن الشطط والجور ولم يمنعوا فى السفه والضلال أن لا يجعلوا مع الله إلهًا آخر يشركونه به فيما هو محض حقه من العبادة فى جميع صورها قلبية كانت أو قوليه بدنية أو مالية.

ولكن توحيد الربوبية نفسه الذى جعل دليلاً على توحيد الإلهية رغم أنه مركوز فى الفطر ومستقر فى أذهان العقلاء حتى أنه لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بنى آدم ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال أن للعالم صانعين متماثلين فى الصفات والأفعال قد يحتاج إلى تنبيه يزيل ما عسى أن يقع فيه من الخفاء والاشتباه لا سيما وقد ضلت فيه بعض الطوائف كالثانوية من المجوس والمانوية القائلين بصدور العالم عن خالقين هما النور فاعل الخير وخالق الحيوانات النافعة والظلمة فاعلة الشر ومصدر الحيوانات المؤذية والشياطين الشريرة وكذلك النصارى القائلون بالتثليث يجعلون الآلهة الخالقة ثلاثة وإن كان

المتأخـرون منهم يحاولون تفـسير الأقـانيم الثلاثة بأنهـا خواص أو صـفات لأله واحد. وكثير من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته شيئًا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله بذلك.

لهذا لـم يفت القرآن الكريم أن يؤكـد هذا المعنى الفطرى ويزيده تثـبيـتًا بايراد الأدلة القاطعة على وحدة الخالق - جلا وعلا - وانفرداه بالربوبية المطلقة. والآية الفذة فى هذا الباب هى قوله تعالـى فى سورة المؤمنون: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾.

يقول الشـيخ شارح الطحاوية بعـد إيراد هذه الآية الكريمة: (فـتأمل هذا البرهان الباهر بـهذا اللفظ الوجيز الظاهر فإن الإله الحـق لا بد أن يكون خالقًا فاعـلاً يوصل إلى عباده النفع ويدفع عنه الـضر فلو كان معـه سبحـانه إله آخر يشركه فى ملكه لكان لـه خلق وفعل وحينئذ فلا يرض تلك الشـركة بل أن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملـك والألهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه. إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه.

فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

١- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

٢- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

٣- وإما أن يكونوا تحـت قهر ملك واحـد يتصرف فـيهم كـيف يشاء ولا يتصرفون فـيه بل يكون وحده هو الإله وهم العبيـد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وأحكام أمـره من أول دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعـالى فى سورة الأنبياء: ﴿**لو كان فيهما**

آلهة إلا الله لفسدتا﴾ غير أن هذه الآية الأخيرة ليست فى بيان توحيد الربوبية كما ظن كثير من المتكلمين من الأشعرية وغيرهم وإنما هى فى توحيد الألهية فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره ولم يقل أرباب وأيضًا فإن هذا فساد بعد الوجود والمعنى لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا ولو كانت فى توحيد الربوبية لقال لم توجدا.

فالآية إنما دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الإله إلا واحدًا وإن فساد السموات والأرض واختلال أحوالهما يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله إنما هو بالعدل وبه قامت السموات والأرض وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد.

والمتكلمون يعتمدون إثبات توحيد الربوبية على دليل يسمونه دليل التمانع ويزعمون أنه مأخوذ من قوله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** ولكنك قد علمت مما سبق أن الآية فى توحيد الألوهية.

وخلاصة هذا الدليل كما جاء فى كتبهم أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد الآخر تسكينه فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين.

والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم أيضًا عجز كل منهما والعاجز لا يصلح إلهًا.

وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر وهو الفرض الثانى كان هذا الذى حصل مراده هو الإله القادر وكان الآخر عاجزًا لا يصلح للألهية.

وهذا الدليل كان صحيحًا فى ذاته مثبتًا للمطلوب إلا أن الدليل قررناه أخذًا من الآية الكريمة **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾** أقوى منه وأقرب إلى الواقع الملموس فإنه

يدل على أن الاتفاق بين الآلهة مستحيل وإنه لن يكون منهم إلا أحد أمرين إما ذهاب كل بما خلق حال عجز كل منهما عن قهر الآخرين وإما علو بعضهم على بعض حال ظهور أحدهم وتفوقه فى القدرة على غيره والله أعلم.

فرغت الآن من إيراد الأدلة المثبتة لتوحيد الألوهية من القرآن الكريم وبينت أن من أبرز تلك الأدلة ما يسوقه القرآن من مظاهر الربوبية المطلقة التى تتمثل فى انفراده تعالى بخلق الأشياء جميعًا وتدبير الأمر كله بحيث لا يكون لأحد معه شركة أصلاً لا فى خلق شىء ولا فى تدبير أمر كما قال جل شأنه: ﴿**ألا لله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾.

وآخذ الآن إن شاء الله فى بيان حقيقة هذا التوحيد وبيان العناصر التى تتألف منها هذه الحقيقة، ثم بيان ما يطلها وينافيها من ألوان الشرك المختلفة. فحقيقة توحيد الألوهية مختص به لا يشاركه فيه أحد كما قال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾. وكما قال جل شأنه فى سورة محمد عليه السلام: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾.

وأما حقيقته فى القصد والطلب فهو أن لا يقصد المرء بشىء من عبادته إلا وجه الله - عز وجل - وأن يخلص له النية فى جميع أقواله وأفعاله وأن لا يشرك معه أحدًا من خلقه فيما تعبده به.

وهذا القسم من توحيد الألوهية هو معظم ما يقع فيه النزاع بين أهل الحق من أنصار السنة المحمدية وبين خصوصهم من القبوريين والصوفية والشيعة وغيرهم. والسبب فى ذلك هو جهل هذه الطوائف المبتدعة الشركية بمفهوم العبادة التى لا تنبغى إلا لله، وجهلهم كذلك بإفراد العبادات التى تدخل تحت هذه المفهوم، فتراهم يفعلون كثيراً منها لغير الله دون أن يفطنوا إلى ما فى ذلك من مزاق الشرك الأكبر والخروج عن حظيرة التوحيد.

فالعبادة اسم جامع لكل ما تعبد الله به عباده مما يحبه ويرضاه من الأقوال

والأعمال الباطنة والظاهرة التي شرع لهم أن يتقربوا بها إليه ويخصوه وحده بها. وإفراد العبادة التي تندرج تحت هذا المعنى الكلي كثيرة ولكن يمكن مع ذلك ضبطها بتقسيمها إلى أربعة أقسام أولية. هي العبادات القلبية والقولية والبدنية والمالية. ونأخذ بعد ذلك في بيان القسم الأول وهو العبادات القلبية المتعلقة بالقلب والتي تعتبر أساسًا لما سواها من العبادات.

فأهم هذه العبادات وأولها العبادة بالحب، وهو أن يحب العبد ربه حبًا يملأ أقطار نفسه ويملك شغاف قلبه بحيث لا يكون أحد من الخلق أحب إليه من ربه، بل ولا مساويًا له في الحب، فلا يحب مع الله غيره لأن هذه المعية تفهم الشركة والمساواة ولكنه يحبه في الله ولله كما قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: (**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**). وقد نعى الله على المشركين أنهم يحبون آلهتهم حبًا مساويًا لحبهم لله فقال في سورة البقرة: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله**﴾.

ومن علامات حب العبد لربه - جلا وعلا - أن يعظم أمره ونهيه وأن يكون ما يحبه الله ويرضاه آثر لديه من كل ما يحبه هو ويهواه من مال وولد وأهل وعشيرة ومسكن وتجارة، بل ومن نفسه التي بين جنبيه فهو يجود بها لله عند الاقتضاء قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾. وقال في سورة براءة متوعدًا المتقاعسين على الهجرة: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾.

ومن علاماته كذلك: الغيرة على دين الله - عز وجل- بحيث يفرح إذا عمل بطاعة الله، ويحزن قلبه ويغضب إذا انتهكت حرمات الله وارتكبت معاصيه لعلمه بأنها مكروهة لله، ومن شأن المحب أن يكره وقوع ما يكرهه محبوبه.

ومنها: أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالى إلا من والى الله، ولا يعادى إلا من عادى الله، فإن من أحب أحدًا فإنه يحب كل من يتصل به ويواليه ويبغض كل من يشنأه ويعاديه، ومحال أن يكون حب العبد لربه صادقًا إذا كان يبغض أحدًا ممن يعلم أن الله - عز وجل - يحبهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، أو كان يحب أحدًا ممن يعلم أن الله يبغضهم ممن حادوا الله ورسوله وعاندوا آياته واستكبروا فى أرضه بغير الحق من مثل فرعون وقارون وهامان وأبى جهل وإبليس وغيرهم. ولهذا جاهر الخليل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه بالعداوة لما علم إصرارهم على كفرهم وقال لهم هو ومن معه من المؤمنين ما حكاه الله - عز وجل - فى سورة الممتحنة بقوله: ﴿**إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾.

وبالجملة فالحب الصادق هو الذى يقتضى هذه الأمور كلها. أما من يدعى حب الله - عز وجل - وهو يجترى على معاصيه أو يقصر فى فعل ما يحبه من الواجبات والمستحبات أو لا يشعر قلبه بالغيرة إذا انتهكت حرمات الله كهؤلاء الدجالين من الصوفية الذى يزعمون أنهم بلغوا من محبة الله منصبًا سقطت عنهم فيه التكاليف وأبيحت لهم المحرمات ويرضون عما يقع من الفواحش والمظالم بدعوى أنها واقعة بمشيئة الله، يضاهئون بهذا قول المشركين ﴿**لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾ إلى غير ذلك مما لبّس عليهم فيه الشيطان.

فهؤلاء لا يصدقون فى دعوى الحب فقد كذب الله قومًا ادعوا محبته وهم لا يعلمون بطاعته ولا يتبعون رسوله. فقال سبحانه: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فى رسالة العبودية: -

«والعبادة أصل معناه الذل أيضًا، يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهى تتضمن

غاية الذل لله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لا نصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق وآخرها التتيم. يقال تيم الله أى عبد الله. فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان مع بعضه له فلا يكون عابدًا، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء وأن يكون الله عنده أعظم من كل شىء. بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً».

فالحب وحده لا يحقق معنى العبادة بل لا بد معه من كمال الذل والخوف والرجاء. وفى ذلك يقول بعض السلف (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، والمؤمن هو الذى يجمع بين الحب والخوف والرجاء).

تكلمت فى الحديث السابق عن الحب كأساس من أسس العبادة القلبية وقلت أن الحب وحده لا يكفى بل لا بد معه من كمال الذل لله وكمال الخوف منه، فلا تصح العبادة إلا إذا قامت على هذين الركنين، أعنى كمال الحب وكمال الذل والخوف وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ولا سيما معرفته بماله من صفات الجبروت والقهر والبطش والانتقام فتمثل العبد لهذه الصفات وتذكره لآيات الوعيد الواردة فى القرآن الكريم مع شهوده لآفات عمله وعيوب نفسه يولد فى نفسه الخشية من الله - جلا وعلا - حتى لا يكون شىء أخوف منه عنده بل حتى يخافه وحده ولا يخاف غيره قال تعالى: **﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** فجعل الخوف منه وحده علامة الإيمان وشرطه ومدح رسله عليهم الصلاة والسلام بأنهم يخشونه ولا يخشون غيره فقال جل شأنه **﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾** وجعل الخشية منه سبحانه مقصورة على أهل العلم به فقال: **﴿إنما يخشى الله من عباده**

العلماء ﴾ وقال فى شأن زكريا عليه السلام وأهله: ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾.

وقال فى وصف المؤمنين: ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾.

ولما فصل الله حال الفريقين من أهل الجنة وأهل النار جعل الخوف مقامه فى مقدمة صفات أهل الجنة فقال تعالى: ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾.

وقال: ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب** ﴾.

وقال جل شأنه: ﴿ ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين الذى يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ سألت عائشة رسول الله ﷺ عن هؤلاء هل هم الذين يزنون ويسرقون إلخ. قال لها لا يا ابنة الصديق بل هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخشون أن لا يقبل منهم ويطول بنا القول إذا حاولنا استقصاء ما فى الكتاب العزيز من الآيات الواردة فى مدح الخوف والخائفين وما أعد ا(لهم من الزلفى والكرامة عنده.

وقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى والقدوة الكاملة فى هذا الباب فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها أنه كان إذا هبت الريح أو رأى مخيلة فى السماء تغير لونه ودخل وخرج وبدا عليه القلق حتى يعرف ذلك فى وجهه.

ولما أخذ الفداء من أسرى بدر بمشورة أبى بكر -رضى الله عنه- ونزلت الآيات تعاتبه على ذلك أعنى قوله: ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من**

الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ دخل عليه عمر -رضى الله عنه- فوجده هو وأبو بكر يبكيان فقال: ما يبكيكما فان وجدت بكاء بكيت فقال له الرسول ﷺ: «لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة لو نزل عذاب ما نجا منه إلا عمر لم ير أخذ الفداء»، وكذلك كان السلف من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وأئمة الهدى من بعدهم على سنة نبيهم ﷺ في شدة الخوف من الله ودوام المراقبة له وعدم الأمن من مكره فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ولعلك بعد هذا تدرك فساد ما يدعيه بعض ضلال الصوفية من أنهم لا يعبدون الله خوفًا من ناره ولا طمعًا فى جنته ولكن يعبدونه لذاته. فهؤلاء لم يرضوا لأنفسهم حتى مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل ذهب بهم الغرور الصوفى إلى أن يفتروا على الله الكذب ويهملوا عبادة من أحب العبادات إلى الله - جلا وعلا - وهى عبادته بالخوف والرهبة. وليت شعرى ما هذه الذات التى يعبدونها؟ هل هى ذات لا صفة لها؟ أم هى ذات متصفة بما يوجب حبها والخوف منها والرجاء فيها إلى غير ذلك مما يعرفه العالمون بالله جل شأنه لا هؤلاء الأدعياء الجاهلون الذين بلغت بهم القحة وسوء الأدب والجرأة على مقام الرب جل شأنه أن يصوروه فى صورة الغانيات المعشوقات وأن يسموه تسمية الأنثى من هند ودعد وليلى وسلمى وأن يدعو الاستغراق فى شهود جماله والتلذذ بطيب وصاله وهم مع ذلك لا يرجون له وقارًا ولا عظمة ولا يشعرون عند ذكره بخوف ولا رهبة قد غرهم بالله الغرور ومد لهم فى حبل الغواية والفجور فسبحان الله عما يصفون وإنما أطلنا الكلام مع هؤلاء لعلمنا أن كثيرًا من الناس يحسن الظن بهم ويخلع عليهم ألقاب الولاية ويسميهم بالواصلين والعارفين مغترًا بما يظهرون من الوله والوجد ومكابدة الأشواق فيجرى معهم فيما جروا فيه فيضل سواء السبيل وإذا كان الخوف سوطًا يلهب العبد ويسوقه إلى جادة الطريق بعنف ويكسر من غرور نفسه ويوقظه من رقاد الغفلة وسفه الهوى، فلا بد أن يكون مصحوبًا بالأمل والرجاء فى فضل الله ورحمته حتى لا يفضى إلى اليأس والقنوط، ولهذا تجئ دائمًا آيات البشارة مع آيات النذارة هذه تحدو النفوس وتنشطها وتلك تسوقها وتزجرها. والله الهادى إلى سواء السبيل.

وإذا كانت العبادة لا تصح إلا إذا قامت على هذه الدعامات الثلاث من الحب والخوف والرجاء، فإن هناك دعامة أخرى تعتبر بحق لب العبادة وروحها. وبدونها تفقد العبادة معناها وتكون كالجسد الميت الذى لا روح فيه. بل تكون أقرب إلى النفاق والرياء. وهذه الدعامة هى الإخلاص الذى يقوم على تمحيض النية لله - عز وجل - وتجريدها من كل شائبة هوى أو نفع شخصى بحيث لا يريد بعمله إلا وجه الله - تعالى- ولا يكون الباعث له عليه إلا رغبته فى ثوابه وخوفه من عقابه وشعوره بحق الله - تعالى- عليه.

وإذا كان شرط العبادة الظاهر هو أن يصيب بها صاحبها السنة وأن يجئ بها موافقة لما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ بلا زيادة ولا ابتداع، فإن الإخلاص هو شرطها الباطن، بل هو قطب رحاها الذى به يثقل ميزانها أو يطيش، ولهذا جاءت الآيات القرآنية تأمر بالإخلاص وتنوه بشأنه وتحذر مما ينافيه من الرياء والنفاق، وتتوعد عليه بحبوط الأعمال وسوء المال. قال الله - تعالى-: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾. وقال جل شأنه: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾. وقال عز من قائل: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾.

وقد ورد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ أنها نزلت فى أهل الرياء. يعطون أجر حسناتهم فى الدنيا ولا ثواب لهم عليها فى الآخرة لحبوطها بالرياء.

وفى الحديث القدسى الذى رواه مسلم: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه). وروى أحمد فى مسنده من

حديث أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟ قلنا بلى قال: الشرك الخفى، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر الناس إليه**».

ومن العبادات القلبية بل من أجلها وأعظمها: اليقين وهو سكون النفس وطمأنينتها بما حصل لها من العلم الذى لا يحول ولا يتغير ولا ينسخه شك أو شبهة، مأخوذ من يقن الماء إذا سكن. وقد مدح الله الموقنين فقال: ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾. وميزهم بحسن النظر والاعتبار. فقال: ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ وجعل لهم الإمامة فى الدين فقال: ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾.

فأشار بالصبر إلى كمال القوة العملية وباليقين إلى كمال القوة العلمية، فمن كملت فيه هاتان القوتان فقد ترشح لمنصب الإمامة الخطير.

ومنها التوكل: وحقيقته ثقة العبد بكفاية الله - عز وجل - وحسن تدبيره وعدم وقوفه مع الأسباب وتعلقه بها وإن كان ينبغى ألا يهملها أو يقصر فيها. فإن التوكل لا ينافى الأخذ فى الأسباب المقدورة للعبد، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو تواكل وعجز وبطالة يأباها الدين.

والتوكل من أحب العبادات إلى الله، وقد مدح الله المتوكلين عليه وأخبر أنه حسبهم وكافيهم. قال تعالى: ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ والحسب الكافى. وقال: ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾.

وجعله علامة إيمان العبد وحسن إسلامه، فقال إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾.

وجعله شقيق العبادة ونصف الدين فقال: ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه** ﴾. وقال فى أم الكتاب ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾. والاستعانة التوكل. وقد أخبر النبى ﷺ أن سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ولما سئل عنهم قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**».

ومنها الإنابة: وهى الرجوع إلى الله - عز وجل - بالتوبة بعد الحوبة. وبالذكر بعد الغفلة وبالشكر عند النعمة، وبالتسليم عند المصيبة. وبالجملة فهى فرار العبد إلى مولاه والتجاؤه إليه كما يفر الطفل إلى أمه معتقدًا أن لا ملجأ له من الله إلا إليه، ومتوددًا إلى الله بحسن الإقبال عليه. قال الله - تعالى-: **﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾** وقال: **﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾**.

ومنها الإخبات والاستكانة: وهو تواضع العبد لربه وشعوره بضعفه وحقارته أمام جلال الله وسطوته وعظمته وهيبته.

ومنها دوام مراقبته لله - عز وجل - وأن يعلم أن الله معه حيث كان، وأنه لا يقول من قول ولا يعمل من عمل إلا كان الله شهيدًا عليه حين يفيض فيه، فيعبد الله كأنه يراه ويستحى منه أن يراه مقصرًا فى شىء مما أمره به، أو مقترفًا لشىء مما نهاه عنه، والحياء خير كله وهو شعبة من الإيمان.

وبالجملة فالعبادات القلبية هى كل ما يتعلق بالقلب من معان وأحوال أمر الله بها وتعبد عباده بها، وأثنى على المتصفين بها فى كتابه. فهذه العبادات هى حق الله - عز وجل- على عباده فلا يجوز أن يصرف العبد شيئًا منها لغير الله مهما كان ذلك الغير، أو يجعل له مع الله شركة فيها فيحبه مثلاً كما يحب الله أو يخافه كما يخاف الله أو يعظمه كما يعظم الله، وإلا وقع فى حمأة الشرك الذى لا يغفره الله أبدًا، نعوذ بالله أن نشرك به شيئًا، ونحن نعلم ونستغفره لما لا نعلم. وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

فرغت من الكلام بإيجاز عن العبادات القلبية التى لا تنبغى إلا لله ويكون مناط العبادة فيها هو القلب وحده، وذلك مثل الحب والخوف والرجاء والذل والتوكل والاستعانة والتوبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخضوع والاستكانة والإخلاص والتقوى والمراقبة واليقين، وغيرها مما يتعلق بالقلب ولا دخل فيه

لجارحة أو لسان.

وأبدأ الكلام الآن على العبادات القولية: التى تناط العبادة فيها بقول اللسان مقارنًا للإرادة الصحيحة والنية الخالصة التى هى شرط فى العبادات كلها.

والعبادات المتعلقة باللسان فوق أنها كثيرة جدًّا تعتبر مزلقًا خطيرًا من مزالق الشرك لكثرة ما يقع فيها من الزلل والانحراف، بدعاء غير الله أو استغاثته، أو الحلف به أو الغلو فى مدحه، بما يرفعه عن درجة المخلوقين، أو سؤاله المدد والبركة على نحو ما يفعله القبوريون عند الأضرحة التى يعتكفون عليها يبتغون عندها الزلفى ويقدمون لها كل أنواع الاسترضاء. ولهذا رأيت نظرًا لخطورة الموضوع وأهميته القصوى، أن أتناول بالتفصيل كل واحدة من هذه العبادات اللسانية، وأن أبين ما وقع فيها من زيغ وانحراف، بيانًا يستبين به سبيل الحق والإنصاف ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة** ﴾.

فمن هذه العبادات:

أولاً: الذكر: وهو فى الأصل استحضار المذكور سبحانه وتعالى فى القلب ببعض ماله من الأسماء والصفات، مع التأمل فى معانيها والتدبر لآثارها وتأثر القلب بها.

وذلك لأن الذكر من التذكر الذى هو ضد النسيان والغفلة.

قال تعالى: ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ وقال: ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾.

فأنت إذا استحضرت الله فى نفسك باسم الرحمن مثلاً، وتأملت معناه، وهو أنه ذو الرحمة التى وسعت كل شيء، وبلغت حيث بلغ علمه، ثم استجليت مظاهر هذه الرحمة فى نفسك مما أودع الله فيك من القوى والحواس والأعضاء والآلات، وما ميزك به من موهبة العقل والتفكير التى صرت بها خليفة

فى أرض الله تعمرها وتستخرج منافعها وتدبر شئونها. واستجليت مظاهرها كذلك فيما حولك مما جعل الله فى السماء من شمس وقمر ونجوم وأبراج سخرها لك وناط بها حياتك، ومما أودع فى الأرض من كنوز وخيرات، وما بثه على ظهرها من صنوف الحيوان والنبات، وكيف بسطها لك وجعلها ذلولاً، وثبتها بالجبال، وأنزل عليها من السماء ماء فأجراه أنهارًا وسلكه ينابيع، وجعله مادة الحياة لكل ما على ظهرها من حيوان ونبات، ثم ذكرت كذلك أن هذه الرحمة التى شملت فى الدنيا بر الناس وفاجرهم، ستكون من خاصة بالمتقين يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾.

أقول: إذا أنت فعلت ذلك كله كنت قد ذكرت الله باسمه الرحمن الدال على صفة الرحمة، ولو لم ينطق به لسانك. وكذلك إذا استحضرت ربك فى نفسك باسمه العظيم الدال على صفة العظمة التى تتضاءل دونها كل العظمات، وذكرت أن هذا الكون كله من عرشه إلى فرشه على ترامى أبعاده، واتساع أقطاره، وما يحوى فى فضائه الواسع من أجرام هائلة، لا يعدو أن يكون بين يدى خالقه ومبدعه كبندقة فى يدك، أدركت سر عظمته سبحانه وأنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى اكتناهها والإحاطة بها. ويكفيك أن تعتبر فى بعض مخلوقاته مثل العرش والكرسى، فكرسيه قد وسع السموات والأرض بحيث تكون فى جوفه كحلقة ملقاة فى فلاة، والكرسى فى العرش هو أيضًا كحلقة ملقاة فى فلاة. فإذا بلغت بعض مخلوقاته من الاتساع والعظمة هذا الحد الذى يبهر العقل ويحير الفكر، فما ظنك بعظمة خالقها؟ إنها تكون ولا شك عظمة تفنى عندها كل عظمة وتذوب.

وهذا إذا استحضرت سبحانه باسمه العلى، وذكرت هذا العلو المطلق له على كل شىء، فهو علو الذات فوق عرشه، وهو علو القدر والشرف والمجد والسيادة والكمال والعظمة، وهو علو القهر والقدرة والعزة والغلبة والانتقام والبطش، بحيث لا يكون للفظ العلو من معنى إلا هو ثابت له سبحانه من كل وجه وإن رغم أنف النفاة المبطلين.

وبالجملة فمهما استحضرته تعالى فى نفسك باسم من أسمائه، وتأملت معنى هذا الاسم وما يدل عليه من صفة، ونظرت إلى آثار تلك الصفة فى نفسك وفى غيرك، فقد ذكرت الله وعبدته بهذا الاسم، ولو لم يجر على لسانك.

وهذا الذكر النفسى هو من قبيل عبادات القلب التى سبق الكلام عليها. فلا شأن لنا به هنا، وإنما الذى نريد أن نتكلم عليه، هو الذكر الذى يكون فيه اللسان مترجمًا عما فى القلب وموافقًا له. وهذا أكمل أحوال الذكر، فإن اجتماع القلب واللسان مما يقوى المعنى ويزيده جلاء، وفيه من التعبد أكثر مما لو انفرد القلب وحده.

وإذا عرف أن وظيفة اللسان فى الذكر ليست إلا الترجمة عما فى القلب، تكون أنواع الذكر باللسان بمقدار ما يتسع له القلب من معانى أسمائه وصفاته - فقولك: (سبحان الله) ذكر، لأنها تعبير عما يعتقده القلب من تنزهه سبحانه عن كل صفة نقص وعيب، وعن سمة الحدوث والاحتياج، فيدخل فى ذلك تنزهه عن كل ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسول الله ﷺ، من الند والشريك، والصاحبة والولد، والشفيع والظهير، والسنة والنوم، والضلال والنسيان، والعجز والجهل، والظلم والسفه، إلى غير ذلك مما لا يليق بذاته المقدسة.

وقولك: (الحمد لله) ذكر له جل شأنه بما له من صفات الكمال كلها، فيتناول فضله ورحمته وجوده وإحسانه، ولطفه وامتنانه، وعفوه وحلمه وستره ومغفرته، وهدايته للخلق بإنزال الكتب والشرائع، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام. ويتناول كل شئون ربوبيته من الخلق والرزق، والتدبير والملك، مما لا تستطيع العقول حصره، فله الحمد فى الأولى والآخرة.

وقولك: (لا إله إلا الله) أفضل الذكر؛ لأنها براءة من كل ما عبد من دون الله، وإثبات وصف الألوهية له وحده، وإذا عرف أن الله ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، وكانت العبادة لا تصح معها الإشراك، كانت الكلمة الدالة على

إخلاص العبادة لله أعظم الكلام، ولهـذا جاء فى الحديث الصحيح: (**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير**).

فكلمة (**لا إلــه إلا الله**) عليـها يـدور أمر الإسـلام كله، فـهى منه قطب الرحى، وأسـاس البناء، ولهذا كـان من قالهـا صادقًا من قـلبه، أسعـد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة.

وكـذلك إذا ذكـرت ذنبك وإسـاءتك وتفـريطـك فى جنب الله وتعـديك لحدوده، وانتهاكك لحرماته، فقلت: استغفر الله العظيم كان هذا ذكرًا من أحب الأذكـار إلى الله. ويجلو صـدأ القلب ويذهب غـضب الرب ويسـتنزل خـيـره ورحمته، كما قال تعالى: ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين. ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا**﴾.

والله - تعالى- يفرح بتوبة عبده حـين يتوب إليه أشد الفرح، ويبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهـار ليتوب مسئ الليل، وجعل التوبة والاستغفار شفاء من الذنوب والأوزار.

وكذلك قراءتك للقرآن الذى هو كـلام الله - تعالى- ووحيه وتنزيله، من أفضل الذكر، فلا شىء أحب إلى الله، ولا أقـرب إليه زلفى، من تلاوة كتابه، مع التفقه والتدبر والخشـوع والخشية، قال تعالى: ﴿**الله نزَّل أحسن الحديـث كتابًا متشـابهًا مثانى تقـشعر منه جلود الذين يخشـون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾.

وفى الحـديث: «ما عـبد الله بشىء أحب إليـه مما خرج منه» يعنى الـقرآن الكريم، وفى الحديث الآخر: «من شغله قراءة القـرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

وبالجملة فكل مـا جرى على اللسان مما فيـه ثناء على الله، ودعا له باسم من أسمائه الواردة عـلى لسان الشرع، مع التضرع والتـذلل والخفية والمخـافتة،

فهو ذكر لله يعد صاحبه من الذاكرين الحائزين لفضيلة الذكر.

وأما هؤلاء الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعبًا فيذكرون الله بما لم يسم به نفسه، من نحو قولهم آه، وهو، ويلحدون فى أسمائه بالتحريف لها عن أصل وضعها، فيقصرون الممدود، ويمدون المقصور، ويرفعون بذلك أصواتهم فى جرأة وقحة، ولا يذكرونه إلا مع هز الرءوس والأكناف، ورقص البطون والأرداف، وإلا على صفير الناى وأنشاد النساء، ويجتمعون على الذكر حلقات يتوسطهم شيطان يصفق لهم، وهم يرقصون على إيقاع تصفيقه مجردة قلوبهم من الخشوع والخشية، ممثلة من كل هوى خبيث، وفجور داعر.

أقول: إن الذكر على هذه الهيئة المنكرة التى يبرأ منها دين الإسلام، ليس بدعة فحسب بل هو جريمة فى حق الدين والوطن أيضًا، فما ينبغى للدولة التى تحترم نفسها أن تسمح لنفر من أبنائها بارتكاب مثل هذا الهراء الذى يسىء إليها ويجعلها مثاراً للضحك والسخرية من جميع الشعوب.

تكلمت فى ما سبق عن الذكر كصورة من صور العبادات القولية، وقلت: إن الذكر باللسان لا يكون معتداً به ولا بالغًا بصاحبه أن يعد من الذاكرين، إلا إذا سبقه ذكر القلب بأن يستحضر الذاكر ربه جل وعلا موصوفًا بما ينبغى له من صفات الكمال، أو منزهاً عن كل ما يليق به من صفات النقص والسوء، ثم يترجم اللسان عما يدور فى القلب من تلك المعانى ترجمة صادقة، فلا يلحد فى أسماء الله، بأن ينطق بها محرفة مبدلة، أو يسميه سبحانه بغير ما سمى به نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وذكرت من آداب الذكر ما تضمنته الآية الكريمة التى فى آخر سورة الأعراف أعنى قوله تعالى: ﴿**واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾ فإنها قد تكلفت بوضع دستور للذكر ينبغى أن يراعيه كل ذاكر، وهو أن يكون لله - عز وجل -، إما فى نفسه بلا تلفظ، أو مخافتة بلا جهر، وأن يكون مع التذلل والخشية والإخبات.

وعرضت كذلك في آخر الحديث لما يفعله ضلال الصوفية وأصحاب الطرق مما يسمونه ذكرًا، ونبهت إلى بعض ما يلابسه من البدع الشنيعة التى يربأ عنها كل عاقل يحترم نفسه ويوقر ربه ويفهم دينه، وأزيد على ذلك: أن ما يلتزمه هؤلاء من الذكر بقوله (الله) أو (هو) أو غيرهما من الألفاظ المفردة، ليس هو الذكر الذى شرعه الله جل شأنه. فإنه لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة أمر به ولا فيهما ما يدل على شرعيته ولا نقل عن أحد ممن يعتد به من سلف هذه الأمة أنه ذكر الله - عز وجل - بمثل ذلك فإن الاسم المفرد المجرد ليس كلامًا تامًا ولا جملة مفيدة، ولو تلفظ به كافر لم تحصل له النسبة إلى الإسلام بمجرده، حتى يقول لا إله إلا الله، فهو يفيد الإيمان بإتفاق، ولا ورد الأمر به فى شىء من العبادات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فى رسالته المسماة بالعبودية ما ملخصه، وهو بحث نفيس جدًا:

«وأما الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهى، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعًا، وإنما يعطيه قصورًا مطلقًا لا يحكم عليه بنفى ولا إثبات، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما يكون الفائدة حاصلة بغيره، والذكر بالاسم المفرد المضمر أبعد عن السنة وأدخل فى البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال (يا هو ياهو) أو هو هو، ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدًا إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدى، وقد يضل. ثم كثيرًا ما يذكر عن بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: (الله) لقوله سبحانه: **﴿قل الله ثم ذرهم﴾** ويظن بأن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله: **﴿قل الله﴾** معناه: الله الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى، وهذا جواب لقوله: **﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورًا وهدى للناس**

تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله﴾ أى الله الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى، رد بذلك قول من قال: ﴿**ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾ فقال من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى؟ ثم قال: قل الله: أى أنزله. ثم ذر هؤلاء المكذبين فى خوضهم يلعبون، والله تعالى لم يأمر أحدًا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسمًا مفردًا مجردًا، ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر من أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله بالنصب، فقال ماذا يقول هذا؟ هذا هو الاسم فأين الخبر عنه؟.

وما فى القرآن من قوله: ﴿**واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً**﴾، وقوله: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ وقوله: ﴿**قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى**﴾، وقوله: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ قال النبى ﷺ: (**اجعلوها فى ركوعكم**) ولما نزل قوله: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: (**اجعلوها فى سجودكم**) فشرع لهم أن يقولوا فى الركوع سبحان ربى العظيم، وفى السجود سبحان ربى الأعلى، فتسبيح اسم ربه الأعلى، وذكر اسم ربه، ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد.

كما فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (**أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**) وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**) وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة كقول المؤذن الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وقول المصلى: الله أكبر، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى الأعلى، سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله، وقول الملبى: لبيك اللهم لبيك، وأمثال ذلك، فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر، وهذا هو الذى يسمى فى اللغة كلمة، كقوله صلى الله عليه وسلم (**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان،**

حبيبتان إلى الرحمن) وقوله: **(أفضل كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)** ومنه قوله تعالى: **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾**.

والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذى ينفع القلوب ويحصل له الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية، وأما الاقتصار على الاسم الفرد مظهرًا أو مضمرًا فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الالحاد وأهل الاتحاد).

فهل يسمع هذا الكلام هؤلاء الذين شرعوا لأنفسهم من الذكر ما لم يأذن به الله، وعبدوا الله بالهوى والبدعة، وصدق عليهم إبليس ظنه فأطاعوه فيما زين لهم من أعمال حمقاء، وحركات رعناء حسبوها قربات وظنوها طاعات **﴿ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا﴾**.

• الدعاء أهم العبادات القولية •

ومن أهم العبادات القولية التى لها أكبر شأن فى الإسلام بل وفى الأديان الألهية كلها الدعاء وهو يرد فى القرآن على نوعين دعاء الثناء والعبادة ودعاء المسألة والطلب وتارة يراد به مجموعهما والنوعان متلازمان فإن دعاء المسألة معناه طلب ما ينفع الداعى، أو طلب كشف ما يضره أو دفعه، ولك من يملك النفع والضر فأنه هو المعبود حقًا، وللمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك له ضرًا ولا نفعًا وذلك كقوله تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾**، وقوله: **﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾** وهو فى القرآن كثير جدًا.

وإذا تأملنا الآيات القرآنية التى ورد فيها لفظ الدعاء وجدناه فى بعض الآيات يكون أظهر فى أحد المعنيين منه فى الآخر فمثلاً قوله تعالى: **﴿وقال**

ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ أظهر فى دعاء العبادة ولهذا عقبه بقوله: **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾** وروى عن النبى ﷺ أنه قال: **(الدعاء هو العبادة)**، وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لآلهتهم وأصنامهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء العبادة أظهر.

وأما ما هو أظهر فى دعاء المسألة والطلب فمثل قوله تعالى: **﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** وقوله -سبحانه- حكاية عن زكريا -عليه السلام-: **﴿إذ نادى ربه نداء خفيًا قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًا﴾** وقوله كذلك: **﴿إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾**.

وأما قوله تعالى: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾** فهو متضمن للنوعين جميعًا وبكل منهما فسرت الآية فقيل معناه أعطيه إذا سألنى وقيل معناه أثيبه إذا عبدنى.

والذى يهمنا الكلام عليه هنا هو دعاء المسألة والطلب لأنه أعظم ما وقع فيه النزاع بين أهل الحق وبين خصومهم ممن يدعون غير الله - عز وجل - ويسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله أو يجعلون بين الله وبينهم واسطة فى الدعاء يعتقدون أنها ترفع حوائجهم إلى الله وتشفع لهم عنده فى قبول دعائهم وقضاء حوائجهم وبدون الواسطة لا يسمع لهم دعاء ولا تقضى لهم حاجة. فإذا علمنا أن دعاء المسألة والطلب نوع من العبادة بل هو مخ العبادة لأنه لا يدعى ويسأل إلا من كان مالكًا للنفع والضر ومن كان مالكًا للنفع والضر هو الذى يستحق أن يعبد علمنا أن دعاء غير الله تعالى كما يفعله كثير من الناس عند أضرحة المشايخ من دعائهم لأصحابها واستغاثتهم بهم هو شرك صريح وتوجه بالدعاء الذى هو عبادة إلى غير الله.

وأما من دعا الله - عز وجل - بأحد من خلقه بمعنى أنه جعله شفيعًا إلى الله فى أن يقبل دعاءه أو يقضى حاجته معتقدًا أنه لولا تلك الشفاعة لم يسمع دعاءه ولم تقض حاجته وأن لتلك الواسطة تأثيرًا غيبيًا فى جلب الخير ودفع الضر فهذا أيضًا شرك يجب أن يستتاب صاحبه منه فإنه قد جعل هذا الشفيع شريكًا مع الله فى قضاء حاجاته وكشف كرباته كما أنه شبه الله - عز وجل - بخلقه وجعله كواحد من ملوك الدنيا محتاجًا إلى أعوان وظهراء يرفعون إليه حوائج عباده ويعرفونه بما خفى عليه من أحوالهم ويقدرون على التأثير فى إرادته فينقلونه بشفاعتهم من حال الغضب والقسوة إلى حال الرضى والرحمة. وهو يستجيب لهؤلاء الشفعاء لأن لهم عنده من الجاه والحرمة ما لا يقدر معه على رد شفاعتهم لحاجته إليهم فى تدبير مملكته ومقاومة أعدائه إلى غير ذلك من المعانى التى يجب تنزيه الله تعالى عنها. ولهذا أنكر القرآن على المشركين اتخاذهم الوسائط والشفعاء بينهم وبين الله تعالى واعتبر ذلك شركًا صريحًا لا يقل فى شناعته عن دعاء غير الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾.

وقال فى سورة الزمر: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى أن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدى من هو كاذب كفار**﴾، فجمع لهم فى هذه الآية بين أقبح وصفين وهما الكذب والكفر وبين أن ذلك مانع من هداية الله لهم وإذا كان هذا هو حكم الله فى هؤلاء المشركين الذين ما كانوا يعبدون هذه الأصنام لذاتها ولا كانوا يعتقدون أنها تملك لهم النفع والضر وإنما كانوا يقتربون بها إلى الله ويستشفعون بها عليه جل شأنه لاعتقادهم أنها أقرب إلى الله منهم وأرجى إليه شفاعة فماذا يكون حكم الله فى هؤلاء العاكفين على هذه الأضرحة يوسعونها لثمًا ويتمسحون بها تبركًا ويناجونها فى ذلة وضراعة ويسألونها كل حوائجهم ملتمسين رضاها وبركاتها خائفين أشد الخوف من سطوها ونقمتها ومتملقيها بأنواع القرابين

والنذور وإذا سئل أحدهم أن يحلف بواحد منها وكان كاذبًا تحاشى ذلك وخشى عاقبته وإذا طلب منه الحلف بالله - عز وجل - فرح وجاءه الفرج وبذل ذلك لمن سأله بذل السماح فاللهم إليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تكلمت من العبادات القولية عن أهم أنواعها وهما: الذكر والدعاء، ونستوفى فى هذا المقال إن شاء الله الكلام على بقية الأنواع.

فمنها الاستغاثة: ومعناها طلب الغوث والنجدة لتفريج كرب وإزالة شدة.

وهى لا تجوز إلا بالله - عز وجل - فيما لا يقدر عليه غيره، وأما ما يقدر عليه العباد فيجوز الاستغاثة بهم فيه إذا كانوا أحياء حاضرين، وقد جاء فى الحديث الصحيح (**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**).

وقد ورد القرآن الكريم بالنوعين معًا.

فمن النوع الأول الذى لا تجوز الاستغاثة فيه إلا بالله، قوله تعالى مخاطبًا المؤمنين وممتنًا عليهم بالنصر يوم بدر ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾.

وكذلك قوله تعالى بصدد تقرير وحدانيته وإبطال ألوهية ما سواه مما لا يملك لعابديه كشف ضر ولا تحويله ﴿**أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾.

ومن النوع الثانى قوله تعالى فى شأن كليمه موسى -عليه السلام- حين استغاثه الإسرائيلى لينصره على المصرى ﴿**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه...**﴾ الآية.

والفرق بين هذين النوعين من الاستغاثة يزيل كثيرًا من الإشكالات، فإن الاستغاثة كالسؤال، بل هى نوع منه، فلا يجوز بالمخلوقين إلا فيما يقدرون

عليه، كاستغاثة الفريق الذى أحاط به الموج بمن يملك إنقاذه. واستغاثة من تعرض له عدو وهو أقوى منه بمن يملك دفعه عنه. واستغاثة أصحاب الدار بالشرطة إذا دهمهم اللصوص. واستغاثة المريض بالطبيب فى تشخيص دائه ووصف العلاج المناسب له.

ففى مثل هذه الحالات كلها لا تكون الاستغاثة بغير الله شركًا، بل تكون من قبيل تحصيل الأسباب، التى أمرنا أن نجعل لها اعتبارًا فى السعى إلى حاجتنا ومطالبنا. لكن ينبغى أن لا يعول العبد على هذه الأسباب وحدها فإن ذلك ينافى التوكل على الله جل شأنه كما لا يصح أن يقصر فيها فيكون ذلك تواكلاً وتضييعًا، وبهذا البيان يعلم حكم الاستغاثة بالموتى والغائبين كما يفعله كثير من الناس الآن حين يستنجدون بالمشايخ أصحاب الأضرحة أو بشيوخهم الأحياء البعيدين، حتى أن الواحد من هؤلاء حين يمسه ضر، أو حين يريد أن يرفع حملاً ثقيلاً ينوء به، أو حين تتعسر امرأته فى ولادة، أو حين يشب فى بيته حريق ونحو ذلك لا يجد أمامه من وسائل الخلاص إلا أن يصيح باسم واحد من هؤلاء الشيوخ مستغيثًا به معتقدًا أنه حى فى قبره، وأن يسمع نداءه على العبد، وأن سينهض لإغاثته يجر أكفانه. وقد يتفق حينئذ أن يفرج الله ما نزل به من كرب فسرعان ما ينسب ذلك إلى من استغاث به من شيخ ميت أو غائب. ناسيًا أن الذى خلصه من شدته ونجاه من كربه ليس إلا ربه اللطيف الخبير الرحمن الرحيم، كما قال تعالى: ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**﴾.

وقد لفت الرسول ﷺ أصحابه إلى ما فى الاستغاثة بغير الله من معنى الشرك فقال لهم حين جاءوا يستغيثون به من منافق كان يؤذيهم: (**إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله - عز وجل -**).

وفى حديث مانعى الزكاة يقول -عليه السلام- ما معناه (**لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، فيقول: يا محمد أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك**).

• الاستعاذة •

ومنها الاستعـاذة ومعناها طلب العوذ وهو الحماية قال ابن كثـير - رحمه الله - (هى الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر والعياذ يكون لدفع الشر).

وهذا المعنى لا يجوز بالنسبة للمخلوقين أصلاً فلـيس لأحد أن يستعيذ بغير الله جل شأنه ولا أن يلتجىء إلا إليـه، وكل الآيات والأحاديث الواردة فى هذا الباب لم يجىء فيـها استعاذة بمخلـوق بل كلها صريحة فى إخلاص الاسـتعاذة بالله جل شأنه، قال تعالى فى سورة النحل: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾** وقال فى سـورة المؤمنون: **﴿وقل رب أعوذ بك مـن همزات الشيـاطين وأعوذ بك رب أن يحـضرون﴾**. وقال فى سـورة غافر: **﴿إن الذين يجادلون فى آيات الله بغـير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كـبر ما هم ببالغـيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾** وقال فى سورة فصلت: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فـاستعذ بالله إنه هو السـميع العليم﴾**. وقال سبـحانه فى المعوذتين اللتين فى آخر المصحف واللتين لم يتعوذ متعوذ بمثلهما **﴿قل أعوذ برب الفلق﴾**- و**﴿قل أعوذ برب الناس﴾**.

ولـم ترد استعاذة قط على لسان أحد من الأنبياء أو الصالحين بغير الله رب العالمين.

فـموسى -عليـه السلام- لما راجـعه قـومـه فى شأن البـقرة التى أمـرهم بذبحها: **﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾**.

وأم مريم علـيها السـلام لما ولدتها وأعـتذرت إلى الله من كونـها أنثى لا تصلح للخدمة فى بيت المقدس قالت: **﴿وإنى أعيذها بك وذريتـها من الشيطان الرجيم﴾**.

ونوح -عليه السـلام- لما عاتبـه ربه على سؤاله ما لا عـلم له به من نجاة ولده الكافر **﴿قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم﴾**.

ومريم حين تمثل لها جبريل -عليه السلام- بشرًا سويًا وخشيت أن يكون قد قصد بها سوءًا ﴿**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا**﴾.

وقد حكى الله عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن وألموا قولهم فى شأن من كان يشرك فى الاستعاذة من الإنس ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا**﴾.

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر يخاف فيه على نفسه يقول أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه: يريد كبير الجن. فلما رأى الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم زادوهم رهقًا أى خوفًا ورعبًا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم.

وقد وضع النبى ﷺ لأمته بدلاً من هذه الاستعاذة الشركية استعاذة فيها التجاء إلى الله وتحصن بكلماته التامات فقال ﷺ: (**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك**) رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التى لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها استعاذة بمخلوق وذلك شرك).

وبهذا يعلم أن ما يفعله كثير من النساء وأشباه النساء الآن من استرضاء الجن بإقامة حفلات الزار ونحوها وما يصحب ذلك من عربدة ورقص واختلاط الرجال بالنساء وذبح الذبائح باسم الجن والتزيى بالأزياء التى يزعم الوسطاء أن الجن يطلبونها كل ذلك داخل فى باب الاستعاذة بغير الله وكله عن الشرك الذى يبرأ منه الإسلام.

• عود على بدأ •

وإذا كان الدعاء من بين العبادات بهذه المنزلة من الأهمية والاعتبار حتى جعله الرسول ﷺ هو العبادة أو مخها، فلا غرو أن يحتاط له الإسلام حتى

يبقى خالصًا لله وحـده، بعيدًا عن شوائب الوثنية والاشتـراك. فجاءت نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهـرة مصرحة بوجوب الإخلاص فى الدعـاء، وناعية على من يدعون مع الله غـيره إفكهم وضلالهم، وضـاربة الأمثال المبـينة لحالهم الشنيعة والمنفرة لكل ذى لب من التردى فى تلك الهوة السحيقة.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستوعب هذه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، فلا أقل من أن نذكـر طرفًا منها لـيكون أنموذجًا لبقـيتهـا. وليكون حجة دامـغة لهؤلاء المنحرفـين الذى استجراهم الشيطان ولبس عليـهم دينهم، وخدعهم عن أنفسـهم حتى رضوا لها الهـوان والضعة والوقـوف فى ذلك واستكانة بين يدى أجداث من الخشب والحديد، يناجونها مناجاة الحى للحى، ويدعونها فى كل ما يهمـهم من الأمور، ويعولون علـيها التعـويل كله. حتى ربما تركـوا الأخذ فى الأسبـاب التى وضعـها الله - عـز وجل -، اتكالاً على معـونة هذه الأحداث وتدبيرها. يقول الله تعالى فى آخر سورة الاعراف: ﴿**إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بهـا أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمـعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون. إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعـون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفـسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾.

ففى هذه الآيات الكريمة يـخبر الله -سبحانه- عـمن يدعوهم الناس من الموتى المقبورين وصـورهم بأنهم ليسوا إلا عبادًا لله أمـثال الداعين لهم، وأنهم مهما بالغـوا فى دعائهم فلن يستجيبوا لهم بشـىء إذ كانوا عن دعائهم غافلين. ثم يبين سبحانه ما صاروا إليـه من فقد الأعضاء والآلات التى كانوا يملكون بها الفعل، لا أرجل تمشى ولا أيد تبطش ولا أعينًا تبصر ولا آذانًا تسمع، ثم يتهكم بهم فيأمرهم أن يدعوها لكى تظاهرهم فى الانتقام والكـيد لمن يشتمها ويحقرها بلا مهلة ولا تأخير.

ثم يعلنهم بالبراءة من هذه الآلهة الباطلة، وأنه لا يتخذ شيئًا منها وليًا يلوذ

به ويتوكل عليه. وإنما وليه الحق هو الله الذى نزل الكتاب، داعيًا إلى عبادته وتوحيده هو يتولى عباده الصالحين. كر على آلهتهم مرة أخرى، فبين أنها أعجز من أن تنصر من استنصر بها ولا تستطيع نصر نفسها ممن أرادها بسوء وتحطيم.

ويقول -سبحانه- فى آخر سورة يونس -عليه السلام- **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾**.

ففى الآية نهى صريح عن دعاء غير الله مما لا يملك لداعيه نفعًا ولا ضرًا، وتسجيل الظلم العظيم على كل من فعل ذلك، حتى ولو كان هو رسول الله المخصوص بغاية القرب والتكريم، وفى الآية الثانية يبين سبحانه عدم جدوى هذا الدعاء، فإن الداعى لغير الله إما أن يطلب منه كشف ضر نزل به، أو إنزال ما يتمناه من خير، ولا يكشف الضر إلا الله، ولا يصيب بالخير سواه، ولا يستطيع أحد أن يحبس فضله عمن يريد إصابته من خلقه، فماذا بقى إذًا لهؤلاء الذين يدعوهم الناس من دون الله، وماذا عندهم مما يخاف أو يرجى حتى نهرع الجموع إليهم طالبين مستغيثين، ويقول جل شأنه فى سورة الرعد **﴿له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾**.

فأخبر سبحانه عن نفسه بأن له وحده دعوة الحق، أى التى حققها صاحبها ولم يضيعها لأنه دعا من هو حقيق بالدعاء، ومن هو قادر على إجابته، بخلاف هؤلاء الذين يدعوهم الناس من دونه، فإن دعوتهم باطلة لم تقع موقعها، بل ضيعها صاحبها حين رجا غير مرجو، وأمل من ليس أهلاً لتأميله، فحال داعيهم فى عدم انتفاعه، وعدم استجابتهم له، كحال رجل اشتد به العطش فعمد إلى نهر ليشرب منه، ولكنه بدلاً من أن يتناول الماء بيديه ويوصله إلى فيه، اكتفى بأن يبسط كفيه إلى الماء منتظرًا بلوغ الماء إلى فيه، وليس ببالغه أبدًا، فكذلك هؤلاء أضاعوا دعاءهم حين توجهوا به إلى غير الله، فقصر بهم عن بلوغ ما طلبوا،

كما قصرت حال هذا الباسط كفيه به أن ينال من الماء حاجته.

فما أروع هذا المثل القرآنى، وما أجدر أن يتأمله هؤلاء الحيارى المتهوكون، لعلهم أن ينتهوا عما هم فيه من عمى وضلال.

ويقول عز من قائل فى سورة النحل: **﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون﴾**.

فبين سبحانه أنه لا ينبغى أن يدعى إلا الخالق الحى، لأنه هو الذى يسمع داعيه ويقدر على الاستجابة له، وليس ذلك إلا الله جل شأنه. وأما هذه الآلهة التى تدعى من دونه، فإنها لم تخلق شيئًا بل هي مخلوقة، وهم كذلك أموات لا حياة فيهم، ولا يدرون متى يكون قيامهم من قبورهم، فكيف يدعى من هو متصف بالعجز والغفلة، وهما من أشد الصفات منافاة لإجابة الدعاء، وصدق الشاعر الذى يقول:

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ويقول جل شأنه فى سورة بنى إسرائيل: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذورًا﴾**.

نزلت هذه الآية فيمن يدعو المسيح وأمه وعزيرًا والملائكة، كما روى عن بعض السلف، فقيل لهؤلاء: أن الذين زعمتموهم آلهة مع الله مهما دعوتموهم فلن يملكوا إزالة الضر عنكم ولا تحويله، أى نقله عنكم إلى غيركم، وأنهم عباد لله مثلكم يطلبون القرب إليه بطاعته كما تطلبون، ويرجون رحمته كما ترجون ويخافون عذابه كما تخافون، فكيف يليق أن يدعو بعد عبدًا؟ وكيف يرجى أو يخاف من هو راج وخائف؟ وكيف نمد اليد بالسؤال إلى طالب محتاج؟.

ويقول -سبحانه- فى سورة سبأ : **﴿قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا**

يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾.

فنفى الله سبحانه فى هاتين الآيتين كل ما يمكن أن يتذرع به المشركون فى دعائهم لغيره، فنفى عنهم أولاً ملكيتهم لأقل شيء وأحقره. وهو مقدار الذرة فى السموات أو فى الأرض، ثم نفى عنهم ثانيًا أن يكون لأحدهم شركة مع الله فى شيء منهما، ثم نفى عنهم ثالثًا أن يكون لله منهم ظهير يعاونه فى الخلق أو التدبير، ثم نفى عنهم، رابعًا أن يكون لهم عند الله شفاعة نافعة إلا بعد إذنه ورضاه، فانظر كيف سدت هاتان الآيتان أبواب التعللات كلها فى وجوه القبوريين حتى لم يبق لأحد عذر بعد هذا البلاغ المبين، ولكن من يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم.

وإذا كانت آيات الكتاب العزيز قد تضافرت هكذا على وجوب الدعاء لله سبحانه، والتوجه إليه وحده رغبة ورهبة، فقد جاءت السنة المطهرة بتأكيد ذلك المعنى وتشديد النكير على كل من يجعل لله ندًا، يتوجه إليه فى دعائه، ويطلب منه مالا يقدر عليه غيره. ومن ذلك الحديث المشهور عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «**كنت خلف النبى ﷺ فقال لى يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك طويت الصحف وجفت الأقلام**».

وفى الصحيح عن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال: سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم؟ فقال: (**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**) ومعنى الند المساوى الذى يجعل له من الحق فى الدعاء والعبادة مثل ما لله - عز وجل -.

وقد جاء فى حديث آخر: «**سلوا الله فى كل شيء حتى فى شسع نعالكم وملح قدوركم ومن لم يسأل الله يغضب عليه**» وعلى الجملة فالدعاء من أعظم العبادات القولية والقلبية التى يجب إخلاصها لله جل ذكره. وهذا أمر معلوم

بالضرورة من دين الإسلام بل ومن كل دين بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، ولكن الشياطين تلبس على الناس فى هذه العبادة، وتزين لهم أن يتخذوا فيها الوسائط والشفعاء التى تقربهم من الله زلفى وترفع إليه أدعيتهم وحوائجهم. ومن جملة تلبيسه عليهم فى هذا الباب أن يقول لهم إنكم قد أسرفتم على أنفسكم فى ارتكاب الذنوب والمعاصى التى أبعدتكم عن الله - عز وجل - وجعلت بينكم وبينه حجابًا غليظًا فلا يعقل أن تفتح لكم أبواب السماء، ولا أن يستجاب لكم دعاء حتى تتوسلوا إلى الله فيه ببعض الصالحين من عباده. وبذلك صرفهم عن ابتغاء الوسيلة إلى الله بما شرعه هو وجعله وسيلة مقبولة عنده، لا ابتداع وسائل لم يأذن بها ولم ينزل بها من سلطان وينكشف ذلك التلبيس بأن اتخاذ الوسائط شرك والشرك من أعظم الذنوب المبعدة عن الله - عز وجل - فإذا كان ما دون الشرك من الذنوب مانعًا من إجابة الدعاء كان الشرك أولى بذلك لهذا أنكر الله على المشركين قولهم: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ وقولهم: ﴿**هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ قولاً من عند أنفسهم بلا حجة ولا دليل.

• شغب القبوريون •

وأما ما يشغب به القبوريون فى هذا الباب من آثار فلا يصح منها شيء اللهم إلا حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنه وقوله: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا فيسقون) على أن هذا الحديث حجة عليهم لا لهم فإن عمر -رضى الله عنه- لم يتوسل بذات العباس وشخصه وإنما توسل بدعائه، فإن التوسل بالذوات لو كان جائزًا لما عدل عمر ومن معه من المهاجرين والأنصار عن التوسل برسول الله ﷺ إلى التوسل بالعباس مع أن ذات رسول الله ﷺ أفضل قطعًا من ذات العباس وذاته ميتًا كذاته حيًا ولكن عمر أدرك أن ما كان يملكه الرسول ﷺ من الدعاء حال حياته فى الاستسقاء وغيره قد بطل بموته فقدم ألصق الناس رحمًا به وهو عمه صنو أبيه لينوب عنه فى هذا المقام وقد حفظ من دعاء العباس يومئذ قوله: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة وهذه نواصينا إليك

بالذنوب وأيدينا إليك بالتوبة) ولا أطيل الكلام فى هذا الموضوع أكثر من ذلك فإن الحق فيه أظهر من أن يخفى، ومن أراد الوقوف على جلية الأمر فيه فليرجع إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وغيره من علماء السنة الذين بسطوا القول فى هذه المسألة غير أنى سأنقل هنا - تتميمًا للفائدة - ملخصًا لما جاء فى رسالة (زيارة القبور) لابن تيمية من أحكام تتعلق بذلك الأمر عسى أن يعتبر بها أولئك الذين يرجون لهذه الضلالة فيفيئوا إلى الحق والهدى ويتركوا سبيل اللجاج. والعناد قال - رحمه الله - :

(وتفصيل القول أن مطلوب العبد إن كان من الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى مثل أن يطلب شفاء مرضه من الآدميين والبهائم أو وفاء دينه من غير جهة معينة أو عافية أهله وما به من بلاء الدنيا والآخرة وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه أو دخوله الجنة أو نجاته من النار أو أن يتعلم العلم والقرآن أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكى نفسه وأمثال ذلك فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله تعالى ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبى ولا شيخ سواء كان حيًا أو ميتًا اغفر ذنبى، ولا انصرنى على عدوى ولا اشف مريضى ولا عافنى أو عاف أهلى أو دابتى وما أشبه ذلك ومن سأل ذلك مخلوقًا كائنًا من كان فهو مشرك بربه.

• الاستنجاد بأصحاب القبور •

وأما من يأتى إلى قبر نبى أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبى أو رجل صالح وليس كذلك ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات.

(أحداها) أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه، أو يقضى دينه أو ينتقم له من عدوه أو يعافى نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله - عز وجل -، فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله منى ليشفع لى فى هذه الأمور،

لأنى أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، **فهذا من أفعال المشركين والنصارى فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم فى مطالبهم**، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** ثم يقال لهذا المشرك أنت إذا دعوت غير الله فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك وأقدر على عطاء سؤالك أو أرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وأن كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم، فلم عدلت عن سؤاله إلى سؤال غيره؟

وإن قلت هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته، فهذا هو القسم الثانى وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه ولكن تطلب أن يدعو لك فهذا مشروع فى الحى وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول ادع لنا ولا أسأل لنا ربك.

وأما القسم الثالث وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك، افعل بى كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء

وبعد فهل آن لهذه الأمة أن تتخلص من أوحال تلك الوثنية المدمرة التى تتمثل فى تلك الأقوال والأفعال المنكرة التى يرتكبها الناس عند أضرحة المشايخ من الاستغاثة بها، وطلب الحاجات منها، وتقبيل الأرض عندها، ووضع الخد عليها، والتزامها، وغير ذلك مما رجع بنا إلى جاهلية شر من الجاهلية الأولى. إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

• الحلف بغير الله تعالى •

وأتم الكلام على العبادات القولية بذكر أقوال تجرى على ألسنة الناس لا يلقون إليها بالاً، وهى معدودة من الشرك الأصغر وقد تكون شركًا أكبر بحسب حال قائلها وقصده.

ومن أفحش ذلك وأخطره وأكثره ذيوعًا بين العامة والخاصة: الحلف بغير الله - عز وجل - كأن يحلف أحدهم بالنبى ﷺ أو بالكعبة المشرفة أو بحياته أو بحياة أبيه أو يحلف بواحد من هؤلاء الشيوخ أصحاب الأضرحة حتى ترى الواحد منهم يحلف بالله فإذا أراد تغليظ اليمين ليحمل الناس على تصديقه شفع ذلك بالحلف بسيده فلان أو بشيخه فلان.

فقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: **(من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)** ولهذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه (لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أحلف بغيره صادقًا) وإنما عنى بذلك أن الحلف بالله كاذبًا وإن كان كبيرة من الكبائر فإن الحلف بغيره شرك، والكبيرة مهما عظمت فهى دون الشرك، وأهون منه، وإذًا فليس لمخلوق أن يحلف إلا بالله - عز وجل -، أو بصفة من صفاته كأن يقول، وعزة الله وقدرة الله وجلال الله، ونحو ذلك، ولكن الخالق سبحانه له أن يقسم بما يشاء من خلقه تنبيهًا لذى العقول إلى ما اشتمل عليه من دلائل القدرة وبالغ الحكمة وجسيم النعمة كقوله تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾ وقوله: ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم**﴾ وغير ذلك من الأقسام التى اشتمل عليها الكتاب العزيز.

وإنما كان الحلف بغير الله شركًا لأنه فوق ما فيه من تعظيم المحلوف به تعظيمًا بالغًا حد العبادة هو أيضًا متضمن إشهاده على صدق الحالف فيما يخبر به إن كان الحلف على شىء مضى، ولا شك أن الذى يملك الشهادة على ذلك هو من رآه أو سمعه وأحاط به علمًا وليس ذلك إلا الله - عز وجل -، فالحلف بغير الله فى هذه الحالة يكون معناه اعتقاد أن له من علم الغيب ما لا ينبغى إلا لله فيكون حينئذ قد جعله لله ندًا.

وإن كان الحلف على أمر مستقبل يكون معناه أنه يعاهد المحلوف به أن يقوم بما حلف عليه وهذا من جنس النذر الذى هو عبادة لا ينبغى إلا لله، وفيه كذلك معنى الاستعانة به على إتمامه، ولهذا إذا حنث ولم يوف: لزمته الكفارة فإذا كانت اليمين مطلقًا ماضية كانت أو مستقبلة متضمنة لمثل هذه المعانى التى هى

أدخل فى باب التعبد. لا جرم كانت مخصوصة بالله جل شأنه، وأما غيره فليس أهلاً لأن يحلف به لا على الماضى الذى لم يشهده لعدم علمه به، ولا على المستقبل لأن الحالف لا يجوز أن يلتزم نحوه بشىء ولهذا يفهم معنى الحديث فى كون الحلف بغير الله شركًا، ولكن الذين لا يعلمون يستهولون ذلك ويرمون من يقوله بالتشدد والمبالغة وذلك لأنهم اعتادوا الحلف بغير الله، وكثر جريان ذلك على ألسنتهم، حتى هان الأمر عليهم والله يقول: ﴿**وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم**﴾.

• أقوال شركية •

ومن ذلك أيضًا قول الرجل للرجل (ما شاء الله وشئت - وهذا من الله ومنك. وأنا بالله وبك ومالى إلا الله وأنت - وأنا متوكل على الله وعليك، وأنا فى حمى الله وحماك) ونحو ذلك بما يفيد اتخاذه ندًا لله سبحانه - فإن العطف بالواو هذه الكلمات يقتضى المشاركة ومساواة المعطوف للمعطوف عليه فى الحكم بحيث تكون مشيئته مساوية لمشيئة الله، وحمايته مساويًا لحمايته، وتوكله عليه مساويًا لتوكله على الله، ولا معنى للندية إلا ذلك.

أما إذا عطف بثم بدلاً من الواو فقال ما شاء الله ثم شئت فلا بأس، فإن ثم تقتضى تأخر المعطوف فى الرتبة عن المعطوف عليه فتنتفى المساواة. كما روى حذيفة -رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)**.

وروى النسائى بتصحيحه عن قتيلة الأنصارية رضي الله عنها أن يهوديًا أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت. وتقولون والكعبة، فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت.

وروى النسائى أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبى ﷺ: **(ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتنى لله ندًا قل ما شاء الله وحده)**.

وروى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا﴾ أنه قال (الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتى. ويقول: لولا الكلب لأتانا اللصوص. ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلانًا هذا كله به شرك).

فليتدبر العاقل هذا كله وليحذر من مزالق الشرك ومداخله وليبتعد عن كل ما يوهم الندية لله حتى يسلم له توحيده الذى هو رأس الأمر كله، وليكثر من قوله (اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم) حتى يكون قد برىء من الشرك كله. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

• العبادات البدنية •

وإذ قد فرغنا من الكلام على العبادات القلبية والقولية، وعرفنا ما قد يلابس هذه العبادات من معان شركية تؤدى إلى حبوطها، بل وتحيلها إلى أوزار وآثام تكون وبالاً على صاحبها. نريد أن نتكلم على نوع آخر من العبادات لا يتعلق بالقلب وحده ولا باللسان وحده ولكنه يجمع بين عمل اللسان والقلب والجوارح، وهو ما يسمونه بالعبادات البدنية.

وأهم هذه العبادات على الإطلاق هى الصلاة من حيث أنها أجلى مظهر للعبودية، وأوضح عنوان على التوحيد وقد ورد فى الحديث: (أن وجه دينكم الصلاة فلا يغبرن أحدكم وجه دينه) وفى صحيح مسلم من حديث الحارث بن عاصم الأشعرى (والصلاة نور) ولهذا ورد من التأكيد فى شأنها والتنبيه على عظيم خطوها ما لم يرد بالنسبة لعبادة غيرها. ويكفى دليلاً على هذا، أنها كانت أول فريضة فى الإسلام بعد التوحيد. وأن فرضيتها تمت فى السماء ليلة الإسراء من الله إلى رسوله ﷺ بلا وساطة وحى. وأنها لا تسقط عن أحد من المكلفين بعذر من مرض أو خوف أو سفر إلا عن حائض أو نفساء. بل أمر الله

بالمحافظة عليها حتى مع التحام الصفوف ومباشرة القتال فقال تعالى من سورة البقرة ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا** ﴾ وجعل المحافظة عليها والخشوع فيها أول خصال الإيمان وآخرها . فقال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون** ﴾ .

كما جعل التهاون فيها والتكاسل عن أدائها أبرز علامات النفاق وديدن الأشرار والفساق . فقال تعالى فى صفة المنافقين ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ وفى آية أخرى ﴿ **ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى** ﴾ وقال فى سورة مريم بعد أن ذكر المنعم عليهم بالهداية والاجتباء ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ وسمى الله تركها شركًا فقال من سورة الروم ﴿ **منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين** ﴾ وأخبر عن أصحاب اليمين أنهم ﴿ **فى جنات يتساءلون عن المجرمين . وما سلككم فى سقر** ﴾ فيجيبهم هؤلاء بقولهم : ﴿ **لم نك من المصلين** ﴾ بل ولا يقبل من مشرك توبة إلا بعد إقامتها قال تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين** ﴾ وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) وفى الحديث الآخر (والعهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) .

كما سمى أداءها إيمانًا لأنها أظهر علاماته قال تعالى : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس، لأنها نزلت فى شأن من ماتوا قبل تحويل القبلة .

• الصلاة دواء •

وقد أخبر الله عن الصلاة أنها دواء لكثير من أدواء النفوس ورزائل الأخلاق، مثل الهلع والحرص وحب الشهوات والجزع عند المصيبة، والغفلة عن ذكر الله، قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ وقال : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾ وقال : ﴿ **وأقم الصلاة**

لذكرى﴾. وكان النبى ﷺ إذا حزبه أمر، فزع إلـى الصلاة، ولقد كانت الصلاة أعظم شعارات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعظم ما يهتمون له من أعمـالهم، فـهذا إبراهيم خليل الرحـمن يقول فى دعـائه **﴿رب اجعلنى مـقيم الصلاة ومن ذريتى﴾** وهذا ولده إسمـاعيل يمدحـه القرآن بأنه (كـان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) وهذا عيسى بن مريم يقـول لقومه وهو يتحدث إليهم فى المهد ببراءة أمه **﴿إنى عبد الله آتـانى الكتاب وجعلنى نبيًـا. وجعلنى مباركًـا إينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا﴾**.

• الصوفية يزعمون أن الصلاة سقطت عنهم •

فأين هذا مما يزعم المخدوعون من الصوفـية أن الصلاة وسائر التكاليف قد سقطت عنهم لأنهم وصلوا إلى درجة من الشهود والمعرفة لا يحتاجون معها إلى أداء رسوم العبادات، ونسى هؤلاء الجـاهلون أن النبى ﷺ وهو فى مرض موته كان يخرج يهادى بين الرجلين من أصـحابه، حتى يدخل فى الصف، وأن آخر وصاة له ظل يرددها حتى تلجلج لسانه هى قوله: (الصلاة وما ملكت أيمانكم) وأن الله أمره أن يدوم على عبـادته حتى الموت بقوله: **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾** ونكتفى بهذا القدر فى بيان فضيلة الصلاة وعظيم خطرها فى الإسلام، لا سيما وأن هذا خارج عن مـوضوعنا. إذ ليس من غرضنا فى هذا البحث إلا بيان أنواع العبادات التى تعبدنا الله بهـا وما قد يداخل كلاً منها من ألوان الشرك التى تنافى توحيد الألوهية.

ولا شك أن الصلاة من جملة العبادات قد يـعرض لها ما يفسدها ويذهب بما يجب فيها من الإخلاص الذى هو روحها وروح العبادات كلها.

• الرياء هو الشرك الأصغر •

فمن ذلك مـثل الرياء وقد سمـاه الرسول ﷺ الشرك الأصغـر، وذكر أنه يدخل على القلب أخـفى من دبيب النمل كما يزين الـرجل فى صلاته لما يرى من نظر الناس إليـه، طلبًا للمـحمـدة والثناء. وقد ورد فى ذم الـرياء كثيـر من الآيات والأحاديث وأخبـر الله عنه أنه محبط للأعمال وأنه من خصـال المنافقين

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا﴾**.

وقال -سبحانه- من سورة هود -عليه السلام- **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾** وقد صح أنها نزلت فى المرائين. ومن ذلك أيضًا الصلاة عند القبور أو إليها بأن يتخذها قبلة فى الصلاة، وهذا العمل بمجرده حرام فقد صح عن النبى ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد وأخبر أنه كان سببًا للعنة اليهود والنصارى، ولا شك أن هذا الوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله لا يترتب إلا على ارتكاب أمر بالغ فى الحرمة.

• حكم التبرك بأصحاب القبور •

فكيف إذا انضم إلى هذا قصد التبرك بصاحب الضريح، واعتقاد أن الصلاة عنده أكثر ثوابًا وأرجى قبولاً، لما يتوهم من شفاعة صاحب الضريح فى قبول صلاته ومضاعفة الثواب عليها؟ لا شك أن هذا يكون شركًا صريحًا، لأنه جعل لغير الله مدخلاً فى قبول الأعمال أو ردها، كما هو حال هؤلاء العاكفين على أضرحة المشايخ ممن لا يحلوا لهم الصلاة إلا فيها. يوعدون ذلك من أعظم القربات، بل وقد يقيمون فيها الجماعات مع سماعهم لهذه الأحاديث التى تشدد النكير على اتخاذ القبور مساجد. ومن المضحك أن بعضهم يحمل النهى فيها على كراهة التنزيه. وبعضهم يحمله على ما لو صلى فوقها أو إليها ومنهم من يقول إنما ينهى عن بناء المساجد عليها لا عن الصلاة عندها، إلى غير ذلك من التأويلات السمجة التى يريدون بها تبرير جريمتهم النكراء وهيهات، فإن الأحاديث من الصراحة والوضوح بحيث لا تقبل هذا الروغان. وقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن روت الحديث (ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشى أن يتخذ مسجدًا) ولا شك أنها لم تكن تقصد بذلك الصلاة فوق

القبر الشريف ولا إليه، ولكن الصلاة عنده.

• حكم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة •

ومن ذلك شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة بقصد التقرب إلى الله تعالى بالصلاة فيه، فقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى) والنهى هنا عام بالنسبة لكل مكان يشد إليه الرحال بقصد التعبد، سواء كان مسجدًا أو غير مسجد. وهذا لا ينافى طبعًا شد الرحال لطلب العلم أو لصلة الرحم أو للتجارة ونحو ذلك مما لا يقصد للتعبد، وبهذا يعلم فساد قول من زعم من الصوفية، أن الاستثناء فى الحديث ليس من عموم الأمكنة بل من عموم المساجد، وذلك لكى يبرروا حجهم إلى أضرحة شيوخهم وحثهم، المطايا إلى أجداثهم مهما كلفهم ذلك من نفقة وجهد، جاعلين ذلك من أفرض الفرائض، حتى لقد يؤثرونه على حج بيت الله الحرام، ولا عجب فى أن تأليه الصوفية لشيوخها أمر واضح معلوم.

• الصيام من العبادات البدنية •

ومن العبادات البدنية كذلك الصيام، وهو فى لسان الشرع إمساك عن المفطرات من الطعام والشراب والجماع بنية صحيحة، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس. إيمانًا واحتسابًا لله - عز وجل -.

والصوم من أحب العبادات إلى الله سبحانه، ومن أجل ذلك اختاره ليكون مظهر الشكر له على نعمته العظمى بإنزال القرآن العظيم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعل الشهر الذى يقع فيه الصوم خير شهور السنة كلها، وجعل فيه ليلة هى خير من ألف شهر وسماها ليلة القدر.

ولا غرو، فالصائم وقد ترك طعامه وشرابه وهما مادة حياته، وهجر كل طيباته ومستلذاته، لا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، صار حقيقًا بالوعد الذى وعد الله به الصائمين وهو أن يتولى جزاءهم بنفسه كما جاء فى

الحديث القدسى الصحيح: (كل عـمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى).

ومعنى أن الصـوم وحده من بين سائـر الأعمال لله، أنهـا جميـعًا مظنة الرياء، ولا تخلو من أن يكون لـلنفس فيـها حظ، لأنـها أفـعال ظاهرة. وأمـا الصوم فمن قـبيل التروك، إذ هو كف النفس عن مشتهـياتها فهو عبـادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه لا يطلع عليـه غيره فكان أبعد عن الرياء. ولما كان خلو المعدة من الطعام بالصـوم سببًا فى تغير رائحـة الفم، جعل خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وشـبه الرسـول ﷺ الصائم برجل فى عـصابة ومعه صرة مسك فكلهم يجد ريح ذلك المسك.

والصوم كالـصلاة من العبادات التى لا يخلو عنهـا دين من الأديان، حتى تلك الأديان الوضعـية التى لم تتصل بسبب إلى السـماء، تعرض على أتبـاعها أنواعًا مختلفة من الصيام، قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**.

وذلك لأن الصوم فيـه من وسائل التربية وأسـاليب الرياضة النفسـية ما لا يتوفـر فى غيره من العـبادات. فهو يقـوى الإرادة ويقهر النفس الأمـارة بالسوء ويكفكف نوازع الشر، ويعود على الاحتمال بالصبر.

وهو كذلك انتـصار للجـانب الروحى الملائكى فى الإنسان على الحـيوان الرابض فيه، فالصائم يسمو على كل شهوة ويعافها من أجل أن الله أمره بذلك، وإذا عرف الإنسـان كيف يقهـر نفسه ويحـجزها عن مـحبوباتهـا من أجل غاية أسمى، فإنه يسـهل عليه بعد ذلك أن يقودها إلى كل مـا فيه نجاتها وسـعادتها، وأن يردها عن موارد الهلكة والشقاء فيسعـد بها وتسعد به ويعيش حياته حرًا لا تستعبده شهوة ولا يستفزة طمع ولا تضره فتنة.

ولعل هذا هو معنى الحـديث الصحيح : **(الصيام جنة)** إذ المراد أنه وقـاية لها من كل ما يدنسها ويوبقها ويهبط بها إلى حضيض الشهوات المؤثمة.

ولنكتف بهذا القدر فى بيان فضيلة الصوم، فإن الذى يعنينا هنا أيضًا هو التنبيه على ما قد يداخل هذه العبادة الشريفة من أنواع الفساد والبدع، فإن الشيطان لا يريد أن يدع عبادة من العبادات حتى يدخل عليها من وساوسه وتلبيساته ما يفسد على الناس معناها حتى لا يبقى حظه منها إلا كسراب بقيعة. فمن ذلك ما سوله لبعض المتصوفة من المبالغة فى الجوع والحرمان، حتى تراهم يصومون أيامًا وليالى متصلة، زاعمًا لهم أنهم إذا جاعوا ماتت فيهم الشهوات فتقوى عند ذلك أرواحهم وتصفوا نفوسهم وتتخلص من قيود الجسد، وليس هذا طبعًا صيام أهل الإسلام، ولكنه صيام عباد الأوثان من فقراء الهنود وأتباع بوذا وجماعات (النيرقانا).

• حكم من يحرم نفسه من طعام معين؟ •

وقد يمسك بعضهم عن أنواع معينة من الطعام كاللحوم ونحوها مكتفيًا ببعض النباتات أو الخبز القفار، مما يسبب لهم هزالاً فى البدن وفسادًا فى الخيال وسقمًا فى التفكير وضعفًا عن القيام بواجبات العبادة من الصلاة والجهاد ونحوها.

وقد يزيد فى التلبيس عليهم فيوهمهم أنهم لا يطيقون شكر هذه الأطعمة الدسمة والمآكل اللذيذة، فيجب أن يقتصروا على ما يستطيعون أن يقوموا بشكره. وقد روى للحسن -رضى الله عنه- أن رجلاً من هؤلاء الصوفية قال: (إنى لا آكل الخبيص لأنى لا أطيق شكره. فقال الحسن: ويح هذا الأحمق، وهل يطيق شكر نعمة الماء البارد؟).

• حكم الإسراف فى الطعام •

ومن ذلك أيضًا ما اعتاده كثير من المسلمين من الإسراف البالغ فى تناول الأطعمة المختلفة عند الإفطار بكميات هائلة لا تلبث أن تثقل على المعدة فتكسلهم عن الصلاة وتجلب لهم النوم وترهق أجسامهم أشد الإرهاق.

وهذا نتيجة للجهل بحقيقة الصوم والغرض المقصود منه، فإنه لم يشرع

لكى يجوع الناس طول النهار ثم يقوموا بتعويض ما فاتهم فى الليل؟ بل يجب أن لا يزيد الإنسان عما اعتاده فى غير رمضان إن لم يستطيع أن يقلل عنه. ولعل هذا الإسراف فى الأكل والشرب فى رمضان هو الذى جعل المسلمين لا يستفيدون من صوم شهرهم الفائدة المرجوة لصلاح أرواحهم وجسومهم.

• الحج من العبادات البدنية •

ومن العبادات البدنية: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو آخر فريضة فرضت فى الإسلام. ويزيد على الصلاة والصوم: أن فيه عنصر المال إلى جانب ما يشمل عليه من الأعمال والأقوال.

والحج رحلة إلى الله -تعالى- يقوم بها المسلم لينال بها إذا هو أداها على وجهها: طهارة لنفسه من أوزارها حتى يرجع كيوم ولدته أمه، ويفوز على ذلك برضوان الله وجنته. فالحج المبرور: ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء فى الحديث.

وكثير من الناس لا سيما أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لأنهم لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التى جعلها الله مناسك للحج، كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمى الجمار ونحو ذلك ويتساءلون عن الحكمة فيها. وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعة والأزكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد معنى الإسلام فيها صقلاً وجلاء وتشعرها بمعانى العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساغًا لدى هذه القلوب الشاردة الغافلة. ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعانى وإن كنا لا نرى ذلك واجبًا، فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به علم الحكمة فى ذلك أم لم يعلمها. فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة أعاذنا الله منها. فالحاج يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلى أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركًا وطنًا يحبه ومسكنًا يرضاه وأهلاً وأولادًا يخاف عليهم وتجارة يخشى كسادها، متحملاً مشقة السفر

وألم الفراق ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذى اختصه لنفسه وجعله أول بيت وضع لعبادته فى أرضه.

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتى يتأهب للقدوم على مولاه، فيتجرد من ثياب زينته ويتلفف بثياب العبودية المحضة إزاراً ورداء، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب. ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارناً ذلك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة له والملك، لا شريك لك، هذه الكلمات التى تفيض بمعانى التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد على ربه وإسراعه فى طاعته، وتخصه وحده سبحانه بأن له الحمد كله والنعمة والملك وتنفى عنه الشريك فى ذلك كله.

ثم هو بعد ذلك يلتزم فى تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان أصلاً، بل كل شأنه سلم وأمان فلا يقتل حيواناً حتى ولو كان من هوام الجسم ولا ينفر صيداً ولا ينتف شعراً ولا يغطى رأساً، متجنباً الرفث والفسوق والمراء والجدال إلى غير ذلك مما يخل بإحرامه، حتى يقدم مكة بلد الله الحرام فيبادر إلى أداء مناسك عمرته التى هى الطواف بالكعبة المشرفة والسعى بين الصفا والمروة ذاكراً فى طوافه وسعيه أنه فى جوار ربه الكريم الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، فيدعوه فى ذلة وضراعة أن يحط عنه أوزاره وخطاياه. ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصوراً يؤمها الناس من رعيتهم وغيرهم فى المناسبات المختلفة إعراباً عن ولائهم لهم، حتى ولو لم يكونوا هو موجودين فيها.

فماذا ينكر إذاً من وجود بيت الله فى أرضه يؤمه عباده الذين هم عباده إظهاراً لذل العبودية، وقياماً بواجب الطاعة، وتخفيفاً من أثقال الذنوب وطلباً للفضل والرحمة من الكريم المنان.

وهكذا كل أعمال الحج من السعى والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمى الجمار والذبح، لا تخلو كلها من معانى التعبد المحض والتزلف للسيد المالك جل شأنه، كما تتزلف الرعايا ملوكهم ولله المثل الأعلى.

• الحكمة من تقبيل الحجر الأسود •

أما تقبيل الحجر الأسود فإنه لا يخطر ببال مسلم أبدًا وهو يقبله أنه ينفع أو يضر، كما روى عن الفاروق -رضى الله عنه- أنه قال بعد أن قبله: (إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسـول الله ﷺ يقبلك. ما قبلتك) فنحن نقبله كما قال عمر اقتداء برسولنا ﷺ وهو -عليه السلام- لم يفعل ذلك من عند نفسه، بـل بوحى من ربه. فماذا إذًا فى تقبيل حـجر تعبدنا الله بتـقبيله فنحن نقبله عبادة لله لا عبادة للحجر.

• الحكمة من رمى الجمار •

وأما رمى الجمار فإن المسلـم يذكر عند الرمى أنه يرجم الشيطان الذى كان سببًا فى صرفه عن طاعة ربه، والذى يتسلط عـليه بإغوائه ووسوسته ليجعله من أصحاب السعـير. فكأن المسلم حين يرمى هذه الحصيات مكـبراً عند كل حصاة يريد بذلك أن يعلم مخـالفته لذلك الشـيطان الرجيم، حتى لا نصـير من جنده الخاسرين.

ويذكر عندئذ ما كان من أمر إبراهيم وولده إسمـاعيل عليهما السلام حين عرض لهما الشيطـان يريد قتلهما عن تنفيذ أمر الله فى ذبح إسمـاعيل فرجماه، فارتد خاسئًا مدحوراً.

فمـا أحرى الناس أن يتـدبروا هذه المعانى السـامية حـين قيامـهم بمناسك حجهم وعـمرتهم، حتى يشعـروا فيها بطعم العبـودية ولا يرين على صدورهم شىء من الشك فى حكمتها.

وما أحراهم كـذلك أن يذكروا ما فى الحج وراء هذه الفوائـد الروحية من فوائد اجتماعية عظيمة تتـمثل فى ذلك اللقاء والتعرف بين المسلمين الوافدين من شتى أقطار الأرض تظلهم جـميعًا رايـة التوحيد، وتؤلف بينهم أخـوة الإسلام حيث يتبادلون المنافع ويتشاورون فيما يهمهم من عظائم الأمور، مصداق قول الله تعالى لخليله إبراهيم ﴿**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين**

من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾.

• العبادات المالية •

والآن لم يبق من الكلام على توحيد الألوهية إلا عن العبادات المالية التى تعبدنا الله بها فى أموالنا من الصدقات والذبائح والنذور ونحوها، وهذا النوع من العبادات قد دخله من ألوان الشرك وصوره ما يصعب حصره، فإن كثيرًا من الناس يجهلون أن لله عليهم عبادة فى أموالهم التى هى من رزقة وفضله، وقد لبس عليهم الشيطان فى أمرها كما لبس عليهم فى غيرها بل أشد فألقى فى روعهم أن هذه الأموال إنما سيقت إليهم ببركة الشيخ (فلان) أو بسبب دعائه وشفاعته. وإنه هو القائم على حراستها وتنميتها فهى ستبقى ما بقى الشيخ راضيًا وهو لا يرضى طبعًا حتى يجعلوا له فى هذه الأموال نصيبًا مفروضًا. فتراهم ليسوا على شىء أحرص منهم على سوق هذه الأموال من النذور والذبائح إلى أضرحة هؤلاء المشايخ. وعلى شهود المهرجانات الشركية التى تقام لهم.

وإذا سولت لأحدهم نفسه أن (يأكل النذر) الذى نذره لواحد من هذه الأضرحة فإنه يبقى طيلة عامه متوقعًا للمصائب تحيق به على يد الشيخ صاحب النذر لا سيما إذا كان الشيخ غضوبًا كما تزعمه العامة فى (أبى العينين الدسوقى) فإذا جرى على هذا الآكل للنذر شىء من قدر الله - عز وجل -، من فقد مال، أو ولد، أو نحو ذلك، أيقن أن الذى أصابه إنما هو بسبب غضب الشيخ عليه لعدم وفائه بالنذر. وهكذا يعيش هؤلاء التعساء من عباد القبور فى هم ناصب وقلق واصب لأنهم لا يدرون مواقع الرضى والغضب من نفوس هؤلاء الموتى وأيهم أحق أن يرضوه وصدق الله إذ يقول: **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾**.

ونرى بعد هذه المقدمة الطويلة أن نكشف للناس عن هذه التلبيسات التى يلبس بها عليهم شياطين الإنس والجن وأن نقول كلمة الحق فى هذه المسائل إعذارًا إلى الله - عز وجل - ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن

بينة. ويكفينا فى هذا المجال أن نثبت أن هذه الأمور من جملة العبادات التى يتقرب بها إلى الله سبحانه، فإنه إذا ثبت ذلك علم قطعًا أنه لا يجوز صرفها إلى غير الله كما هو الشرط فى سائر العبادات. أما الصدقات فلا يشك مسلم فى أنها من أعظم القربات إلى الله - عز وجل - وقد قرنها الله بالصلاة فى كثير من آيات الكتاب الحكيم وجعلها من أعظم خصال الإيمان ووعد عليها بجزيل الثواب بل وسماها قرضًا ووعد عليه أضعافًا كثيرة.

• الصدقة •

ويطول بنا القول لو تتبعنا ما ورد فى شأن الصدقة من الآيات والأحاديث وهو أمر معلوم لكل من له المام بنصوص الوحيين ولكن الذى يحتاج للتنبيه عليه هو ما يعرض للصدقة من أعمال شركية تحبطها وتبطل ثوابها وذلك مثل الرياء، والمن بها على الآخذ، والاستطالة بها عليه. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾.

• الفقراء المجاورين عند الاضرحة •

ومن ذلك أيضًا أن تحرى بصدقته الفقراء المجاورين عند الأضرحة لما يلتمسه من بركة أصحابها، أو أن يقيم لهم بها موالد أو يشترى لهم بها أستارًا أو بسطًا أو سرجًا أو نحو ذلك مما تزين به هذه الأضرحة ظنًا منه أن تلك قرب يتقرب بها إلى الله - عز وجل - فلا يزداد بها من الله إلا بعدًا.

وهذه حال كثير من الناس لا يتحرون بصدقاتهم إلا هذه المواضع مما يدل على أنهم لم يقصدوا بها وجه الله بل إنما قصدوا إلى إرضاء أصحاب هذه الأضرحة بل قد يترك بعضهم الفقراء من ذوى قرابته أو أهل بلده ممن هم أحق بصدقته ويدفعها إلى من لا يستحقها من سدنة هذه الطواغيت والعاكفين عليها.

• حكم النذر •

وأما النذر فهو فى الأصل غير مشروع بل قد ورد النهى عنه. قال ﷺ (لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره وإنما يستخرج من البخيل).

ولكنه إذا نذر لزمه الوفاء وصار النذر حينئذ قربة وعبادة لا تنبغى إلا لله رعلى هذا يحمل قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه** ﴾ وقوله من سورة الحج : ﴿ **وليوفوا نذورهم** ﴾. قوله من سورة الدهر فى صفة الأبرار : ﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا** ﴾.

وفى الحديث الصحيح : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »، وبهذا يتبين أن ما ينذره بعض الجهلة لأصحاب الأضرحة من نقود وشموع ونحوهما هو نذر باطل وشرك صريح وأنه لا يلزم أحدًا الوفاء بهذا النذر إذ لا وفاء لنذر فى معصية الله -عز وجل-.

وقد روى أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إنى نذرت أن أنحر إبلاً بمكان كذا، فسأل النبى ﷺ عن هذا المكان هل كان فيه صنم يعبد؟ فقيل لا ثم سأل: هل كان يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية؟ فقيل لا. فقال للرجل: « أوف بنذرك فإنه لا وفاء بنذر فى معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم ».

ومن العجيب أنه قد صدرت فى هذا الموضوع عدة فتاوى رسمية وأذيعت عنه أحاديث كثيرة كلها مجمعة على بطلان هذه النذور واعتبارها شركًا ولكن الناس لا يزالون سائرين فى غوايتهم ومصرين على ضلالتهم لا يقبلون فيها لومة لائم، وقديمًا قيل: « حبك الشىء يعمى ويصم » وأما الذبح أو النحر فلا يشك مسلم كذلك فى أنه عبادة مأمور بها قال تعالى من سورة الأنعام: ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾، والنسك هنا معناه الذبح - وقال من سورة الحج: ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكًا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾.

• فصل لربك وانحر •

وقد أمر الله من تمتع بالعمرة إلى الحج أن يذبح ما استيسر من الهدى. وأوجب على من ارتكب شيئًا من محظورات الإحرام فدية من صيام أو صدقة أو نسك وقال تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر**﴾ فجعل الأمر بالنحر قرين الأمر بالصلاة، وقد ورد أنه ﷺ نحر فى حجة الوداع مائة بدنة وأنه كان يضحى يوم عيد الأضحى بكبشين أملحين، ولم تزل الأضحية واجبة على كل قادر عليها من المسلمين. فدل ذلك كله على أن الذبح عبادة يتقرب بها إلى الله -عز وجل- وفى الحديث أفضل الحج: (الثج والعج) والمراد بالثج صب الدماء وعلى هذا فمن ذبح ذبيحة وأهل بها لغير الله، أو قصد التقرب بذبحها لغيره، أو أطعمها الناس على اسم غيره كهذه الذبائح التى تذبح فى مولد البدوى وغيره فقد أتى عملاً فظيعًا من أعمال الشرك وضاهى أهل الجاهلية الأولى فى ذبحهم لآلهتهم على النصب وفى الحديث: «**لعن الله من ذبح لغير الله**».

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الشرك كلها ونستعيذ به أن نشرك به شيئًا ونحن نعلم ونستغفره لما لا نعلم، وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

• الأسماء والصفات •

فرغت من الكلام عن كل من توحيد الربوبية الذى هو اعتقاد أن الله - تعالى - هو رب كل شىء وخالقه ومليكه وأنه مدبر الأمر كله لا مدبر له غيره وأنه الرازق للعباد المتكفل بمصالحهم وأن الحكم كله لله لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مكره له على ما يريد. وتوحيد الألوهية الذى هو إفراده سبحانه بالعبادة وإخلاص الدين له وحده والبراءة من كل ما يعبد من دونه مما لا يملك لعابديه نفعًا ولا خيرًا ولا هدى ولا نصرًا ولا رزقًا ولا شفاء ولا غير ذلك من شئون الربوبية التى لا يستحق العبادة والتعظيم إلا من كان متصفًا بها وليس ذلك إلا الله وحده جل شأنه: والآن أنتقل إلى بيان النوع الثالث من التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات. ولهذا النوع من التوحيد أهمية خاصة لكثرة ما يقع فيه من اللبس. ولطالما احتدم حوله الجدل وثار النزاع بين الطوائف المختلفة. فهو بحق مدحضة العلماء ومزلة أقدامهم ومحك اختبارهم، كم ضل فيه من علماء أعلام وتاه فى تيهه كثير من أولى النهى والأحلام ولا سبب لذلك طبعًا إلا الجرى وراء الفلسفات الدخيلة والمذاهب الوثنية وإحسان الظن بها وتقديم ذلك على هدى الكتاب والسنة وقد عالجت هذه الموضوع فى كتابى المعروف (بابن تيمية السلفى) عند الكلام على المذاهب المختلفة فى الصفات. وفى شرحى للعقيدة الواسطية المعروف بالثمار الشهية. وقد ألفت فيه أخيرًا رسالة صغيرة بعنوان (مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية فى صفات الله تعالى) ولكنى مع ذلك لا زلت أرى أن الموضوع من الخطورة بحيث يحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتأكيد.

وقد رأيت أن أقتصر هنا على إثبات المذهب الحق ضاربًا صفحًا عن ذكر ما عداه من المذاهب سواء ما كان منها غالبًا فى الإثبات كمذاهب المشبهة والممثلة. أو غالبًا فى النفى والتعطيل كمذاهب الجهمية والمعتزلة والفلاسفة وإن

فيما كتبه شيخ الإسلام ابن تيميـة وتلميذه ابن القيم الجوزية رحمهما الله تعالى فى هذا الباب لغنية وشفاء فقد أوفيا فيه على الغاية إيرادًا للحجج والبراهين وردًا على المشاغبين والمعاندين وتركًا فى هذا الموضـوع من المؤلفات الصغيرة والكبيرة ما يعيا به الحصر فعلى طالب الهدى الرجوع إلى ذلك ليعلم أين يكون الحق فى هذا المضطرب الذى تتصارع فيه الآراء والأفهام.

ولقد رأيت أن أفتـتح الكلام فى هذا الموضوع بتلك المقدمة الـقوية الرائعة التى صدر بهـا شيخ الإسلام ابن تيمـية فتـواه الحموية، التى ألفهـا جوابًا على سؤال ورد إليه من حماه يقول فيها صاحـبه: (ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين فى آيات الصفات كـقوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ وقوله: ﴿**ثم استوى على العرش**﴾، وقوله: ﴿**ثم استوى إلى السـماء وهى دخان**﴾ إلى غير ذلك من الآيات - وأحـاديث الصفـات كقـوله ﷺ: «**إن قلـوب بنى آدم بـين أصبعين من أصابع الرحمن**»، وقوله: «**يضع الجبار قدمه فى النار**» إلى غير ذلك وما قالت العلمـاء فيه؟ وابسطوا القول فى ذلك مأجـورين إن شاء الله تعالى.
فأجاب الشيخ رحمه الله وغفر له.

الحمد لله رب العالمـين - قولنا فيها ما قاله اللـه ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصـار والذين اتبعوهم بإحسان وما قـاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وهذا هو الواجب على جميع الخلق فى هذا الباب وغيره.

فإن الله سـبحانه وتعـالى بعث محـمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليـخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحـميد وشهد له أن بعثه داعـيًا إليه بإذنه وسراجًا منيـرًا وأمره أن يقول: ﴿**هذه سبـيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**﴾ فمن المحال فى العقل والدين أن يكون السراج المنير الذى أخـرج الله به الناس من الظلمـات إلى النور وأنزل مـعـه الكتـاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فـيه. وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمـة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه

على بصيرة. وقد أخبر الله بإنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته.

محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه وما يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول.

فكيف يكون ذلك الكتاب ؟ وذلك الرسول؟ وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولاً؟

ومن المحال أيضًا أن يكون النبى ﷺ وقد علم أمته كل شىء وقال **(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك)** وقال فيما صح عنه أيضًا (ما بعث الله من نبى إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم) وقال أبو ذر: (لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء، ألا ذكر لنا منه علمًا) وقال عمر بن الخطاب (قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه) رواه البخارى ومحال مع تعليمهم كل شىء لهم فيه منفعة فى الدين وأن دقت أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم فى ربهم ومعبودهم رب العالمين الذى معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب. بل هذا خلاصته الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية. فكيف يتوهم من فى قلبه أدنى مسكة من إيمان أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام.

ثم إذا كان هذا قد وقع منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا فى هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذى بعث فيه رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين وغير قائلين فى هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع إلى أن يقول.

• السلف أعلم من الخلف •

(ولا يجوز أيضًا أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم) وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء فقد يعنى بها معنى صحيحًا.

فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى**﴾ وأن طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجارات وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التى مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا فى تصويب طريقة الخلف فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف فى الكذب عليهم والضلال بتصويب طريقة الخلف).

وإذا كان توحيد الأسماء والصفات يقوم كما ذكرنا على أن الله سبحانه مختص بما له من الأسماء والصفات، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وعلى وجوب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تمثيل ولا تعطيل. فإن هناك قواعد عامة فى هذا الباب يجب رعايتها حتى تكون بمنجاة من التورط فى ورطات الضلال التى وقعت فيها الفرق المختلفة. فمنهم من غلا فى الإثبات حتى مثل الله بخلقه، ووقع فى حمأة التشبيه. ومنهم من غلا فى النفى والتعطيل حتى أدى به ذلك إلى جحد الذات نفسها واعتبارها عدمًا لا وجود له ومنهم من أثبت الأسماء دون الصفات تحكمًا بلا دليل. ومنهم من أثبت بعض الصفات دون بعض، جريًا وراء وهم فارغ لا أصل له.

ولم يكن لهـذا الضـلال كله من سبب إلا الإعـراض عن هدى الكتـاب والسنة، والتصـرف فى نصوصـهما بالتـأويلات الفاسـدة، والجرى وراء الظنون الكاذبة، بدعـوى أنها عقليـات لا تقبل النقض، والقـول على الله سبـحانه بلا علم.

• أسماء الله تعالى •

أما تلك القواعد والأسس التى تجب ملاحظتها فى هذا الباب فهى:

أولاً: لا يصح أن يسمى الله -عز وجل- إلا بما سمى به نـفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، ولا أن يوصف كذلك إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فإن أسماء الله تعالى كلها توفيقية لا يجوز إطلاق شىء منها على الله فى الإثبات أو فى النفى إلا بإذن من الشرع.

وما لم يصرح الشرع بنفيه ولا بإثبـاته يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يريد به قائله، فإن أراد به معنى صحيحًا موافقًا لما ورد به النص قبل ولكن لا يعبر عنه إلا بألفاظ النصوص ولا يعدل عنها إلا لضرورة، وإن أراد به معنى فاسدًا وجب رده، والأصل فى ذلك أن معـرفة الله -عز وجـل- بأسمائه وصـفاته، هى من شئـون الغيب التى لا سبـيل إلى إدراكها بالعقـل وحده، فإن العقل لا يتـجاوز بقدرته نطاق هذا الوجـود الحسى الذى يمكن أن ينفذ إليـه من طريق الحواس. أما شئـون الغيب فلا مجـال له أن يحكم عليها مقـتضى أقيسـته وبراهينه. وإنما وظيفته أن ينظر فيـما جاءت به النصوص من أخبار هذه الغيوب فيثـبت ما أثبتته النصوص وينفى ما نفته، من غير أن يضيف من عنده شيئًا لا فى الإثبات ولا فى النفى. ومهما توهم العـقل أن صفة ما هى صفة كمال، لا يجـوز له إثباتها ما لم تكن ثابتة بالشرع ومهما توهم أن صفـة ما هى صفة نقص لا يجوز له نفيها ما لم تكن منفية بالشرع إذ لا عبـرة فى هذا الباب بوهم العقل فإنه قد أدى فى كثير من الأحوال إلى نفى كثير من صفات الكمال الثابتة بالكتاب والسنة.

ثانيًا: يجب أن يكون معلومًا أن الله -عز وجل- لا يمـاثل شيئًا من خلقه

ولا يماثله شيء، فكل ما ثبت له من الأسماء والصفات فمعناه يختص به لا يشاركه فيه أحد.

ثم قد يكون هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه أو بين صفاته وصفات خلقه، فهذه يجب أن لا توهم تشابها فى المسمى. فإن الاشتراك إنما هو فى محض الاسم وفى القدر المشترك الذى يدل عليه عند الإطلاق، وذلك لا يوجب مماثلة أصلاً بين الله -عز وجل- وبين من يسمى بهذه الأسماء أو بوصف بهذه الصفات من المخلوقين.

فتسمية الله تعالى قادراً لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد، وكذا تسمية عالمًا ومريداً وحيًا وسميعًا وبصيراً ومتكلمًا وغير ذلك من أسمائه الحسنى التى قد تطلق على غيره لا توجب أن علمهم كعلمه ولا إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته . . . الخ.

والأصل فى ذلك أن ما يوصف به العباد إنما يتعين ويتخصص بالإضافة فإن أضيف إلى الله كان معنى مختصًا به لا يليق بغيره، وإن أضيف إلى المخلوق كان معنى مختصًا به يتنزه الله -عز وجل- عن الاتصاف به.

وفى تقرير هذه القاعدة على هذا الوجه حل لإشكالات كثيرة، فإن الذين نفوا عن الله -عز وجل- ما يطلق على خلقه من الأسماء والصفات وتأولوا ما ورد فيها من الآيات والأحاديث، إنما فعلوا ذلك لتوهمهم أن إثبات هذه الأسماء والصفات يقتضى المماثلة بين الله وخلقه فعطلوا خوف التشبيه. ولو أنهم أدركوا أن لهذه الألفاظ إذا أطلقت على الله معانى أخرى غير التى تناسب المخلوق، لما وقعوا فى حمأة التعطيل، ولكن من يضلل الله فما له من سبيل. وبناء على هذه القاعدة العظيمة يمكن أن نثبت لله كل ما ورد به الكتاب العزيز من صفات الاستواء والمجىء والإتيان يوم القيامة والتكليم والنداء والمناجاة بأصوات مسموعة وحروف مفهومة. والرحمة والحكمة. والرضى والغضب. والمحبة والكراهة. واليدين والعينين والوجه أو غيرها وكذلك نثبت له ما وردت به السنة الصحيحة من صفات النزول إلى سماء الدنيا كل ليلة. والدنو من الحجاج عشية عرفة.

والفرح بتوبة عبـده حين يتوب والضحك وغيرها. ما دمنا نعـتقد أن كل ما ثبت لله من هذه الصفات هو غير ما ثبت منها للمخلوقين.

تكلمت فى الماضى عن قاعدتين من القواعد العامة التى تجب مراعاتها فى باب الأسمـاء والصفات، وهمـا أن أسماء الله -عز وجل- تـوقيفيـة لا يجوز إطلاق شىء منها على الله ما لم يرد به نص وأن الله سـبحانه يختص بما له من الأسماء والصفات، لا يشاركه فيـها أحد والآن أستكمل الكلام فى بقية القواعد فأقول:

• صفات الله تعالى •

ثالثًا: أن كل ما ثبت لله من الصـفات الوجودية فهو ثابـت له على جهة الكمال المطـلق الذى هو أقصى ما يمـكن من الأكملية، بحـيث لا يكون وراءه كمال آخـر ولا يمكن أن يعرض لها النقص بوجـه من الوجوه فهو سـبحانه له المثل الأعلى فى كل ما ثبت له من الأسماء والصفات، ولا يمكن أن يكون هذا المثل لأحد سواه فصفـاته وجدت كاملة من الأزل إلى الأبد، لم تكن ناقصة ثم كملت كمـا هو الحال فى صفات غيره. ولا يمكـن أن يطرأ عليها النقص الذى قد يطرأ على صـفات المخلوقين. فحـياته سبـحانه أكمل حيـاة لأنها من لوازم ذاته، فهى أقدم حياة وأدوم حياة وأقوى حياة. ولا يمكن أن تسبق بموت ولا أن يلحقها موت قال تعالى: **﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾**.

وفى الحديث: **(أعـوذ بعزتك لا إله إلا أنـت أن تضلنى، أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون)**.

وكذلك كل مـا تستلزمـه هذه الحيـاة الكاملة من الصفـات هو ثابت على أكمل وجـه وأتمه. فقدرته أكـمل قدرة لا يعجزها شـىء ولا يصيبهـا لغوب أو إعياء، وعلمه أوسع علم وأشمله، فهو محيط بجميع المعلومات لا يمكن أن يند عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وإرادته أتم إرادة فلا يـقع في ملكه إلا ما يريد، وسـمعـه وسع الأصوات

كلها مهما خفتت فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء. قال تعالى ﴿**وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى**﴾ وبصره أكمل الأبصار رؤية، فلا تغيب عنه ذرة مهما دقت، ولا يؤثر فيه بعد ولا يحجبه حيطان ولا أستار قال تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ وكلامه أتم كلام وأبلغه، فلا يمكن أن يكون فى كلامه خفاء أو قصور. قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة الله ربك صدقًا وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾ وهكذا الحال فى جميع الصفات، لا يجوز أن تثبت له إلا على هذا الوجه من الكمال، وأما ما نفاه الله -عز وجل- عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، فأن هذا النفى بمجرده ليس كمالاً، إذ الكمال لا يكون إلا أمرًا موجودًا، وأما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالاً إلا إذا تضمنت أمرًا وجوديًا.

ولهذا لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة نفى نقص عن الله -عز وجل- إلا ويراد به إثبات ما يضاده ذلك النقص من صفات الكمال، فنفى العجز فى قوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شىء) إنما هو لإثبات كمال قدرته. ونفى السنة والنوم فى قوله: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ إنما يراد به إثبات كمال حياته وقيوميته. ونفى الظلم فى قوله: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**﴾ إنما هو لإثبات كمال عدله وحكمته. وهكذا فى بقية الصفات.

ولهذا أيضًا لم يرد النفى فى الكتاب ولا فى السنة إلا مجملاً فى أغلب أحواله، كما فى قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شىء - هل تعلم له سميا**﴾ ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾.

وأما صفات الإثبات فيكثر ورودها على جهة الاستيعاب والتفصيل.

• صفات الله تعالى نوعان •

رابعًا: أن صفات الله تعالى نوعان: أحدهما : صفات ذات وهى التى تكون لازمة لذاته لا تنفك الذات عنها أزلاً، ولا يتعلق شىء منها بمشيئته

وقدرته. وذلك مثل صفات الحياة والعلم والقدرة والعزة والكبرياء والملك والمجد والعظمة والقوة ونحوها.

٢- وثانيهما صفات أفعال لا تكون لازمة لذاته بل يجوز خلو الذات عنها، وتعلق بها مشيئته وقدرته، فهو يحدثها سبحانه فى ذاته شيئًا بعد شىء حسب اقتضاء حكمته، ولكن ليس لما يحدث منها فى ذاته ابتداء بل تصدر أفرادها على التعاقب فى الوجود متسلسلة شيئًا بعد شىء دون أن تنتهى السلسلة، لا فى جانب الأزل، إذ لا ابتداء لها، ولا فى جانب الأبد حيث لا انتهاء لها. قال تعالى: ﴿**ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾ ولنضرب لذلك مثلاً بصفة الكلام، فإن الكلام منه صفة ذات وهو: قدرته تعالى على أن يتكلم متى شاء وكيف شاء، ولكن صدور الكلام منه بالفعل لا يكون إلا حادثًا بمشيئته وقدرته. إذ لا يعقل أن يكون كلم موسى فى الأزل وقاله له: ﴿**إنى أنا ربك فاخلع نعليك**﴾ بل كلمه حين جاء إلى الميقات كما قال تعالى: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه**﴾.

وكذلك صفة الإرادة، لا يعقل أن يكون أراد الأشياء كلها فى الأزل وإلا لوجدت كلها فى الأزل، بل كل مراد من المرادات إنما يقع بإرادة جزئية خاصة به كما قال تعالى: ﴿**إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ وهكذا فى جميع صفات الأفعال لا توجد أفرادها مجتمعة فى الأزل بل لا توجد إلا على التعاقب فيما لا يزال. وهذا البحث مبسوط فى كتابى (ابن تيمية السلفى) وفى كثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فليرجع إليه من شاء.

أسأل الله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

• الأسماء الحسنى •

الآن وقد فرغت من ذكر القواعد العامة التى يجب مراعاتها فى توحيد الأسماء والصفات، أرى من المفيد أن أقدم لإخوانى القراء شرحًا بسيطًا موجزًا

لبعض الأسماء الحسنى التى تدور كثيراً على الألسنة والتى قد تخفى معانيها على بعض، أو قد يحملها المعطلة النفاة فى معانى أخرى غير المعانى الظاهرة منها، لأنهم يتوهمون أن فى حملها على ظواهرها تشبيهًا لله -عز وجل- بخلقه.

وقد تضمن كتابى (الثمار الشهية. فى شرح العقيدة الواسطية) لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- شرح كثير من هذه الأسماء الحسنى. ولكننى مع ذلك لا أرى بأسًا بإعادة القول فيها على صفحات هذه المجلة تعميمًا للفائدة وزيادة فى التذكرة. فإن الأمر من الأهمية والخطر بحيث لا يستكثر فيه كلام. إذ أصل العلوم كلها ومحورها الذى تدور عليه هو العلم بالله وأسمائه وصفاته، فمن لا علم له بذلك أو نقص حظه منه. لم ينتفع بشىء من علمه: فأقول وبالله أستعين:

• اللـــــه •

(الله): علم على الذات الواجب الوجود المستجمع لسائر صفات الكمال التى لا تنبغى لأحد سواه، والتى يستحق عليها غاية الحمد والثناء، واختلف فى لفظ الجلالة هل هو اسم جامد أو مشتق، فقيل: إنه جامد غير مشتق من قبيل الأعلام المحضة التى لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها. واحتج أصحاب هذا القول بأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم بقدمه والقديم لا يجوز أن يكون له مادة وإلا كان مسبوقًا بمادته، والمسبوق بغيره حادث.

والصحيح أنه مشتق كغيره من الأسماء الحسنى التى وضعت للدلالة على معان قائمة بذاته تعالى ولكن اختلف فى مبدأ اشتقاقه. فقيل من يأله ألوهية بمعنى عبد عبادة، وقد قرأ ابن عباس -رضى الله عنهما-: ﴿ **ويذرك وآلاهتك** ﴾ أى عبادتك. ويقال بتشديد اللام يؤلّهه تأليهًا. إذا عبده أو اعتقد ألوهيته. وعلى هذا الرأى فهو إله بمعنى مألوه أى معبود كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين).

وقيل: هو مشتق من أَلِه بكسر اللام يأله بفتحها إلهًا كَوِله يَوله وَلهًا إذا تحير. وذلك لأن العقول تحار فى اكتناه سر جلاله وعظمتـــه. ولا تستطيع

الإحاطة بكل أسمائه وصفاته كما قال صلوات الله وسلامه عليه: (**سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**) وعلى القول بأنه مشتق يكون وصفًا فى الأصل، ولكن غلبت العامية فتجرى عليه بقية الأسماء الحسنى إخبارًا كقوله تعالى: ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾. وكقوله: ﴿ **قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾.

ونجرى عليه أوصافًا كقوله تعالى: ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة** ﴾ الآيات من آخر سورة الحشر. والفرق بين (الله) و (إله) أن الأول مختص به سبحانه لا يطلق على غيره لأنه علم عليه. وكان المشركون فى جاهلتهم يعرفون ذلك. قال تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ وقال سبحانه: ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون** ﴾ وأما الثانى وهو إله فيطلق على كل ما عبد بحق أو بباطل، ولهذا كانت كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تدل بصدرها على نفى كل معبود باطل والبراءة منه، وتدل بعجزها على إثبات وصف الألوهية لله -عز وجل- وحده. فهى مركبة من نفى وإثبات.

ولهذا كانت هى كلمة الإخلاص ومحور الإسلام التى أمر النبى ﷺ أن يقاتل الناس حتى يقولوها. فمن قالها فقد عصم دمه وماله بحقها. ولهذا أيضًا كانت أساس كل دعوة بعث بها رسول من عند الله كما قال تعالى ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ وكما قال سبحانه فى هذه السورة نفسها ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ فهاتان الكلمتان هما بمعنى لا إله إلا الله.

وقال تعالى من سورة الأنبياء: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ وما دام لفظ الجلالة كما قلنا علمًا على الذات المتصفة بسائر صفات الكمال المختصة بها، يكون مشتملاً على جميع الأسماء

الحسنى إجمالاً. وتكون هى بمنزلة التفصيل لذلك الإجمال، فمن قال (الله) فقد دخل فيه كل اسم سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ. وهذا هو السر فى أن الأسماء الحسنى كلها تجرى أوصافًا عليه لأنه متضمن لها مشتمل عليها. وبعض من يزعمون لأنفسهم أو يزعم لهم الناس التحقيق والمعرفة من الصوفية يؤثرون الذكر بلفظ الجلاله (الله) على الذكر (**بلا إله إلا الله**) مع أنه لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة ولا أثر عن أحد من السلف الذكر بلفظ مفرد. بل جميع الأذكار الواردة فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة هى جمل وعبارات تامة كسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. إلخ.

وما يحتجون به من قوله تعالى: ﴿**قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون**﴾ فهذا مما يدل على فرط جهلهم لمعانى كتاب الله -عز وجل-. فإن لفظ (الله) الذى أمر أن يقوله الرسول ﷺ ليس لفظًا مفردًا، بل هو جزء من جملة وقعت جوابًا عن الاستفهام السابق فى قوله تعالى: ﴿**من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ فأمر النبى ﷺ أن يقول لهم (الله) يعنى أن الله هو الذى أنزل الكتاب فهو بمنزلة قولك (زيد) لمن قال لك: (من عندك؟) أى عندى زيد.

ومن تلبس الشيطان عليهم فى هذا: أن من قال (الله) لم يخطر بباله الشريك فيسلم توحيده من المنازعة.

وأما من قال: (**لا إله إلا الله**) فقد خطر بباله غير الله وهو يشوش عليه توحيده! ونسى هؤلاء أن تمام التوحيد وكماله لا يكون إلا بقطع العلائق عن جميع الأغيار ووصلها بالله وحده، فإنك إذا قلت لأحد من الناس: (إنى أحبك) كان هذا إخبارًا بحبك له. وهو لا ينفى حبك لغيره، بخلاف ما لو قلت له: (لا أحب إلا أنت) فإن فيه إخبارًا عن إخلاصك الحب له، بحيث لا يتسع قلبك لسواه. ففرق بين هذا وهذا. ولهذا كانت (لا إلا إلا الله) أبلغ فى إخلاص التوحيد من قولنا مثلاً: (الله واحد) لأن الأولى لا تحتمل الاثنينية بوجه، بخلاف الثانية فإن فيها شائبة احتمال. والله أعلم.

• الـــــرب •

(الرب) قال الـراغب فى المفردات (الرب فى الأصل التـربية وهو إنـشاء الشىء حالاً فـحالاً إلى حـد التمـام، يقال ربه ورباه وربّبه. وقـيل: لأن يربنى رجل من قـريش خير مـن أن يربنى رجل من هوازن. فالرب مـصدر مـستـعار مـستـعـمل للفاعل، ولا يقـال الرب مطلقًـا إلا لله تعـالى، المتكفل لمصلحـة الموجودات.

وفى النهـاية لابن الأثيـر: (الرب مطلق فى اللغـة على المالك، والسيـد، والمدبر، والمربى، والقيم، والمنعم. ولا يطلق غيـر مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال: رب كذا).

من هذا وغيره يتبين إنَ للفظ الرب عـدة معان، فهو يطلق ويراد منه المربى للشىء الذى ينميـه بالتغذية، وينقـله من طور إلى طور حتى يبلغ غاية كـماله. ويطلق ويراد به المالك للشىء المدبر له وصاحب السيادة عليه.

ولا شك أن هذه المعانى كلهـا مما يصح أن تراد بلفظ الرب إذا أطلق على الله تعالى، فهو المربى عباده بنعمه تربية مادية بالأغذية والأقوات، وتربية روحية بإرسال الرسـل، وإنزال الكتب والشرائع. وهو أيضًـا: المالك للأشيـاء والقيم عليها، والمدبر لشئونها، والمتكفل بمصالحها وحفظها.

واسمه تعالى **(الرب)** من أصول الأسمـاء الحسنى التى تعتبر مـدار الكثير من هذه الأسماء. فهو متضـمن لصفات الخلق والرزق والملك والتدبير والحفظ، ونفوذ المشيـئة والحكم وغيرها من شئـون الربوبية المختصة به سبـحانه. والإقرار بربوبيتـه تعالى لكل شىء أمر مـركوز فى الفطر لا يكاد ينازع فـيه إلا مكابر أو مغـالط. كمـا حكى الله -عز وجل- عـن فرعون أنه قـال لموسى: **﴿وما رب العالمين﴾** وقد أجابه مـوسى عليه السلام بما يقربه فى نفسه، وإن جـحده لسانه، فقال له: **﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾**.

وكذلك أخبر الله سبحانه عن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ،

أنهم مع إشراكهم فى إلاهيته واتخاذهم الأنداد التى ساووها بالله تعالى فى استحقاق العبادة والتعظيم. كانوا يقرون لله بالربوبية المطلقة لجميع الأشياء، قال تعالى: ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله** ﴾.

وقال: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** ﴾.

• الرحمن الرحيم •

(**الرحمن الرحيم**) اسمان كريمان من الأسماء الحسنى، يدلان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة، وهى صفة حقيقية لله -عز وجل- على ما يليق به. فلا يجوز القول بأن المراد بها لازمها، كإرادة الإحساس ونحوه، كما تزعم المعطلة. واختلف فى سر الجمع بين هذين الاسمين الكريمين بعد الاتفاق على أن أولهما (**الرحمن**) أكثر مبالغة من الرحيم، فقيل المراد بالرحمن: الذى وسعت رحمته جميع خلقه فى الدنيا. وبالرحيم: الذى تخص رحمته المؤمنين فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾.

وقد ذهب العلامة ابن القيم -رحمه الله- إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات، وأما الرحيم فدال على تعلقها بالمرحوم، فهو الرحمن فى ذاته، الرحيم لعباده بالفعل بتلك الرحمة. ولعل مما يشهد لهذا، أن اسمه تعالى الرحمن لم يستعمل فى القرآن متعديًا بخلاف الرحيم. قال تعالى: ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيمًا** ﴾ وقال: ﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾.

وفى الحديث الصحيح: «**أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته**».

واسمه تعالى (**الرحمن**) من الأسماء المختصة به، فلا يطلق على غيره، ولهذا يقع فى ابتداء الكلام وتجرى عليه النعوت، كاسم الجلالة تمامًا.

قال تعالى: ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقال: ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن، قالوا وما الرحمن، أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفوراً** ﴾ وقال: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾.

قيل: كانت العرب لا تعرف اسمه تعالى (**الرحمن**) حتى رد الله عليهم بهذه الآية. ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية، لما قال رسول الله ﷺ لعلى: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم): لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. وفى بعض الروايات: لا نعرف الرحمن، إلا رحمن اليمامة.

وروى عن الحسن قال: (الرحمن اسم لا تستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى) والله تعالى أعلم.

• الأسماء التى هى مدار الأسماء الحسنى •

لعلك أيها القارئ الكريم لا تزال على ذكر مما بينته لك من معانى الأسماء الأربعة الكريمة التى هى مدار الأسماء الحسنى جميعها وهى (الله . الرب . الرحمن. الرحيم). ولعلك تحس من نفسك شوقًا الآن إلى معرفة معانى بقية الأسماء، لتملأ منها قلبك وتشرح بها صدرك، وتأخذ منها قوتًا ولوجدانك غذاء، وإنى إن شاء الله، وبمعونة منه وتوفيق، ملب رغبتك ومحقق سؤلك فيما يلى:

• الملك •

(الملك) قال الراغب: (الملك) هو التصرف بالأمر والنهى فى الجمهور وذلك يختص بسياسة العقلاء، ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء. وقوله: ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ فتقديره الملك فى يوم الدين، وذلك لقوله: ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ والملك الحق الدائم لله. فلذلك قال: ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ وقال: ﴿ **مالك الملك** ﴾ والملك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم.

وقال الحافظ ابن كثير (والملك) فى الحقيقة هو الله -عز وجل-. قال الله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام).

وفى الصحيحين عن أبى هريرة -رضى الله عنه- مرفوعًا: "أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله".

وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ اين المتكبرون؟**». وفى القرآن العظيم ﴿**لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار**﴾.

فأما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿**إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا**﴾ اهـ. واسمه تعالى (الملك) من الأسماء الأصول التى تدور فى فلكها كثير من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالى المتعالى مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

والخلاصة: أن الملك الآمر الناهى صاحب السلطان القاهر والمشيئة النافذة الذى يصرف أمور عباده كما يجب ويقلبهم كما يشاء سبحانه.

• القدوس •

(**القدوس**): هو المقَدَّس المعَظَّم المنَزَّه عن كل نقص وعيب.

فيدخل فى ذلك تنزيهه سبحانه عن كل ما يضاد صفات كماله التى وصف بها نفسه أو وصفه بها رسول الله ﷺ، من الجهل والعجز والموت والفقر والإعياء والتعب والضلال والنسيان والسفه والجور والسنة والنوم، إلى غير ذلك من صفات النقص التى يتنزه الله عن الاتصاف بها.

ويدخل فى ذلك أيضًا تنزيهه عن الشريك له فى ربوبيته أو ألوهيته، وعن الظهير الذى يعاونه فى خلق شىء من المخلوقات أو تدبيرها، وعن الشفيع الذى يشفع عنده بغير إذنه، وعن الزوجة والولد، وعن أن يكون له ولى من الذل والحاجة. تعالى الله عن ذلك كله.

ويدخل فيه أيضًا تنزيهه عن مشاركة أحد من الخلق له فى صفاته الخاصة به، بل يجب حفظ صفات كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات المخلوقين. فلا يقال مثلاً: علم الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإنه كما أن ذاته لا يشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا يشبهها صفاتهم، ومن قال بهذا، فإنه إنما يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده.

وكما يجب تنزيهه عن المماثلة لخلقه فى شىء من صفاته، يجب تنزيهه عن التعطيل والجحد لصفات كماله التى ثبتت بالكتاب والسنة.

فاسمه القدوس يتضمن لتنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقص، متصلاً كان أو منفصلاً وهو متضمن أيضًا لتعظيمه، فإن من برىء من صفات السوء والعيب، لابد أن يكون حائزًا لصفات الكمال والعظمة. بل إن إثبات الكمال والعظمة هو المقصود الأصلى من سائر التنزيهات، فإن التنزيه لا يراد لذاته بل يقصد به حفظ كماله سبحانه عن الظنون السيئة كظن الجاهل.

وعلى الجملة فإذا قال العبد مثنيًا على ربه (سبحان الله) أو (تقدس الله) أو (تعالى الله) ونحو ذلك كان جامعًا بين الأمرين السلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

• السلام •

(السلام) ورد اسمه تعالى (السلام) عقيب اسم (القدوس) فى أواخر سورة الحشر قال تعالى: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾**، وفى الصحيح أنه ﷺ كان إذا سلم قال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» .

وفيه أيضًا: أنهم كانوا يقولون فى التشهد: «السلام على ربنا» فنهاهم النبى ﷺ وقال لهم: «إن الله هو السلام» . ومعنى اسمه تعالى «السلام» قريب من معنى اسمه القدوس، فإن معناه السلام من كل شائبة نقص، فيتناول سلامته سبحانه من الشريك والند والكفء والسمى، والظهير، والولى، والشفيع،

والشبيه، والنظير. . . إلخ ما ذكرناه آنفًا عند شرح «القدوس» . والسلام على هذا التفسير يكون صفة ذات .

وقيل معناه: الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الجنة كما قال سبحانه ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ وكما قال: ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾ وقيل معناه: الذى يسلم عباده المؤمنين من المعاطب ويحفظهم مما يسوءهم. وقيل معناه: الذى يسلم عباده من حيفه وظلمه، والسلام على هذه التفسيرات كلها يكون صفة فعل. والله تعالى أعلم .

• المؤمن •

اسم فاعل من قولهم: آمنه يؤمنه بمعنى أزال مخاوفه ومنه آمن به بمعنى صدق؛ لأن من صدقته فقد آمنته التكذيب والمخالفة، وإذا عدى لفعل آمن بالباء كان معناه التصديق بالخبر نفسه كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ وإذا عدى باللام كان المراد به تصديق المخبر كقوله تعالى: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ وقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ .

ويجوز إطلاق هذا الاسم على الله - عز وجل - بالمعنيين جميعًا إفادة الأمن أو التصديق، فبالمعنى الأول ما رواه الضحاك عن ابن عباس أنه هو الذى أمن خلقه أن يظلمهم، وبالمعنى الثانى : ما رواه قتادة أنه هو الذى آمن بقوله أنه حق، أو الذى يصدق عباده المؤمنين إيمانهم به، أو الذى يصدق رسله بالمعجزات الشاهدة بصدقهم فيما يبلغونه عنه. قال أبو حامد فى (المقصد الأسنى): «المؤمن هو الذى يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه وسده طرق المخاوف، ولا يتصور أمن إلا فى محل المخاوف، إلا خوف ولا عند إمكان العدم والنقص والهلاك، والمؤمن المطلق هو الذى لا يتصور أمن وأمان إلا ويكون مستفادًا من جهته، وهو الله تعالى .

والعبد ضعيف فى أصل فطرته، وهو عرضة الأمراض والجوع والعطش من باطنه وعرضة الآفات المحرقة، والفرقة، والجارحة، والكاسرة من ظاهره،

ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلا الذى أعد الأدوية دافعة لأمراضه، والأطعمة مزيلة لجوعه، والأشربة مميطة لعطشه، والأعضاء دافعة عن بدنه، والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته، ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد، والله تعالى هاديه إليها ومرغبه فيها .

والمؤمن من الأسماء المشتركة بين الله عز وجل، وبين خلقه. قال تعالى: **﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾** وقال: **﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾** وهو يطلق على المخلوق بكل من المعنيين أيضًا. فهو مؤمن بصدق ما يجب التصديق به من أخبار الله ورسوله ، ويقابله الكافر، وهو مؤمن بمعنى مزيل لأسباب الخوف المتوقعة من جانبه، فالناس يأمنون بوائقه، وقد يؤمنهم أيضًا مما يتوقعون من ظلم غيره وبطشه إن كان ذا عدل وسلطان .

وأحق العباد باسم المؤمن من كان سببًا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله، والإرشاد إلى سبيل النجاة، وهذه وظيفة الأنبياء والعلماء .

• المهيمن •

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - وغير واحد من السلف أى الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى أنه رقيب عليهم فهو كقوله: **﴿والله على كل شىء شهيد﴾** وقوله: **﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾**. وبالحق أن معنى المهيمن أوسع من معنى الشاهد فهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، باطلاعه واستيلائه وحفظه؛ لأنه لا يقال مهيمن إلا لمن كان مشرفًا على الأمر مستوليًا عليه حافظًا له، فالإشراف يرجع إلى كمال العلم، والاستيلاء على المال والقدرة والحفظ إلى كمال التدبير والرعاية، وهذه المعانى الثلاثة لا تجتمع لأحد على الإطلاق، وما الكمال إلا لله - تعالى - وحده .

وأما إخباره - تعالى - عن القرآن بأنه مهيمن على ما سبقه من الكتب، فمعناه كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما - وغيره: أنه أمين وحاكم عليها فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها باطل، والله تعالى أعلم .

• العـــزيـــز •

أى الموصوف بالعزة، وهى الغلبة والقهر للغير، والامتناع للغير، والامتناع ممن يريده. قال ابن كثير: «أى الذى قد عز كل شىء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه».

وأقسم - سبحانه - بها كما فى حديث الشفاعة: «وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله».

وأخبر القرآن عن إبليس أنه قال متوعداً بنى آدم ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**﴾.

وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - «بينا أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب، فجعل يحثى فى ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى لى عن بركتك». وفى حديث الدعاء الذى علمه النبى ﷺ لمن كان به وجع: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

والعزة تأتى بمعنى الغلبة والقهر من عز يعز بضم العين فى المضارع يقال: عزه إذا غلبه، وتأتى بمعنى القوة والصلابة، من عز يعز بفتحها. ومنه قولهم: أرض عزاز. وتأتى بمعنى النفاسة والقدرة، وعلو القدر من عز يعز بكسرها.

وهذه المعانى كلها للعزة، ثابتة لله - عز وجل - قال أبو حامد: «العزيز» هو الخطير الذى يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم تجتمع له هذه المعانى الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز. فكم من شىء يقل وجوده، ولكن لم يعظم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزاً، وكم من شىء يعظم خطره، ويكثر نفعه، ولا يوجد نظيره، ولا يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزاً، كالشمس مثلاً فإنها لا نظير لها، والأرض كذلك، والنفع عظيم فى كل واحد منها، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة؛ لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتها، فلا بد من اجتماع المعانى الثلاثة».

• الجبار •

صيغة مبالغة من الجبر، وهو يطلق بمعنيين أحدهما الإرغام والقهر، ونفوذ المشيئة، وعلى هذا يكون معنى الجبار الذى يجبر خلقه على ما يشاء بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يخرج عن قبضته وقهره، فما شاء كان، وإن لم يشاءوا، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءوا.

وثانيهما: إصلاح الخلل ورأب الصدع، من قولهم: جبر الله كسرك، ومنه سميت «الجبيرة» التى تشد على العضو المكسور، وعلى هذا يكون معنى الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .

• المتكبر •

قيل معناه: المترفع عن السوء والنقص، وقيل: المتعاظم الذى يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته. ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، كما جاء فى الحديث الصحيح: «**العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته**» ولهذا ورد أن الكبر شعبة من الشرك .

ولا متكبر بحق إلا الله - عز وجل - ؛ لأن رؤيته من دونه حقيرًا، بالإضافة إليه رؤية صادقة مطابقة للواقع .

وأما غيره فلا حق له فى التكبر؛ لأن زعمه العظمة والكبرياء لنفسه دون غيره، زعم باطل، ولهذا وردت الآيات الكثيرة فى ذم المتكبرين .

• الخالق البارئ المصور •

قال ابن كثير: «الخلق : التقدير، والبرء: هو الفرى، وهو التنفيذ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده، سوى الله - عز وجل - . قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفرى ما خلقت   وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى أنت تنفذ ما خلقت، أى قدرت بخلاف غيرك، فإنه لا يستطيع ما يريد، فالخلق التقدير، والفرى التنفيذ، ومنه يقال: «قدر الجلاد ثم فرى» أى

قطع ما قدره بحسب ما يريده، وقوله تعالى: ﴿**الخالق البارئ المصور**﴾ أى: الذى إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون على الصفة التى يريد، والصفة التى يختار، كقوله تعالى: ﴿**فى أى صورة ما شاء ركبك**﴾ ولهذا قال: المصور، أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها» .

والحاصل أن هذه الأسماء الثلاثة ليست مترادفة على معنى واحد، بل لكل منها معنى يخصه، وهى متكاملة لا بد منها جميعًا على هذا الترتيب، فالخلق أولاً لأنه تقدير الأشياء على إحكام واستواء، ثم البراء ثانيًا لأنه الإبرار والإيجاد على وفق التقدير السابق، ثم التصوير ثالثًا؛ لأنه اختراع صور الأشياء وترتيبها فى الوجود على أحسن الوجوه.

ويضرب الغزالى لذلك مثلاً بالبناء فإنه يحتاج إلى مقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن، ومساحة الأرض، وعدد الأبنية طولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى (بناء) يتولى الأعمال التى عندها تحدث حصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزين ينقش ظاهره ويزين صورته، ويتولاه غير البناء، فهذه هى العادة فى التقدير والبناء والتصوير، أن تقوم بها عدة أشخاص، وليس كذلك أفعال الله - عز وجل - بل هو وحده المقدر والموجد والمزين فهو الخالق البارئ المصور، والله أعلم .

• الغفار •

صيغة مبالغة من الغفر بمعنى الستر، ومنه سمى المغفر الذى يلبس فى الرأس عند الحرب؛ لأنه يسترها من الضرب، فمعنى الغفار الكثير المغفرة لذنوب عباده وسيئاتهم كما قال تعالى: ﴿**وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى**﴾ وقال: ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾ وهذه المغفرة تتسع لما شاء من الذنوب إلا الشرك بالله - عز وجل - فهو الذنب الذى لا يغفر والكسر الذى لا يجبر، قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا**﴾ وفى الحديث

القدسى: «**يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم**»، وفى الحديث الآخر: «**يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا غفرت ما كان منك ولا أبالى**» .

ولكن سعة هذه المغفرة يجب أن لا تجرئ العبد على معصية الله - عز وجل - بل يجب أن يكون على حذر، وأن لا يأمن مكر الله، فإنه لا يدرى إن كان ممن سيدخل بحبوحة المغفرة، أو مضيق المؤاخذة، فعليه أن يكثر من الاستغفار، ويقدم التوبة التى لا يبقى معها فى القلب عزم على العودة إلى الذنب أو الإصرار عليه، بل يكثر الندم والبكاء كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ .

والاستغفار الذى هو طلب المغفرة من أفضل الذكر، فهو اعتراف من العبد على نفسه بالتقصير والعجز المستوجب للمؤاخذة واعتراف منه بأنه كذلك لا يغفر الذنب إلا الله، ففيه إظهار لمنتهى الذل والعبودية مع الإقرار لله بعزة الألوهية، ولهذا ورد فى فضل الاستغفار كثير من الآيات والأحاديث ، وقد ورد أنه يجلو صدأ القلب كما يجلو الكير صدأ الحديد.

وفى الحديث الصحيح سيد الاستغفار أن يقول العبد: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة فى المجلس الواحد يقول: «اللهم اغفر لى وتب على، إنك أنت التواب الرحيم» .

• القهار •

صيغة مبالغة من القهر، وهو الإرغام والإذلال، بحيث لا يبقى للمقهور

مكنة للتخلص من آثاره، فهو سبحانه القاهر فوق عباده، يجبرهم على ما أراد ويجرى عليهم أحكامه القدرية، وسنته الكونية فى الإحياء والإماتة والبسط والقبض، والصحة والمرض، واللذة، والألم، والقدرة، والعزة، والذل، والإعطاء، والمنع، وغير ذلك مما لا يستطيعون منه فكاكًا، ولا له تبديلاً فلا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره وقدرته، عاجز فى قبضته.

وهو - سبحانه - يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه، فيديل لأوليائه منهم وينصرهم عليهم ويأخذهم فى الدنيا بالمثلات وعذاب الخزى، وفى الآخرة يضطرهم إلى عذاب النار، وبئس المصير.

وقد ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن دائمًا مقرونًا بكلمة التوحيد إشارة إلى أنه القاهر لعباده وحده، لا قاهر لهم سواه. قال تعالى على لسان يوسف - عليه السلام- في حديثه مع صاحبى السجن ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ . وقال الله - تعالى - من سورة ص ﴿**قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار**﴾ وقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿**لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار**﴾.

• الوهاب •

الهبة العطية الخالية عن العوض، فمن كثرت عطاياه بهذه الصفة يسمى جوادًا وهابًا، ولن يتصور الجود والعطاء والهبة الحقيقية إلا من الله - تعالى -، فهو الذى يعطى كل محتاج إليه لا لعوض، وهو مفيض الوجود على كل موجود، وكل ما بالعباد من نعمة فهى من فيض جوده، قال تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾، وقال تعالى: ﴿**لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء ذكوراً أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا**﴾ .

وقال تعالى على لسان الراسخين فى العلم: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾، وقال سبحانه على لسان سليمان بن داود - عليهما السلام- ﴿**رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب**﴾. وفى الحديث الصحيح: «**إن يمين الله ملآى لا تغيضها نفقة الليل والنهار ألم تروا إلى ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض مما فى يده**».

وفى الحديث القدسى: «**يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**».

والهبة تشمل النعم المادية المحسوسة من الأموال والبنين والحروث والأنعام وأنواع الرزق التى يتفضل الله بها على عباده، ويشمل الهبات الروحية وهو ما يجعله الله فى القلوب من الرحمة والمحبة والإخلاص والتقوى، وما يفتحه على عبده من الفهوم والمعارف التى يتخلص بها من ظلمات الجهل والضلال.

فنسأل الله أن يهب لنا من رحمته ما يرينا الحق فنتبعه، والباطل باطلاً فنتجنبه إنه ولى المتقين. ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

• الرزاق •

وهو اسم فاعل يدل على الكثرة فهو أبلغ من رازق، مأخوذ من الرزق بفتح الراء الذى هو المصدر، وأما الرزق بكسرها فهو اسم لنفس الشىء الذى يرزق الله به العبد، فمعنى الرزاق الكثير الرزق لعباده الذى لا تتقطع عنهم أمداده وفواضله طرفة عين، كما قال ﷺ: «إن يمين الله ملآى لا تفيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، ألم تروا إلى ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض مما بيده» أو كما قال.

والرزق كالخلق صفة الفعل المتعدية التى تقتضى رازقًا وهو شأن من شئون ربوبيته - عز وجل- التى تتناول أنواع التدبير المختلفة، من إحياء وإماتة، وقبض

وبسط ونحو ذلك. والحق في صفات الأفعال هي أنها تقوم بذاته - سبحانه-؛ لأنها صفات تأثير، والتأثير معنى يقوم بالمؤثر، ولكنها ليست لازمة للذات أزلاً وأبدًا، بل متعلقة بمشيئته وقدرته ما شاء متى شاء وكيف شاء، وهو يرزق كذلك عباده بما يشاء من أرزاق متى شاء وكيف شاء. وإذا أردت أن تصور لنفسك سعة رزق ربك ومبلغ فيضه وإحسانه، على قدر ما يطيقه عقلك الضئيل، ويسعه علمك القاصر، فتأمل كم من المخلوقات تعيش في البر من إنس وجن وحيوان وحشرات ووحش وطير؟ وكم من الأسماك والحيتان يحويها البحر؟ ثم تأمل كيف سواها ربنا - جل وعلا- وأعطى كل نوع منها الصورة التي هو عليها، ثم جعل لكل نوع منها ما يصلحه ويناسبه من غذاء ثم هداه إلى طلبه، وأعطى كلاً منها من الآلات والوسائل ما يمكنه من تحصيل قوته وجلب غذائه، ثم قدر في نفسك كم من ملايين الأطنان من الغذاء تحتاج هذه المخلوقات في كل وجبة طعام؟ إنه ولا ريب أمر يضل فيه الفكر، ولا يملك إلا الإذعان والتسليم بقدرة اللطيف الخبير، الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ومن آثار فضله ورحمته أن تكفل بتوصيل الرزق إلى ما يعجز عن تحصيل رزقه بنفسه لضعف آلته وقلة حيلته، فرزق الأجنة في بطون أمهاتها بأن أجرى لها من دم الأمهات غذائها، ثم ألهمها بعد الولادة أن تمص أثدائها فيجرى لها من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

وإذا كان الرزق شأنًا من شئون الربوبية ومظهرًا من مظاهرها، فلا يصح أن ينسب إلى غير الله - عز وجل - فلا يسمى غيره رازقًا كما لا يسمى خالقًا، قال الله - تعالى- في سورة الروم: **﴿الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**.

وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون. قال تعالى من سورة الأنعام: **﴿قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول**

من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾.

وقال من سورة يونس عليه السلام: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ويجعلون لما لا يعلمون نصيبًا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

وقال - سبحانه - في سورة العنكبوت على لسان خليله إبراهيم عليه وعلى نبينا وسائر الرسل والأنبياء الصلاة والتسليم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ويطول بنا القول لو أردنا استقصاء ما في الكتاب العزيز من آيات تدل على انفراده سبحانه برزقه خلقًا ولكن نختم ذلك بهذه الآيات الجامعة من قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح قوله تعالى: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. ياعبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد أجرى عادته أن يرزق العباد بعضهم من بعض، وأن يقسم بين الناس معيشتهم فى الحياة الدنيا، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، فلا ينبغى أن نتوهم من هذا أن أحدًا من العباد يرزق أحدًا، بل الأرزاق والمرتزقة وموصلها إليهم، وخالق أسباب التمتع بها فالواجب نسبتها إليه وحده وشكره عليها، فهو موليها وواهبها، كما كان ﷺ يقول إذا أصبح الصبح وإذا أمسى : **«اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك فلك الحمد ولك الشكر»**، وفى الحديث القدسى يقول الله - عز وجل - : **«إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر غيرى»** .

واعلم أن الرزق اسم عام لكل ما ينتفع به العباد من أرزاق مادية تحتاج إليها الأبدان فى نموها وحفظها من الأطعمة، والأقوات الحيوانية، والنباتية، وأنواع الأشربة. كذلك من ماء ولبن وعسل، وأنواع الملابس والأغطية والأثاثات التى تتخذ من الأصواف والأوبار والجلود والقطن والكتان والحرير. وقد استطاع الإنسان فى هذا العصر أن يرتقى كثيرًا فى هذه الناحية المادية ، وأن يستخرج كثيرًا من منافع الأشياء وخواصها، وأن يصنع من الآلات ما يسر له من سبيل العيش على الأرض، ووفر له كثيرًا من مطالبه وحاجاته. وأرزاق أخرى معنوية، وهى ما ينزله - سبحانه - من الشرائع والكتب على رسله من البشر لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم، وتكميل فطرهم بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة، وما ينزله كذلك على قلوب أوليائه من السكينة، وما يفتح عليهم من أبواب المعرفة به سبحانه، وبأنواع الحقائق التى تزيل عنهم غشاوة الجهل، وتبدد عنهم غياهب الخرافة والوهم .

ولا شك أن هذا كما يقول الغزالى: أشرف الرازقين فإن ثمرته حياة الأبد، وثمرته الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد. والله المتولى الخلق بالرزقين والمتفضل بالإيصال إلى كل الطريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر إنه بعباده لخبير بصير، والله سبحانه أعلم .

ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

• الفتـــاح •

وقد ورد فى القرآن مرة بلفظه فى قـوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿**قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم**﴾.

ومرة بصيغة التفضيل فى قوله تعالى من سورة الأعراف على لسان شعيب عليه السلام: ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾.

والفتح فى كلتـا الآيتين بمعنى الحكم وهو أحد المعانـى التى تستعمل فـيها هذه المادة، قال صـاحب «النهاية»: «فى اسم الله تعـالى الفتـاح هو الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وقيل معناه: الحاكم بينهم، يقال: فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما والفاتح الحاكم ، والفتاح من أبنية المبالغة» .

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية فى قصيدته «النونية»:

وكذلك الفتـــاح من أسمائـــه ... الفتـــح فى أوصـــافـه أمران

فتح بحكـــم وهـــو شرع إلهنا ... والفتـح بالأقـــدار فتـح ثان

والرب فتـــاح بذيـــن كليهـما ... عـدلاً وإحسـانًا من الرحمـن

ومعنى هذه الأبيات أن الفتح الذى هو صفة الرب جل شأنه تحته نوعان:

أحدهما: فتحــه بحكمه الدينى وهو هدايته لعباده وشـرعه لهم على ألسنة رسله جمـيع ما يحـتاجون إليـه من العقائد الصـحيحـة والشرائع المسـتقيـمة، والأخلاق الكريمـة، ويدخل فى هذا فتـحه الجـزائى بين الرسل والمكذبين لهم حيث ينجى الرسل وأتباعهم ويهلك ويخزى أعدائهم، وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفى كل عامل جزاء عمله.

والثانى: فتحه بحكمه القدرى، وهو ما يجرى على عباده مما سبق به قدره من الخير والشر، ومن النفع والضر، وأنواع الابتـلاء كما قال تعالى: ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فـلا ممسك لها وما يمسك فلا مـرسل له من بعده وهو العزيز**

الحكيم﴾ فهو سبحانه الفتاح العليم الذى يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه ويفتح على أعدائه أبواب نقمته وسخطه وذلك كله بفضله وعدله .

ومن أسمائه الحسنى :

• العليم •

وعلمه سبحانه محيط بالأشياء كلها ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها، أولها وآخرها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض.

وليس علمه سبحانه قاصراً على ما وجد أو ما يقدر وجوده من الممكنات، بل يعلم جميع الواجبات والممتنعات والممكنات ما وجد منها فى الماضى ، وما سيوجد فى المستقبل وما لم يقدر وجوده لعدم تعلق مشيئة الله به، أما الواجبات فإنه سبحانه يعلم ذاته الكريمة، وبقوته المقدسة التى لا يجوز انتقاؤها بحال، بل يجب وجودها فلا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه .

وأما الممتنعات فإنه يعلمها حال امتناعها ويعلم ما يترتب على وجودها فرضًا، كما أخبر سبحانه عن الآثار المترتبة على وجود آلهة معه فى قوله من سورة الأنبياء ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ فهذا فساد لم يقع؛ لأنه يترتب على شيء ممتنع وهو وجود إله مع الله، ولكن الله يعلم أنه لو وقع هذا الممتنع فرضًا لوقع هذا الفساد، ومثل ذلك قوله سبحانه وتعالى فى سورة المؤمنون : ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب لكل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾ فذهاب كل إله بخلقه وعلو بعضهم على بعض كان يترتب على وجود آلهة معه، بحيث لو حصل هذا فرضًا لحصل ذاك وعلمه سبحانه محيط بهذا وذاك، وأما الممكنات وهى التى يجوز فى العقل وجودها وعدمها فهو يعلم كما قلنا ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده .

وعلمه محيط بجميع العالم العلوى والسفلى لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، فهو يعلم - كما قدمنا - الغيب والشهادة، والظاهر والباطن، والجلى والخفى، ولا يطرأ على علمه سبحانه ما ينافيه من غفلة أو ذهول أو ضلال أو

نسيـان. كما قال تعـالى فى سورة طه على لسان كليـمه موسى عليـه السلام: **﴿علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾**.

وكما أن علمــه محيط بجمـيع ما فى العالم علويه وسفليـه من المخلوقات بذواتها وأوصـافهم وأفعـالها وجمـيع أمورها فهـو يعلم أيضًا ما كـان منها فى الماضى، وما يكون فى المستقبل الذى لا نهاية له، ويعلم ما لم يكن منها لو كان كيف يكون. ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد مـا يميتهم قد أحاط علمه بأحوالهم كلها خيرها وشرها، وجـزاء تلك الأعمال وتفاصيل تلك الأجزية فى دار القرار.

والدليل العقلى على علمه تعالى أمور:

أولاً: أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل بها؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد كما قال سبحانه: **﴿ألا يعلم من خلق﴾**.

ثانيًا: ما فـى المخلوقات من الأحكام والإتقـان وعجـيب الصنعة، ودقـيق الخلقة، يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير ذى علم.

ثالثًا: فى المخلوقـات من هو عالم، والعـلم صفـة كمـال، فلو لم يكن سبحانه عالمًا لكان فى مخلوقاته من هو أكمل منه.

رابعًا: كل علم فى المخلوقات إنما استفـاده من خالقه وواهب الكمال أحق به وفاقد الشىء لا يعطيه.

فسبحان من أحاط بكل شىء علمًا وقهر كل مخلوق عزة وحكمًا.

ومن أسمائه الحسنى - سبحـانه ما لا يذكر وحده منفردًا عن قرينه، بل لا يذكر إلا مقـترنًا به، وذلك مثل: « **القابض والباسط، والخـافض والرافع، والمعز والمذل، والضـار والـنافع، والمعطى المانع**» وذلك لأن الكمـــال لا يحـصل إلا باجتماعهما، فإذا أفرد أحدهما عن مقابلة فات هذا الكمال.

وهذه كلها صفـات أفعال متعـدية إلى الخلق تتعلق بها مشيـئة الله وقدرته على وفق علمه وحكمته، ولهـذا يعبر عنها كثيرًا فى القرآن بصيـغة الفعل كقوله

تعالى من سورة البقرة: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ وكقوله من سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ الْمُلْك تُؤْتى الْمُلْكَ من تَشَاءُ وتَنزعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وتُذِلُّ مَن تشَاءُ بيدكَ الْخيرُ إنَّكَ علَىٰ كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ﴾.

أما القبض والبسط: فيتعلقان بكل ما في شأنه أن يقبض أو يبسط، وذلك مثل الأرزاق، فهو سبحانه يفيض الرزق ويقدره على من يشاء من خلقه، ويبسطه ويوسعه على من يشاء، كما قال تعالى في سورة سبأ: **﴿قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾** .

وكقوله من سورة الشورى: **﴿له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾** وكقوله من نفس السورة: **﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾** .

ومنها قبضه سبحانه لأرواح العباد عند الموت، وبسطه لها فى الأجساد عند الحياة، فهو القابض والباسط لذلك على الحقيقة، وإن كان قد وكل ملائكة بإخراج الأرواح وتوفيها. كما قال تعالى: **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم﴾** ووكل ملائكة آخرين بنفخ الروح فى الأجنة، فإن هؤلاء الملائكة لا يفعلون إلا بإذنه وأمره كما قال تعالى **﴿وهم بأمره يعلمون﴾** .

ومنها قبضه الرحمة وإمساكها عمن يشاء، وبسطها وفتحها على من يشاء كما قال تعالى من سورة فاطر **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾**.

ومنها قبضة لقلوب أعدائه من الكفار والمجرمين .

فيضيقها حتى لا تتسع لقبول شيء من الخير والهدى، وبسطه لقلوب أحبابه وأوليائه بما يودعها من معانى صفاته وأسمائه ، قال تعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد فى السماء﴾**.

وأما الخفض والرفع: فهما كذلك يتعلقان بكل ما من شأنه أن يخفض أو

يرفع، فهو سبحانه يخفض أعداءه من الكفار والمجرمين بالإذلال والإهانة، والإشقاء والإبعاد. ويرفع أولياءه من المؤمنين المتقين بالتكريم والإعزاز والتقريب والإسعاد. قال تعالى: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ فهو سبحانه بيده الملك يخفض ويرفع، فلا رافع لمن خفضه الله ولا خافض لمن رفعه.

وهو المعز لأهل طاعته بالعز الحقيقى الذى لا يشوبه ذل، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيراً محروماً ليس له أنصار ولا أعوان، وهو المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلاً فى الدنيا والآخرة، فإن العاصى وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه فى الشهوات، فالعز كل العز فى طاعة الله - عز وجل- والذل كل الذل فى معصيته. قال تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾.

وهو سبحانه المانع المعطى، فلا معطى لما منع، ولا مانع لما أعطى.

ويجب أن يعلم أن هذه الأمور كلها تابعه لعدله وحكمته، وحمده، فإن له سبحانه الحكمة البالغة فى خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما أن له الفضل المحض على من رفعه، وأعطاه وبسط له فى الخير، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه - سبحانه - هو المنفرد بهذه الأمور كلها، وكلها جارية تحت أقداره، فإن الله جعل لرفعه وإعطائه وإكرامه أسبابًا، وجعل لضد ذلك من الخفض والإهانة والمنع أسبابًا، من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة.

وهذا يوجب على العبد القيام بتوحيد الله - تعالى - والاعتماد عليه فى تحصيل ما يجب، مع الاجتهاد فى فعل الأسباب النافعة، فإنها محل حكمة الله - تعالى- والله أعلم.

ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

• السميع والبصير •

وكثيراً ما يرد هذان الاسمان الكريمان مقترنين فى القرآن العظيم كقوله تعالى من سورة النساء: ﴿**إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعًا بصيراً**﴾، وكقوله من نفس السورة: ﴿**من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعًا بصيراً**﴾، وكقوله فى أول سورة المجادلة: ﴿**قد سمع قول التى تجادلك وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾.

والحكمة فى مجيئها هكذا مقرنين غالبًا، أن كلاً منهما دال على صفة من صفات الإدراك، فالسميع دال على صفة السمع التى تدرك بها المسموعات من الأصوات والكلمات.

والبصير دال على صفة البصر التى تدرك بها المرئيات من الأشخاص والألوان .

والسميع مبالغة من اسم الفاعل الذى هو سامع فمعناه الذى لا يعزب عن إدراكه مسموع مهما دق وخفى، بل يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء وما فى الأرض ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم**﴾.

وعن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ سمع قومًا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعوا أصم ولا غائبًا ولكن سميعًا بصيراً**» وسمعه تعالى نوعان:

إحداهما: سمع عام يتعلق بكل مسموع من الأصوات والأقوال لا يخفى عليه شىء منها سواء كان محبوبًا له أو مكروهًا مرضيًا عنده أمسخوطًا .

والثانى: سمع خاص يتعلق بالإجابة لدعاء الداعين وشكاية المضطرين

وضراعة المبتهلين. ومن هذا النوع قوله تعالى على لسان أم مريم عليهما السلام: ﴿**رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم**﴾ وقوله على لسان خليله إبراهيم عليه وعلى سائر الرسل أتم الصلاة وأزكى التسليم: ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء**﴾ فالسمع هنا في كلتا الآيتين إنما هو سمع القبول والإجابة للدعاء. ومنه أيضًا قول المصلي حين يرفع من ركوعه ﴿**سمع الله لمن حمده**﴾ استجاب له وقبل حمده.

والله - سبحانه - يصغي إلى بعض الأصوات ويحب سماعها، فقد جاء في الحديث الصحيح: «**ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت بالقرآن يتغنى به**» ومعنى أذن أصغي واستمع، وينبغي أن يعلم أن سمعه - تعالى - للأصوات إنما هو بصفة قائمة به، بها يدرك الأصوات والكلمات بينها، لا أنه يسمع بذاته كما تزعم المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات.

وروى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿**إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعًا بصيراً**﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه، والقصد من ذلك واضح لا خفاء فيه، وهو تنبيهًا على أنه - سبحانه - يسمع بسمع، ويرى بعين، كما نسمع بآذاننا، ونرى بأعيننا، لكن السمع ليس كالسمع ولا كالعين، إذ ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.

وسمعه تعالى يتعلق بصوت نفسه الذي هو غير مخلوق كما يتعلق بأصوات المخلوقين، فهو إذا قرأ القرآن بصوت نفسه سمعه كما يسمع غيره من كلامه، وإذا قرأه العباد بأصواتهم سمعه منهم كما يسمع غيره من كلامهم.

وأما البصير: فهو فعيل، بمعنى مبصر ومعناه الذي يشاهد كل شيء من المرئيات، ويراه فلا يعزب عنه ما تحت الثرى، ولا يحجب رؤيته جدار ولا أستار، ولا ينفع معها تخف ولا استتار. قال تعالى من سورة الرعد ﴿**سواء**

منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ يعنى أنه يستوى عند سمعه إسراركم بالقول وجهركم به، ويستوى عند بصره استخفاؤكم فى ظلمة الليل، وسروبكم أى ظهوركم بالنهار.

وقال تعالى مخاطبًا الكفار الذين كانوا يستترون بأعمالهم ظنًا منهم أن الله لا يراهم **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾** واعلم أن كلاً من السمع والبصر، وإن كان أزليًا بمعنى القدرة عليه، لكنه بالفعل حادث يتجدد فى ذاته - سبحانه - بحسب تجدد المسموعات والمبصرات، فهو إذا خلق المخلوقات رآها ويسمع أصوات عباده حين يتكلمون بها. قال تعالى: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾** وقال: **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾** وقال: **﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾**.

وقال فى شأن الرؤية: **﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾** **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾** **﴿وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين﴾** ومن الجهل الفاضح ما يزعمه أرباب الكلام من أن السمع والبصر قد تعلقا فى الأزل بكل مسموع ومبصر، إذ كيف يرى الأشياء قبل أن يخلقها، أم كيف يسمع الأصوات التى لم توجد بعد؟ بل الحق أنه كلما خلق شيئًا رآه وكلما حدث صوت سمعه .

وأشد من ذلك جهلاً وأعظم شناعة قولهم: إن كلاً من السمع والبصر متعلق بكل موجود، فكيف يتعلق السمع بما ليس من شأنه أن يسمع من الأشخاص والألوان، وكيف يتعلق البصر بما ليس من شأنه أن يرى من الألفاظ والأصوات.

فانظر إلى هذا الخلط العجيب بين الصفتين وتعديه كل منهما إلى وظيفة أخرى، كأنهم ظنوا أن قصر السمع على المسموعات والبصر على المبصرات

نقص ينافى الكمال، وهذا خيال فإن كمال الصفة إنما هو فى إحاطتها بمدركاتها الخاصة بها بحيث لا يفوتهـا شىء منها، وليس كمالها فى أن تدرك ما لا يدرك إلا بصفة أخرى، إذ لو كان الأمر كذلك لاستغنى بأحديهما عن الأخرى، ولم يكن هنا معنى لوجودهما معًا، والله تعالى أعلم.

ومن أسمائه الحسنى:

• الحكم •

وقد ورد ذكره فى القرآن فى قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿**أفغير الله أبتغى حكمًا وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً**﴾.

وهو أبلغ من الحاكم؛ لأنه يدل على تعيينه للحكومة واختصاصه كما يدل على خبرته بوجود الحكم ورضى كل من الخصمين بتحكيمه. قال الراغب ما ملخصه: «والحكم بالشىء أن تقضى بأنه كذا، وليس بكذا، سواء ألزمت غيرك أو لم تلزمه، قال تعالى: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ وقال عز وجل: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون**﴾ ويقال: حاكم وحكام لمن يحكم بين الناس. قال الله تعالى: ﴿**وتدلوا بها إلى الحكام**﴾ والحكم المتخصص بذلك، فهو أبلغ. قال الله تعالى: ﴿**أفغير الله أبتغى حكمًا**﴾ وقال عز وجل: ﴿**فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها**﴾ وإنما قال حكمًا تنبيهًا أن من شرط الحكمين أن يتوليا الحكم عليهم، ولهم وحسبما يستصوبانه من غير مراجعة إليهم فى تفصيل ذلك»اهـ.

وهذا النص من كلام الراغب يدل على أن الحكم هو الذى يحكم بلا مراجعة فى حكمه، ويكون حكمه ملزمًا يعنى أنه حكم مشفوع بالتنفيذ، ويدل عليه قوله ﷺ فى دعائه: «اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماضٍ فىَّ حكمك عدل فىَّ قضاؤك» فوصف حكمه سبحانه بالمضاء وهو النفوذ، قال الإمام ابن القيم: «وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء، فإن حكمه - سبحانه- يتناول حكمه الدينى الشرعى، وحكمه

الكونى القدرى، والنوعان نافذان فى العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه، ونفذا فيه شاء أم أبى. لكن الحكم الكونى لا يمكنه مخالفته، وأما الدينى الشرعى فقد يخالفه» .

وحكمه الكونى - سبحانه - يتمثل فى خلقه الأشياء على هذا النحو البديع المحكم، وفى إعطائه كل مخلوق صورته التى تؤهله للقيام بما نيط من وظيفة، وهدايته إلى ذلك. كما قال تعالى: ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ ويتمثل أيضاً فى وجوه التدبير المختلفة التى تجرى على نظام الأسباب والمسببات، وما بينها من روابط وعلاقات ثابتة، ولا تتحول، ولا تزول، كما قال جل شأنه: ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ ﴿ **ولا تجد لسنتنا تحويلاً** ﴾، وأما حكمه الدينى الشرعى فيتمثل فيما شرعه من شرائع تكفل لهم انتظام حياتهم الدنيا لما تتضمنه هذه الشرائع من قواعد العدل، ووضع حدود المعاملات وتفصيل الحقوق والواجبات.

كما تكفل لهم سعادة الآخرة إن هم قاموا بها كما ينبغى؛ لأنها متضمنة لكل ما يحبه الله ويرضاه .

وأما حكمه الجزائى فيتمثل فى الدنيا فى نصره للرسل وأتباعهم وجعل العاقبة لهم كما قال تعالى: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون** ﴾ وفى خذلانه للطغاة والظالمين وإنزال العذاب بهم، قال تعالى: ﴿ **وكذلك أخذ ربك أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ .

وأما فى الآخرة فيتمثل فى حكمه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفى إعطائه كل عامل جزاء عمله بلا ظلم، ولا تضييع، قال تعالى: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم**

يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾.

وبالجملة فحكمه – تعالى – متعلق بالمخلوقات والشرائع، وكلها فى غاية الإحكام فهو سبحانه الحكيم فى أحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية. والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع، أن القدر متعلق بما كونه وقدره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم القدرى، فإن فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعى؛ لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه، فالخير والشر ، والطاعات والمعاصى، كلها متعلقة وتابعة للحكم القدرى، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعى ومتعلقه .

ومن أسمائه الحسنى كذلك:

• العدل •

وهذا الاسم الكريم يجىء عقيب الاسم السابق؛ لأنه فى الحقيقة وصف له، يقال: (فلان حكم عدل) ومعناه الذى لا يميل به الهوى فيجور فى الحكم، وهو فى الأصل مصدر سمى به، فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه؛ لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً .

فهو – سبحانه – العدل فى وصفه، فإن العدل صفة ذاته من حيث إنه كمال يستحيل خلوه عنه، إذ لو خلا عنه لاتصف بضده وهو الظلم، والظلم نقص يتنزه الله عنه .

وهو – سبحانه – العدل فى فعله، فإن أفعاله كلها قائمة على العدل المطلق، من حيث وضعه كل شىء فى موضعه اللائق به.

ولهذا قال الغزالى: إنه لا يعرف عدل الله تعالى من لم يعرف فعله، وأنه ينبغى لمن أراد أن يفهم هذا الوصف أن يحيط علمًا بأفعال الله تعالى، من أعلى ملكوت السموات إلى منتهى الثرى .

وهو - سبحانه - العدل فى قوله، فإن أقواله إما إخبار، فهى فى غاية الصدق وهو عدل. وإما أوامر ونواه وهى مشتملة على الحكمة والمصلحة والعدل. قال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربكَ صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾** وهو سبحانه العدل فى حكمه، فلا يظلم ولا يجور، ولا يأخذ إلا بذنب، ولا يجزى السيئة إلا بالسيئة، ولا يعاقب أحدًا بجريرة غيره، إلا أن يكون قد تسبب فيها. والله أعلم .

ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

• اللطيف - الخبير •

وقد جاء هذان الاسمان الكريمان مقترنين كثيرًا فى القرآن مثل قوله تعالى من سورة الأنعام: **﴿لا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾** وقوله من سورة الحج: **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾**.

وقوله من سورة لقمان: **﴿يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾**.

وقوله سبحانه من سورة الأحزاب: **﴿واذكرن ما يُتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾** أما اللطيف فهو اسم من اللطف يقال: لطف به وله، بفتح الطاء يلطف لطفًا إذا رفق به، وأما لطف بالضم فهو من اللطافة بمعنى الصغر والدقة. واللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه، فلا يستحق هذا الاسم على وجه الكمال إلا من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك فى إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف، ولا يتصور كمال ذلك فى العلم

والفعل جميعًا إلا فى حقه سبحانه فإن الغوامض والخفيات هى فى علمه كالظواهر الجليات .

وكذلك رفقه - جل شأنه - فى الأفعال هو بالغ غاية الكمال؛ لأنه تابع لمعرفته بتفاصيلها وإحاطته بغوامضها. يقول الغزالى: «فمن لطفه خلقه الجنين فى بطن الأم فى ظلمات ثلاث، وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم، ثم إلهامه لإياه عند الانفصال التقام الثدى وامتصاصه ولو فى ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة، بل فلق البيضة عن الفرخ، وقد ألهمه التقاط الحب فى الحال، ثم تأخير خلق الأسنان عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء فى الاغتذاء باللبن عن السن، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن العظام، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن، وإلى أنياب للكسر، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع» اهـ.

• قول الإمام ابن القيم رحمه الله •

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - فى قصيدته النونية:

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف فى أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة ... واللطف عند مواقع الإحسان

فيريك عزته ويبدى لطفه ... والعبد فى الغفلات عن ذا الشأن

يعنى أنه - سبحانه - يلطف بعبده فى أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف له فى الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه، وكرمه، ورحمته. فاللطف الذى وصفه سبحانه نوعان:

أحدهما: الخبرة التامة وإحاطة علمه بالبواطن والأسرار، ومكنونات الصدور، ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء .

والثانى: لطفه بعبده ووليه الذى يريد أن يتمم عليه نعمته، ويشمله بإحسانه

وكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية فييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويجرى عليه من صنوف المحن وأنواع البلاء التى يكرهها وتشق عليه ما علم أن فيها صلاحه، والسبيل إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء عليهم السلام بأذى قومهم، وبالجهاد فى سبيله، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، واعتبر فى ذلك بما جرى على يوسف الصديق - عليه السلام- من أحوال كانت فى ظاهرها محنة، ولكنها فى حقيقة الأمر ألوان من البلاء والتمحيص، كمل بها جوهره، وصفى بها عنصره حتى أوصلته فى النهاية إلى حسن العقبى فى الدنيا والآخرة .

● قول الشيخ السعدى رحمه الله ●

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى - رحمه الله - : «فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية، أو رياسة، أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه الله عنها، ويصرفها عنه، رحمة به لئلا تضره فى دينه فيظل العبد حزينًا من جهله، وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له فى الغيب، وأريد إصلاحه فيه، لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رءوف رحيم، لطيف بأوليائه. وفى الدعاء المأثور: «اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغًا لى فيما تحب، اللهم الطف بنا فى قضائك، وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت» .

وأما الخبير فهو العليم الذى نفذ علمه إلى كل خفى من الأمور، وأحاط بتفاصيلها ودقائقها بحيث لا يعزب عنه شيء من الوجوه الممكنة لها، يعلم ما غاب كما يعلم ما حضر، ويعلم ما دق وصغر كما يعلم ما جل وكبر، فالكل فى علمه - سبحانه - سواء كما قال تعالى من سورة الرعد: ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض به الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾ .

ولهذا لا يجئ وصفه - تعالى - بهذا الوصف إلا بالنسبة للأمور التى فيها

دقة وخفاء بحيث يعجز عن تناولها إدراك المخلوقين كقوله تعالى: ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ وقوله: ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ وقوله من سورة التحريم: ﴿ **وإذا أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير** ﴾ .

وهكذا فى كل موضع ذكر فيه هذا الوصف فى القرآن العظيم تجده لا يذكر إلا حيث يكون الكلام متعلقًا بالخفايا ومغيبات الأمور. والله تعالى أعلم .

ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

● الحليم - العليم ●

وقد ورد فى القرآن مرتين مقترنًا باسم ﴿ **العليم** ﴾ أولاهما فى قوله تعالى من سورة الحج: ﴿ **ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم** ﴾ ، والثانية فى قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿ **والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليمًا حليمًا** ﴾ كما ورد مقترنًا باسم الغفور فى موضعين الأول قوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا** ﴾، والثانى قوله من سورة فاطر: ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا** ﴾ .

والمناسبة بين هذا الاسم الكريم وكل من هذين الاسمين ظاهرة، فإن علمه تعالى بأحوال خلقه وما ركبوا عليه من ضعف وعدم استمساك عند الشهوات يقتضى حلمه بهم، وعدم معالجتهم بالعقوبة، كما أن حبه -سبحانه- للمغفرة كذلك إمهالهم عسى أن يتوبوا فيتوب الله عليهم .

ومعنى الحليم كما قال ابن الأثير: هو الذى لا يتستخفه شيء من عصيان العباد ولا يستفزه الغضب عليهم، فهو - سبحانه - يشاهد معاصى العصاة،

ويرى أنواع المخالفات والجرائم التى يرتكبونها، ثم لا يُسارع إلى مؤاخذتهم والانتقام منهم مع استحقاقهم لذلك، كما قال تعالى: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى**﴾ .

وهذا الاسم الكريم قد يقع وصفًا لبعض العباد كما قال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿**إن إبراهيم لأواه حليم**﴾ وكما قال عن ولده إسماعيل: ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾ ولكن هذا اشتراك فى الاسم فقط لا يقتضى أن حلمهم كحلمه، بل حلمه تعالى وسع السموات والأرض وجميع ذنوب العباد وجرائمهم، فلا أحد أحلم منه سبحانه، كما لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، وكما لا أحد أغير منه، وهكذا يقال فى كل الأسماء المشتركة: إن الثابت لله - عز وجل - منها هو ما يليق به الكمال الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه. والثابت منها للمخلوق هو ما يليق به من الضعف والنقص بحيث توهم مماثلة أصلاً بين صفة المخلوق وصفة الخالق .

ومن أسمائه الحسنى كذلك:

• العظيم •

وقد ورد مقترنًا باسم (**العلى**) فى آية الكرسى التى هى سيدة آى القرآن، قال تعالى: ﴿**ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم**﴾ .

وكذلك فى قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿**له ما فى السموات والأرض وهو العلى العظيم**﴾ ولا يخفى ما بين صفتى العلو والعظمة من مناسبة، فالشىء كلما علا على غيره كان أعظم منه، ولهذا كان العرش أعظم من الكرسى؛ لأنه فوقه حتى إن الكرسى فى جوفه كحلقة فى فلاة ، قال تعالى: ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ فما ظنك بعظمة من العالم كله من عرشه إلى فرشه بين يديه كخردلة فى كف أحدنا؟ إنها عظمة تتقاصر العقول عن إدراك كنهها والإحاطة بها، وبحسبنا أن نعلم أن العظمة المطلقة التى لا يتصور لها نهاية، ولا حد تقف عنده، هى ثابتة لله - عز وجل - على أكمل وجه وأتمه. وقد ورد فى

الحديث القدسى : «**العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى فى شىء منهما قصمته**» .

فهو - سبحانه - إن وصف بعض عباده بالعظمة كقوله فى العرش: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم**﴾، وكقوله فى عرش بلقيس: ﴿**وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم**﴾ وكقوله فى شأن السحر الذى جاء به سحرة فرعون ﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾ فإنما يراد بها العظمة التى تناسب المخلوق حين ينسب إلى ما هو أحقر منه .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدى - رحمه الله - :

«واعلم أن معانى التعظيم الثابتة لله وحده نوعان أحدهما أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السموات والأرض فى كف الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه**﴾، وقال: ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده**﴾ .

فلله تعالى الكبرياء والعظمة الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما، ولا يبلغ كنههما .

والنوع الثانى من معانى عظمته تعالى، أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق - جل جلاله - من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد فى معرفته، ومحبته، والذل له والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته .

ومن تعظيمه أن يتقى حق تقاته، فيطاع ولا يُعصى، ويذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه ما حرمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿**ذلك**

ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ و﴿ **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** ﴾.

ومن تعظيمه أن لا يعترض على شيء خلقه أو شرعه. والله تعالى أعلم .

ومن أسمائه الحسنى سبحانه :

• العلي •

وقد ورد الاسم الكريم في القرآن مقترنًا باسمه (الكبير) مرة كما في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليًا كبيراً** ﴾.

وكما قال الله في سورة سبأ : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير** ﴾.

ومقترنًا باسمه (العظيم) مرة كما في قوله سبحانه في آية الكرسي ﴿ **ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ وقوله في أول سورة الشورى ﴿ **حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم** ﴾.

ولعل المناسبة بين اسمه - سبحانه - **(العلي)** وبين كل من هذين الاسمين في غاية الظهور، فإن من كان عليًا فوق جميع خلقه فإن كل شيء يتضاءل دون كبريائه وعظمته، بحيث يكون هو المخصوص بهما وحده.

وهذا الاسم الكريم دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله تعالى من كل جهة، فله سبحانه علو الذات فإنه سبحانه مستو على عرشه فوق جميع خلقه، كما قال: ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ولا معنى لاستوائه على العرش إلا علوه وارتفاعه عليه، وأما تأويله ذلك باستولى كما تزعمه النفاة الجاحدون لوصف العلو، فهو تأويل باطل لغة وعقلاً وفطرة .

وله كذلك **علو القدر** وهو علو صفاته وعظمتها، فلا تماثلها صفات المخلوقين، بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا بمعنى صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علمًا**﴾ .

وله **علو القهر** فإنه الواحد القهار الذى قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم جميعًا بيده، وهو الذى ما شاء، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشاء الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من جميع الوجوه .

وخلاصة القول: إن الثابت لله - عز وجل - من وصف العلو هو العلو المطلق الذى يتناول هذه الوجوه كلها ، فتخصيصه ببعضها كعلو القدر والرتبة، أو علو القهر والغلبة، هو تنقص من الصفة وتقييد ما دلت عليه من الإطلاق بلا دليل .

وينبغى أن يعلم أن هناك فرقًا بين صفتى العلو والاستواء على العرش، فإن علوه -تعالى- فوق جميع المخلوقات ومباينته لها أمر دل عليه العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة وقد أثبت ذلك العلامة ابن القيم فى قصيدته النونية التى وفقنى الله لشرحها، ومن واحد وعشرين وجهًا.

فمن أراد شفاء نفسه فى هذا الموضوع فليرجع إليها.

وأما استواؤه -تعالى- على العرش فهو ثابت بالنقل الصريح من الكتاب والسنة فقد أخبر الله سبحانه أنه استوى على عرشه فى سبعة مواضع من كتابه، كما صرحت بذلك أحاديث كثيرة ليس هنا موضع ذكرها ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى كتاب (العلو للعلى الغفار) للعلامة الذهبى.

كما ينبغى أن يعلم أيضًا أننا حين نثبت استواء حقيقيًا لله على عرشه لا نخوض فى كيفية ذلك الاستواء ولا نشبهه باستواء المخلوق، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله. بل نقول كما قال الإمام

مالك -رحمه الله- لمن سأله عن الاستواء (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب) ونجعل قولة مالك هذه دستورًا لنا فى جميع ما أخبر الله به عن نفسه أو أخبر به عنه رسول الله ﷺ فنؤمن به على الوجه الذى يليق بجلال الله وعظمته وننزهه عن مشابهة المخلوقين.

هذا وإن علماء أنصار السنة المحمدية لم يألوا جهدًا فى بيان منهج السلف القويم فى هذا الباب حتى تميزت بذلك دعوتهم، وأما ما يشنع به خصومهم عليهم ويرمونهم به من ألقاب السوء كقولهم مشبهة مجسمة، فإنها شنشنة قديمة يضاهئون بها قول إخوانهم الذين سبقوهم فى النفى والتعطيل حين كانوا يرمون كل من يثبت الصفات بالتجسيم والتمثيل. ونحن لا ننفى صفات الله -عز وجل- التى نطقت بإثباتها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة لأجل شناعة يشنع بها علينا مارق كذاب لا يؤمن بالسنة والكتاب، بل نقول كما قال الشاعر

إن كان تجسيمًا ثبوت صفاته فليشهد الثقلان أنى مثبت

وأحب قبل أن أنتقل من الكلام على هذا الاسم الكريم أن أنقل إلى إخوانى القراء كلام إمام من أئمة النفى والتعطيل فى شرح هذا الاسم الجليل حتى يدركوا الفرق بين ما قلناه فى معناه وبين ما يذهب إليه هؤلاء المعطلة النفاة، وليعلم من لم يكن يعلم أى الفريقين منا ومنهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً.

يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه (المقصد الأسنى) ما نصه:

(العلى) هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه وذلك لأن العلى مشتق من العلو مأخوذ من العلو المقابل للسفل وذلك إما فى درجات محسوسة كالدرج والمراقى وجميع الأجسام الموضوع بعضها فوق بعض وإما فى الرتب المعقولة للموجودات المترتبة نوعًا من الترتيب العقلى فكل ما له الفوقية فى المكان فله العلو المكانى وكل ما له الفوقية من الرتبة فلو العلو فى الدرجات العقلية.

إلى أن يقول (سامحه الله):

فهكذا ينبغى أن نفهم فوقيته وعلوه فإن هذا الأساس وضعت أولاً بالإضافة إلى إدراك البصر وهو درجة العوام ثم لما تنبه الخواص لإدراكات البصائر ووجدوا بينها وبين الأبصار موازنات استعاروا منها الألفاظ المطلقة وفهمها الخواص وأنكرها العوام الذين لم يتجاوز إدراكهم من الحواس التى هى مرتبة البهائم فلم يفهموا عظمة إلا بالمساحة ولا علواً إلا بالمكان ولا فوقية إلا به فإذا فهمت هذا فهمت معنى كونه فوق العرش لأن العرش أعظم الأجسام وهو فوق جميعها والموجود المنزه المقدس عن التحديد والتقدير بحدود الأجسام ومقاديرها فوق الأجسام كلها فى الرتبة ولكن خص العرش بالذكر لأنه فوق جميع الأجسام فما كان فوق جميعها وهو كقول القائل الخليفة فوق السلطان تنبيهًا به على أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان) إلى آخر ما قال.

هذا هو كلام الغزالى فارس حلبة التعطيل الذى انتهت إليه رياسة مذاهب أهل التأويل. أنظر كيف نفى وجود الله من حيث لا يدرى حيث جعله وجوداً معقولاً مدركًا بالبصيرة لا بالبصر وجعل علوه وفوقيته بالرتبه والمكانة لا بالجهة والمكان فإلى الله المشتكى وهو المستعان.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• الجليل والجميل •

ولم يرد ذكرها فى القرآن بهذه الصيغة بل ورد (ذو الجلال) وصفًا للوجه مرة كما فى قوله -تعالى- من سورة الرحمن : ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ ووصف مرة كما فى قوله -تعالى- فى آخر هذه السورة نفسها : ﴿**تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام**﴾.

وأما اسمه (الجميل) فقد ورد به الحديث الصحيح وهو قوله -عليه السلام- «إن الله جميل يحب الجمال» وكثيراً ما يقرن هذين الاسمين الكريمين؛ لأنهما متضمنان لسائر نعوت الجلال والجمال.

وإنما يكون تمام التعبد لله -عز وجل- بهما جميعًا. فالتعبد (بالجليل) يقتضى تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه (الجميل) يقتضى محبته والتأله له، وإن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو المودة بحيث يسبح قلبه فى رياض معرفته وميادين جماله.

فالجليل هو الذى له أوصاف الجلال كلها من العظمة والكبرياء والغنى والملك والتقدس والعلم والقدرة ونحوها، فهو يرجع إلى كمال الصفات كما أن اسمه (الكبير) يرجع إلى كمال الذات. وهو سبحانه الجليل على الإطلاق، لا يستحق هذا الوصف غيره. لأنه هو وحده الجامع لكل أوصاف الجلال، وهو بالغ فى كل صفة منها غاية الكمال. قال العلامة (ابن قيم الجوزية) فى قصيدته النونية

وهو الجليل فكل أوصاف الجلال ... له محققة بلا بطلان

وأما الجميل فهو اسم له سبحانه من الجمال وهو الحسن الكثير فهو الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

أما جمال الذات فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذائذ العظيمة والسرور والبهجة التى لا يقادر قدرها، إذا رأوا ربهم، وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من ذلك النعيم وتلاشى فى أعينهم، حتى لا يكادون يحسون به، وكانت قلوبهم فى شوق دائم وحنين إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تطير له قلوبهم.

وأما جمال الأسماء فإن أسماءه سبحانه كلها حسنى، بل هى أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها.

قال تعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** وقال: **﴿هل تعلم له سميا﴾** أى مساميًا ونظيرًا يستحق مثل اسمه، فأسماؤه كلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال ليس فيها ما ينقسم إلى كمال وغيره.

وأما جمال الصفات فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد،

فهى أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود.

وأما جمال الأفعال فإن أفعاله سبحانه فى غاية الجمال إذ هى دائرة بين أفعال البر والإحسان التى يحمد عليها ويثنى عليه بها ويشكر. وبين أفعال العدل التى يحمد كذلك لموافقتها للحكمة. فليس فى أفعاله عبث ولا سفه ولا جور ولا ظلم، بل كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل، قال -تعالى-: ﴿**إن ربى على صراط مستقيم**﴾.

وإن جميع أنواع الجمال المبثوثة فى صور الموجودات وأصناف المخلوقات، هى من آثار جماله سبحانه فهو الذى أعطاها هذا الجمال وكساها ثبات الحسن. فهو أولى منها به لأن معطى الشىء لا يصح أن يكون فاقداً له، فمعطى الجمال أحق بالجمال. قال الشيخ ابن ناصر السعدى رحمه الله: «فكل ما وجد فى المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا فإن معطيه وهو الله أحق به من المعطى بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته».

فالذى أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال، أحق منهم بذلك وكيف يعبر أحد عن جمال الله -تعالى- وقد قال ﷺ وهو أعلم الخلق بالله: «**لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

فسبحان الله وتقدس عما يقول الظالمون النافون لكماله علواً كبيراً.

ومن أسمائه الحسنى - سبحانه-:

• الحسيب •

وله معنيان: أحدهما أن يكون من الحسب بمعنى الكفاية، وهى إما كفاية عامة تشمل جميع الخلق فهو سبحانه كافى الخلق كلهم لا يحتاجون معه إلى شىء آخر يدبر مصالحهم ويوصل إليهم أقواتهم وينيلهم مقاصدهم وحاجاتهم، فهو الذى ابتدأ خلقهم دون معونة أحد أو مشورته، وهو الذى يمدهم بأسباب البقاء إلى الأجل الذى قدره لهم، وهو الذى يسوق كل موجود إلى غايته التى

بها تمامه وكماله.

وليست حاجة العبد إلى الطعام والشراب واللباس والمأوى وغير ذلك من ضرورات عيشه حاجة إلى غير الله -عز وجل-، فإنه هو الذى تفضل عليه فأعطاه من ذلك كفايته وأزال ضرورته، بل أعطاه من ألوان الترف وصنوف اللذات ما هو فوق حاجته كما قال -تعالى- من سورة إبراهيم: ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾.

فكل ما يملكه العباد من منافع وأرزاق إنما هو فيض جوده ورحمته، ولو شاء لقطعه عنهم، فكيف إذًا تكون حاجتهم إلى غيره؟ بل هو وحده سبحانه حسب كل أحد، وليس فى الرجود شىء هو وحده يكون حسب شىء آخر إلا الله -عز وجل-، فإن الأشياء مهما يتعلق بعضها ببعض وتظهر كل منها إلى غيره فمرجعها كلها إليه إذ هو موليها وواهبها ورابط نتائجها بمباديها لا رب لها غيره ولا مالك لها سواه.

وأما الكفاية الخاصة فهى التى تكون لأوليائه وأهل طاعته الذين قاموا له بحق العبودية محبة وذلاً وتعظيمًا وخوفًا ورجاء واستكانة وتوكلاً واستعانة وتوبة وأنابة وسؤالاً ودعاء إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى تعبدهم بها فى أقوال اللسان وأعمال الجوارح وإنفاق الأموال. فهؤلاء يكون لهم من كفاية الله وكلاءته وحمايته بقدر ما حققوا من معانى عبرديته كما قال -تعالى-: ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ فأتى بوصف العبد للإشعار بأن تلك الكفاية منوطة بأهل عبادته فإنها كفاية خاصة بهم فوق ما لسائر الخلق من سابغ كفايته.

وأكثر ما جاء وصف الحسب فى القرآن الكريم إنما هو بمعنى تلك الكفاية الخاصة فمن ذلك قوله -تعالى- من سورة آل عمران: ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾.

وقوله من سورة الأنفال: ﴿**يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ ومن هنا، معطوفة على الضمير المضاف إلى حسب وليست معطوفة على لفظ الجلالة فإن الحسب مختص بالله -عز وجل- وحده لا تجوز الندية فيه، فيكون المعنى: كافيك من اتبعك من المؤمنين: الله.

ولهذا قال سبحانه من سورة (التوبة) ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون**﴾ فجعل الإيتاء لله ورسوله لأنه أمر تجوز فيه ولكنه جعل الحسب لله -عز وجل- وحده وجعل الرغبة كذلك إليه وحده ومن ذلك أيضًا قوله -تعالى- من آخر سورة التوبة: ﴿**فإن تولوا فقل حسبى الله، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**﴾.

وأما المعنى الثانى لاسمه -تعالى- (الحسيب) فهو الذى يحفظ أعمال عباده من خير وشر، ثم يحاسبهم عليها كذلك، فيجزيهم بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، فهو حسيب بمعنى محاسب كقوله -تعالى- من سورة النساء: ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافًا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيًا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبًا**﴾ وكقوله سبحانه من نفس السورة ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيبًا**﴾.

ومن أسمائه الحسنى كذلك:

• الرقيب والشهيد •

ومعناهما متقاربان، بل لا يبعد أن يقال أنهما مترادفان فإن مراقبة الشىء مراقبة تامة وملاحظته لازمة دائمة لا يمكن إلا مع المعية والحضور. وضد المراقبة الغفلة، وضد الشهود الغيبة، وهما أيضًا متلازمتان وكلا الاسمين الكريمين مذكور فى القرآن. أما الرقيب فيذكر غالبًا فى معرض التحذير من ارتكاب شىء ممنوع منه كما فى قوله -تعالى- من سورة النساء: ﴿**واتقوا الله الذى تساءلون به**

والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ فإنه بعد أن أمرهم بالتقوى التى هى اجتناب المحرمات، ذيل الآية باسمه الرقيب، تحذيرًا لهم فى الوقوع فى شىء منها.

وكما فى قوله -سبحانه- من سورة الأحزاب خطابًا لنبيه ﷺ : **﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبًا﴾** وفى معنى الرقيب الآيات التى تنفى عنه الغفلة سبحانه، فإن الغفلة كما قلنا تنافى المراقبة، فنفيها يستلزم لإثبات ما يضادها من كمال المراقبة كقوله -تعالى-: **﴿وما ربك بغافل عما يعلمون﴾** وقوله من سورة إبراهيم -عليه السلام-: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾**.

وأما اسمه -تعالى- :

• الشهيد •

فالأظهر أنه من الشهود بمعنى الحضور والاطلاع، وهو راجع إلى معيته العامة الشاملة لجميع المخلوقات. فهو مع كل شىء بعلمه وقدرته وسمعه ورؤيته، وهو محيط بهم إحاطة من لا يغيب عنه شىء من أقوالهم وأفعالهم وسرائر قلوبهم. قال -تعالى- من سورة يونس -عليه السلام-: **﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾** وقال -سبحانه- من سورة المجادلة **﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا، أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد. ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم﴾**.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى -رحمه الله- عند شرحه لهذين الاسمين الكريمين: (الرقيب)، (الشهيد) مترادفان وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية

والخفية، وهو الرقيب على ما دار فى الخواطر وما تحركت به اللواحظ. ومن باب أولى: الأفعال الظاهرة بالأركان قال -تعالى-: ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبًا** ﴾ ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ ولهذا كانت المراقبة التى هى من أعلى أعمال القلوب هى التعبد لله باسمه الرقيب فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمه واستحضر هذا العلم فى كل أحواله أوجب ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه) اهـ.

وما جاء من السنة فى هذا المعنى قوله ﷺ «**صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت**». وقوله -عليه السلام- : «**استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك**» والله -تعالى- أعلم.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• النـــور •

وقد ورد ذكره فى القرآن فى موضعين أحدهما قوله -تعالى- من سورة النور ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾.

والموضع الثانى قوله -تعالى- من سورة الزمر: ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾.

وورد ذكره كذلك فى كثير من الأحاديث الصحيحة فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن**).

وقد روى الدارمى والطبرانى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن

ربكم ليس عنده ليل ولا نهـار نور العرش من نور وجـهه). وروى محـمد بن إسحق فى سيرته أن رسول الله ﷺ فى دعاءه يوم آذاه أهل الطائف: (أعوذ بنور وجهك الذى أشـرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيـا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل على سخطك لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك).

إن الله -تعالى- لا ينام:

وفى الصـحيح عن أبى مـوسى الأشـعرى رضي الله عنه قـال: (قام فـينا رسول الله ﷺ بأربع كلمـات قال: **إن الله لا ينام ولا ينبـغى له أن ينام، يخـفض القسط ويرفـعه، يرفع إليـه عمل النهـار قبل عمل الـليل، وعمل الليل قـبل عمل النهار، حجابه النور - أو قال النار - لو كشفه لأحـرقت سبحات وجهه ما أنتهى إليه بصره من خلقه)**.

وروى أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهمـا قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: **(إن الله -تعـالى- خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل)**

الفرق بين النور والنور:

ولكن ينبغى أن يفرق فى هذا المقام بين النور الذى هو صـفة ذاته سبحانه وبين النور المخلوق فـإن النور الذى هو صفـة الذات قائم بهـا لا يتعـداها إلى غيـرها. وأما النور المخلوق فـهو الذى تتصف به المخلـوقات بحسب الأسـباب والمعانى القائـمة بها وهو ينقسم إلى حـسى مدرك بالبصر كنور الشـمس والقمر والنجوم والنار والكهـرباء وغيرها، وإلى مـعنوى مدرك بالبصـيرة كنور الوحى والقرآن ونور الحق والإيمان قال الله -تعالى- **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهـدى به الله من اتبع رضوانه سـبل السـلام ويخرجـهم من الظلمـات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**. وقال سبحانه: **﴿أو من كان ميتًا فـأحييناه وجعلنا له** نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى **الظلمات ليس بخارج منها﴾**.

وكذلك الرسول ﷺ هو نور بهـذا المعنى لأنه يعرف الناس بربهم ويدلهم

على طريقة كما قال -تعالى- من سورة الأحزاب: ﴿**يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا**﴾، ويقول العلامة ابن القيم فى قصيدته النونية.

والنور ذو نوعين مخلوق ووصف ماهما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محسوس ومعقول، هما شيئان ولكن المعطلة الجهمية ينكرون النور الذى هو وصف الذات كما هو شأنهم فى سائر الصفات التى يزعمون أنها توهم التشبيه والتجسيم فيقولون: إن النور عرض لا يقوم إلا بالأجسام ولهذا تضطرب عباراتهم فى تفسير ذلك النور الذى أضافه الله إلى نفسه فمنهم من يفسره بكمال الوجود وتمام الظهور ومنهم من يؤوله باسم الفاعل فالله نور السموات والأرض بمعنى منورها وهادى أهلهما إلى غير ذلك من العبارات التى تدل على حيرتهم إذ لم يهتدوا إلى الفرق بين النور الذى هو صفة ذاته سبحانه كما دلت الآيات والآحاديث وبين الأنوار التى هى بجعله وخلقه فى الحسيات والمعنويات.

يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه (المقصد الأسنى):

(**النور**) هو الظاهر الذى به كل ظهور فإن الظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نورًا ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ولا ظلام أظلم من العدم فالبرىء عن ظلمة العدم بل عن إمكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورًا. والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته فهو نور السموات والأرض وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهى دالة على وجود الشمس المنورة فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهى بجوار وجودها دالة على وجوب وجود موجدها وما ذكرناه فى معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة فى معناه) اهـ.

وإنما ذكرت لك هذا النموذج من كلام هؤلاء المعطلة النفاة لتدرك أى فرق بينه وبين ما ذكرناه من معانى النور والله يهدى من يشاء نسأل الله أن يجعل لنا

نوراً فى قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا ومن حولنا وأن يزيدنا من نوره إنه ولى المؤمنين.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• الولـى والوالـى •

ومعناهما متقاربان بل لعلها مترادفان وكلاهما مذكور فى القرآن.

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾:

قال الله -تعالى- من سورة البقرة: ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾.

وقال من سورة الأنعام: ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم** ﴾.

وقال من سورة الأعراف ﴿ **إن وليِّى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾. وقال من سورة يوسف على لسان الصديق -عليه السلام- ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخره توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين** ﴾.

وقال من سورة الرعد: ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾.

ولعل من المفيد هنا أن نبين أصل اشتقاق هذين الاسمين الكريمين بما يتضح معه معناها، فإن الولاية من الألفاظ التى ضل أكثر الناس فى فهم مدلولها حتى نحلوا أصحابها من السلطان الغيبى ومن القدرة على التصرف والتأثير ما لا ينبغى إلا لله -عز وجل-.

يقول الراغب فى مفرداته عند كلامه على مادة (ولى) ما ملخصه:

« الولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس

منهما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث الدين ومن حيث النسبة ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد. والولاية والولاية تولى الأمر، والوالى والمولى يستعملان فى ذلك كل واحد منهما يقال فى معنى الفاعل أى الوالى، وفى معنى المفعول أى الموالى، يقال للمؤمن هو ولى الله -عز وجل- ولم يرد مولاه».

وقد يقال: «الله -تعالى- ولى المؤمنين ومولاهم».

ويقول ابن الأثير فى النهاية:

«فى أسماء الله -تعالى- (الولى) هو الناصر، وقيل المتولى لأمور العالم والخلائق القائم لها. ومن أسمائه -عز وجل- (الوالى) وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيه لم يطلق عليه اسم الوالى».

ويقول أبو حامد الغزالى فى كتابه (المقصد الأسنى): (الوالى) هو المحب الناصر ومعنى وده ومحبته قد سبق، ومعنى نصرته فإنه يقمع أعداء الدين وينصر أولياءه قال الله -تعالى- ﴿ **الله ولى الذين آمنوا** ﴾ وقال ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾.

والولى من العباد من يحب الله ويحب أولياءه وينصره وينصر ويعادى أعداءه ومن أعدائه النفس والشيطان فمن خذلهما ونصر أمر الله ووالى أولياء الله وعادى أعداءه فهو الولى من العباد.

الولاية من المعانى المشتركة:

والذين يمكن أن يستخلص من هذه النصوص أن الولاية من المعانى المشتركة التى يوصف بها الله -عز وجل- كما يوصف بها غيره. قال تعالى: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾. وقال سبحانه: ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾.

وقال من سورة الكهف: ﴿**أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء**﴾ فإذا وصف الله -عز وجل- بها فإما أن يراد بها الولاية العامة فهو سبحانه ولى الخلق كلهم بمعنى المتولى لأمورهم والكفيل بمصالحهم وحاجاتهم، ولى لهم غيره ولا مدبر سواه.

وإما أن يراد الولاية الخاصة وهى ولايته سبحانه للمؤمنين والمتقين، فتكون بمعنى النصرة والمحبة والرعاية والتأييد. فهو سبحانه مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم، وهو المدافع عنهم والناصر لهم والكفيل بمصالحهم والمنجى لهم من كل كرب والموفى لهم بوعده، فهو وليهم الذى لا ولى لهم سواه وهو مولاهم الحق وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وأما إذا وصف بها العبد فقيل: ولى الله فمعناه المقترب إلى الله بطاعته والموافقة له سبحانه فى محابه ومساخطه، فلا يحب إلا ما أحبه الله من الأشخاص والأعمال والأخلاق، ولا يبغض إلا ما أبغضه الله كذلك، لا يوالى إلا أولياء الله ولا يعادى إلا أعداءه. كما فى الحديث الصحيح «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**» ويجوز أن يكون الولى من فعيل بمعنى مفعول والمراد به من والاه الله فأحبه وأدناه لاجتهاده فى طاعته وتقواه كما فى الحديث الذى رواه البخارى «**من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعت الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه**».

وقد حدد القرآن الكريم معنى الولى من العباد تحديدًا يزيل كل لبس ولا يدع لأحد مقالاً حين قال من سورة يونس -عليه السلام- ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**﴾ فقوله سبحانه: ﴿**الذين**

آمنوا وكانوا يتقون﴾ تعريف جامع مانع للأولياء وهو يتضمن لكمالهم فى الناحية الاعتقادية.

وفى الناحية العلمية العبادية. فهو كقوله -تعالى- فى شأن بنى إسرائيل من سورة ألم تنزيل **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** فأشار بالصبر إلى قوة الإرادة والعمل، وباليقين إلى كمال العلم والاعتقاد.

صفات عباد الرحمن:

على أن هذا الوصف الإجمالى للأولياء قد ورد على سبيل التفصيل فى مواضع كثيرة من التنزيل، من أجمعها قوله -تعالى- من آخر سورة الفرقان **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾**.

فانظر كيف انتكست فطر الناس وفسدت عقولهم حين عموا عما بينه الله ورسوله وجروا وراء ما زينته لهم الشياطين، فنحلوا الولاية من لا علم عنده ولا عمل، من هؤلاء الجهلة المفسدين الذين تجردوا من كل مزية وتحللوا من ربقة الدين والخلق، ولم يتقيدوا بقيود الشريعة الغراء ولم يتأدبوا بآداب السنة المطهرة، بل كل مؤهلاتهم فى نظر هؤلاء الغوغاء أنهم منتسبون إلى طريقة من هذه الطرق الصوفية التى ضحك بها الشيطان على هذه الأمة ليبددها شيعًا

ويمزق وحدتها ويصرفها عن صراط ربها الذى رسمه لها فى كتابه وسنة رسوله.

فمتى يفيق المسلمون من رقدتهم؟ ومتى تتكشف هذه الحجب المسدلة على قلوبهم، فيبصروا نور الحق ويعرفوا أن ولاية الله لا تنال إلا بطاعته والوقوف عند حدوده؟

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• الودود والشكور•

وكلاهما وارد فى القرآن الكريم قال -تعالى- من سورة هود على لسان شعيب عليهما السلام: **﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود﴾**.

وقال من سورة البروج **﴿إن بطش ربك لشديد. إنه يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد﴾**.

وقال -تعالى- من سورة التغابن: **﴿إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم. عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾**.

أما الودود فقد قال الراغب فى المفردات:

«الود محبة الشيء وتمنى كونه، ويستعمل فى كل واحد من المعنيين على أن التمنى يتضمن معنى الود لأن التمنى هو تشهى حصول ما توده».

وقوله: **﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ ﴿سيجعل لهم الرحمن ودًا﴾** إشارة إلى ما وقع بينهم من الألفة المذكورة فى قوله: **﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم﴾** الآية.

ومن المودة التى تقتضى المحبة المجردة فى قوله: **﴿إلا المودة فى القربى﴾** وقوله: **﴿وهو الغفور الودود - إن ربى رحيم ودود﴾** فالود يتضمن ما دخل فى قوله: **﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ...﴾** اهـ.

وفى النهاية (لابن الأثير) «فى أسماء الله -تعالى- الودود هو فعول بمعنى

مـفعـول من الود بمعنى المحـبة يقـال وددت الرجل أوده ودًا إذا أحـببـته. فـالله -تعالى- مودود أى محبـوب في قلوب أوليائه، أو هو فعول بمعنى فاعل أى أنه يحب عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم».

وما أحسن قول العلامة (ابن القيم) فى نونيته.

وهـــو الـــودود يحبهـــم ويحبه	أحبابه والفضـــــل للمنـــــان
وهو الذى جعل المحبة فى قلوبهم	وجـــــازاهم بحـــب ثـــان
هذا هـــو الإحســـان حقًا لامعا	وضة ولا لتوقـــع الشكـران
لكن يحب شكـورهم وشكورهم	لا لاحتيـــاج منه للشكــــران

فاسمعه -تعـالى- (الودود) متضمن للمعنيين جميـعًا، فهو الواد لأوليائه وأهل طاعتـه بمعنى المحب لهم وذلك لقيامهم بما يسـتوجبون به تلـك المحبة من الإخلاص له والإكثار من ذكره والإنابة وقوة التوكل عليه والتقرب إليه بالفرائض والنوافل وحسن المتابعة للنبى ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

كما قـال -تعالى- ﴿**قل إن كنتم تحـبون الله فـاتبـعونى يـحببكم الله**﴾ وهو سبحانه المودود لهم فهم يحبونه أشـد الحب بل لا شيء أحب إليهم منه فمحبته عندهم سابقة لكل محبـة وغالبة على كل محبة بل كل محبـة غيرها فهى تابعة لها.

محبة الله تعالى:

يقول الشيخ السعدى رحمه الله:-

«ومحبة الله هى روح الأعمال وجمـيع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله ومحبة العبد لربه فـضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهـو الله -تعالى- الذى أحب عبده، فـجعل المحبـة فى قلبه ثم لما أحبه العـبد جازاه الله بحب آخر فهذا هو الإحســان المحض على الحقيقة إذ منه السبب ومنه المسبب ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلـك محبة منه -تعالى- للشاكرين من

عباده ولشكرهم فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد. فتبارك الذى أودع المحبة فى قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت فى قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب وتسليهم عن الأحباب وتهون عليهم المصائب وتلذذ لهم مشقة الطاعات وتثمر لهم ما يشتهون من أصناف الكرامات التى أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه. فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه فمحبته قبلها صار بها محبًا لربه ومحبة بعدها. شكرًا من الله له على محبة صار فيها من أصفيائه المخلصين» اهـ.

ولكن ينبغى أن لا يفهم من هذا أن اسمه -تعالى- (الودود) مرادف لكونه محبًا للمؤمنين أو محبوبًا لهم، بل هو متضمن لمعنى زائد على مجرد المحبة وهو تودده إليهم بإفاضة النعم والخيرات التى كلما ذكروها امتلأت قلوبهم من محبته. وكذلك توددهم إليه بالطاعات التى هى سبب قربه ومحبته لهم، فالمودة تتناول المحبة كما تتناوله جميع الأسباب المفضية إلى نموها ودوامها.

هذا ولابد من التنبيه هنا إلى ما فعله المعطلة من أرباب الكلام الجاهلين بهذا الاسم الجميل حيث حرفوا معناه وألحدوا فيه لأنهم لا يؤمنون بمحبة متبادلة بين الله وبين أصفيائه. بل يفسرون تلك المحبة بلوازمها من الإحسان وإرادة الخير ونحو ذلك. وإليك ما يقوله الغزالى أحد أئمة التعطيل فى تفسير هذا الاسم الكريم:

(الودود هو الذى يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثنى عليهم وهو قريب من الرحيم لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم والمرحوم هو المحتاج والمضطر وأفعال الرحيم تستدعى مرحومًا ضعيفًا وأفعال الودود لا تستدعى ذلك بل إنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود. فكما أن معنى رحمته -تعالى- إرادته الخير للمرحوم وكفايته له وهو منزه عن رقة الرحمة فكذلك وده إرادته الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه وهو منزه عن ميل المودة لكن المودة والرحمة لا تراد فى حظ المرحوم إلا لثمرتها وفائدتها لا للرقة والميل فالفائدة هى لباب الرحمة والمودة وروحها وذلك هو المقصود فى حق الله تعالى) اهـ.

● الشكر من الصفات المشتركة ●

وأما اسمه -تعالى- :

● الشاكر - الشكور ●

فقد قال الغزالي في تفسيره : (هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في الآخرة غير محدود ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال : إنه شكر تلك الحسنة ومن أثنى على المحسن أيضًا يقال إنه شكره .

فإذا نظر إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى ؛ لأن زيادته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة فإن نعيم الجنة لا آخر له والله -تعالى- يقول ﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ .

وإن نظرت إلى معنى الثناء فثناء كل مثن على غيره . والرب -تعالى- إذا أثنى أعمال عباده فقد أثنى على نفسه لأن أعمالهم من خلقه) اهـ.

والشكر من الصفات المشتركة بين الله -عز وجل- وبين العبد ، فإذا وصف به العبد كان معناه اعتراف العبد بنعمة الله عليه وثنائه عليه بها واستعماله إياها في طاعته ومرضاته .

وأما إذا وصف به الرب فمعناه قبوله سبحانه لعمل العبد ورضاه عنه وإثابته عليه، فهو لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه ﷺ بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كقوله -تعالى- في شأن المنفقين في سبيله ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ .

وكقوله : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾ وفي الحديث الصحيح الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما : « أن الله -تعالى- كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها

الله عنده حسنة كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فأي شكر لأعمال العباد أعظم من هذا. فبغيته سبحانه ما يتحمل المتحملون لأجله ومن فعل شيئًا لأجله أعطاه فوق حقه ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه. وهو الذى وفق لمرضاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وكل هذا ليس حقًا واجبًا عليه وإنما هو الذى أوجبه على نفسه، جودًا منه وكرمًا.

قال العلامة (ابن القيم رحمه الله):

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم	لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشأن
كلا ولا عمل لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله والفضل للمنان

نسأل الله أن يجعلنا من أهل وده وشكره بفضله وكرمه.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• المقسط والجامع •

أما المقسط فهو اسم فاعل من أقسط بمعنى عدل وأصله من قسط بمعنى جار وظلم قال -تعالى- ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا**﴾ فالهمزة فى أقسط لسلب معنى الجور والظلم ولم يرد هذا الاسم الكريم بلفظه ولكن ورد معناه فى آيات كثيرة كلها تنفى عن الله سبحانه كل شائبة ظلم وتصفه بكمال النصفة والعدل فى حكمه وقضائه وفيما قدره من أجزية على أعمال العباد بمثوبة وعقوبة. وذلك مثل قوله -تعالى- فى سورة آل عمران: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط**﴾.

وقوله من سورة النساء: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها**

ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾.

قوله -تعالى- من سورة الأنعام: ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً** ﴾.

وقوله في نفس هذه السورة: ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾.

وقوله -تعالى- من سورة الأنبياء: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾.

قوله -تعالى- من سورة الزلزلة: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾.

وورد كذلك معناه في كثير من الأحاديث الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)، وقوله في دعائه المشهور: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك) إلخ.

وهو سبحانه لكمال عدله ينتصف لكل مظلوم ممن ظلمه ويأخذ له بحقه حتى إنه يقتص للبهائم بعضها من بعض كما قال -عليه السلام- «**لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**».

صفات المفلس:

وفي الحديث الآخر يقول النبي ﷺ لأصحابه: «**أتدرون من المفلس؟ فيقولون: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فيقول: لكن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بحسنات كثيرة ولكنه قد ضرب هذا وشتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا. فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا لم يبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه حتى يطرح على وجهه في النار**».

ولكن العبد إذا تاب إلى الله -عز وجل- وأحسن الإقبال عليه بعمل الصالحات والإكثار من نوافل الطاعات وبقيت عليه مظالم لم يستطع ردها إلى

أصحابها فإن الله سبحانه فضلاً منه وكرمًا يرضى عنه خصومه يوم القيامة ويعطيم من أنواع النعيم والكرامة ما يرغبهم فى العفو عنه كما ورد بذلك الحديث.

وأما اسمه -تعالى- (الجامع) فهو اسم فاعل من الجمع بمعنى التأليف بين الأشياء وضم بعضها إلى بعض. ولهذا الجمع مظاهر متعددة فهو سبحانه بقدرته يجمع بين المتباينات فكجمعه فى هذه الأرض بين الهواء والبحار والجبال والأنهار وأنواع الحيوانات والنباتات والمعادن المختلفة على ما بينها من التباين والاختلاف فى الشكال والألوان والطعوم والأوصاف.

وكجمعه فى بدن الحيوان بين العظم، والعصب، والعروق، والعضل، والرباطات، والأوردة، والشرايين، والمخ، والبشرة، والدم، وسائر الأخلاط المختلفة المتباينة.

وأما جمعه بين المتضادات فكجمعه بين الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة، فى أمزجة الحيوانات مع كونها أمورًا متعادية متنافرة.

ولكن أعظم مظاهر جمعه سبحانه هو ما أخبر عنه القرآن الكريم من جمعه الناس فى عرصات القيامة لفصل القضاء بينهم. قال -تعالى- فى أول سورة آل عمران على لسان الراسخين فى العلم: **﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾** وقال من سورة الواقعة: **﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾**.

وقال من سورة التغابن: **﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾**.

وقال فى سورة المرسلات: **﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾**.

النبى ﷺ سيد الناس يوم القيامة

وفى حديث الشفاعة الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: **«أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر»** إلخ الحديث.

سؤال الرسل عليهم الصلاة والسلام:

وكذلك جمعه -تعالى- الرسل لسؤالهم عما أجابتهم به أممهم كما قال -تعالى- من سورة المائدة: ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾.

وكذلك جمعه لرفات الموتى وتأليفه سبحانه بين ما تحلل من أبدانهم في النشأه الأخرى ثم يعيد إليهم أزواجهم ويبعثهم من قبورهم أحياء.

قال -تعالى- من آخر سورة يس: ﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾.

وقال من سورة القيامة: ﴿ **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾.

ثم آخر ذلك أن يجمع الله أهل طاعته وولايته فى دار رحمته ومستقر كرامته، وأن يجمع أعداءه وأهل معصيته فى دار غضبه ونقمته. نسأل الله أن يجعلنا من الذين أنعم عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• الباعث والوارث •

قال الشاعر:

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت إياهم الأرض فى دهر الدهارير

أما الباعث فهو فاعل البعث، وأصل البعث الإشارة والتحريك، قد ورد فعل البعث مسنداً إلى الله -عز وجل- فى مواضع كثيرة، من القرآن الكريم بمعان مختلفه منها إحياؤه الموتى، وهذا البعث منه ما وقع بالفعل فى الدنيا كقوله -تعالى- فى خطاب بنى إسرائيل ﴿ **وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله**

جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾.

*** الإيمان بالبعث:**

وكقوله في شأن الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ﴿ **فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾.

وكقوله -تعالى- في شأن أصحاب الكهف ﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً** ﴾.

ومنه ما سيقع يوم القيامة، وأكثر ما ورد البعث في القرآن بهذا المعنى الذي هو إخراج الناس من قبورهم أحياء، وكان المشركون ينكرونه ويستهزئون برسول الله ﷺ حين يخبرهم بوقوعه ويستعجلونه، ولهذا عني القرآن بتوكيده وأقسم عليه وأكثر من إيراد الأدلة المثبتة له كقوله -تعالى- من آخر سورة يس ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾.

والإيمان بهذا البعث أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل -عليه السلام- حيث قال له الرسول ﷺ حين سأله عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر**».

*** كيفية البعث:**

وقد اختلف الناس في كيفية هذا البعث فمنهم من زعم أن هذه الأجساد التي كانت في الدنيا تعدم بالكلية، ثم يوجدهم الله بعد العدم إيجاداً مثل الإيجاد الأول، ومنهم من ذهب إلى أن الله ينشيء أجساداً جديدة لا صلة لها بالأجساد الأولى، ويعيد الأرواح إليها، وكلا الرأيين خطأ محض وضلال بين، بل الذي دل عليه صريح الكتاب والسنة أن هذه الأجساد التي في الدنيا هي التي تبعث بأن يجمع الله أجزاءها المتفرقة، ويؤلف بينها ويخلقها خلقاً جديداً، ويعيد

الأرواح إليها، وهو الذى يقتضيه عدل الله وحكمته فإن هذه الأجساد هى التى باشرت الطاعة والمعصية فى الدنيا فلا بد أن تباشر جزاء ذلك أيضًا، إما ثوابًا ولذة على الطاعة، وإما عقوبة وألمًا على المعصية.

على أن البعث لو كان متعلقًا بأجساد جديدة بالكلية لما استبعده المشركون، فإنهم يرون كل يوم ما لا يحصى من الأشخاص التى يخلقها الله بالولادة، بل كل مناط عجبهم هو أن هذه الأجساد التى بليت وتفتتت وضلت فى الأرض كيف تعود إليها الحياة مرة أخرى، ولقد حكى القرآن شبهتهم هذه أكثر من مرة كقوله من سورة بنى إسرائيل: **﴿وقالوا أئذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾**، وكقوله من سورة ألم تنزيل السجدة: **﴿وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد؟﴾**.

معنى التوفى:

ومن المعانى التى وردت فى القرآن كذلك إيقاظه سبحانه النائمين برد أرواحهم التى خرجت عند النوم إليهم كما قال -تعالى- من سورة الأنعام: **﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾** وكقوله من سورة الزمر: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾**.

*** بعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام:**

ومنها: بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى قومهم مبشرين ومنذرين وبه معرقين وإليه داعين كما قال -تعالى- **﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾**.

وأما اسمه -تعالى- :

• الوارث •

فمعناه الذى يصير وينتهى إليه كل شىء بحيث لا يبقى لأحد معه شبهة ملك ولا شائبة تصرف فى شىء من الأشياء، فإن الله خلق لبنى آدم جميع ما

فى الأرض، وسخره لهم وملكهم إياه وأذن لهم فى الانتفاع به مدة بقاء هذه الدنيا، فإذا مات الناس وقامت القيامة آلت هذه الأشياء كلها إلى مالكها الحقيقى جل شأنه، قال -تعالى- من سورة الحجر ﴿**إنا نحن نحيي ونميت ونحن الوارثون**﴾.

وقال -تعالى- من سورة مريم عليها السلام: ﴿**إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون**﴾.

يقول الغزالى:

(الوارث) هو الذى يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك، وذلك هو الله سبحانه، إذ هو الباقى بعد فناء خلقه وإليه يرجع كل شىء ومصيره، وهو القائل إذ ذاك ﴿**لمن الملك اليوم**﴾ وهو المجيب ﴿**لله الواحد القهار**﴾ اهـ.

ومن أسماء الله -سبحانه-:

• الشهيد •

وهو اسم فاعل بمعنى شاهد ولكنه أبلغ منه، وهو إما عن الشهادة بمعنى الإخبار عن الشىء بما علمه منه إخبارًا يتضمن معنى الإلزام والحكم. أو من الشهادة بمعنى الحضوز مع الشىء بأن يحيط به علمًا ورؤية لا يفوته منه شىء. المعنيان ثابتان لله -عز وجل-، وكلاهما وارد فى القرآن الكريم.

فمن الأول قوله -تعالى- من سورة آل عمران ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾.

وقوله من سورة النساء: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا**﴾.

وقوله من سورة الأنعام: ﴿**قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم**﴾.

وقوله من سورة المنافقين: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله**

والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾.

ومن الثانى قوله -تعالى- من سورة آل عمران: ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله يشهد على ما تعملون** ﴾ أى مطلع عليه وحاضر عند عمله.

وقوله من سورة الأعراف: ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين. فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ فإن نفى غيبته سبحانه مستلزم لشهوده وحضوره. وقوله من سورة يونس -عليه السلام- ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾.

وقوله فى سورة فاطر: ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد** ﴾.

وقوله من سورة المجادلة: ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد** ﴾.

وأكثر ما يأتى اسمه -تعالى- (الشهيد) بهذا المعنى وهو يرجع إلى عمله -تعالى- وخبرته وإحاطته بأحوال العبد كلها حتى كأنه حاضر معه. ولهذا كان لهذا الاسم تأثير عظيم جداً فى استقامة أحوال المؤمن، فإنه إذا علم أن الله يراه وأنه معه حيث كان وأنه رقيب ومطلع عليه، لا شك يتأدب مع الله -عز وجل- غاية الأدب ويستحق منه -تعالى- أن لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره، فلا يقصر فى طاعة ولا يقدم على معصية، ويصل بذلك إلى مقام الإحسان، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله -عز وجل- يراه.

وفى الحديث الصحيح «**صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت**» **وفى حديث آخر «استحى من الله -عز وجل- استحياءك فى رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك»**.

ومن أسمائه الحسنى كذلك:

• الحــق •

وهو اسم فاعل من حق الشيء يحق حقا إذا ثبت ووجب، ويقابله الباطل الذى لا حقيقة لـه ولا ثبات. وقد ورد هذا الاسم كثيراً فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

فمن الكتاب قوله -تعالى- من سورة الحج ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير**﴾.

وقوله من سورة النور: ﴿**يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ وقوله من سورة لقمان ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير**﴾.

وقوله من سورة يونس -عليه السلام-: ﴿**فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون**﴾.

وأما من السنة فقد ورد فى الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض وما فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض وما فيهن، أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، ومحمد حق، والنبيون حق ...إلى آخره**».

والحق من الأسماء المشتركة بين الله -عز وجل- وبين غيره فإنه يطلق على كل ماله حقيقة وثبوت من الأشخاص والعقائد والأخبار وغيرها كما يقال للشىء الذى يجب عليك نحو غيرك أنه حق فحق الله على عباده أن يعبدوه وأن لا يشركوا به شيئًا، وحق الوالدين على ولدهما أن يحسن إليهما وأن يبرهما إلخ، ولكن الحق المطلق الذى لا باطل معه بوجه من الوجوه ليس إلا الله -عز وجل- وصفاته. فقوله الحق وله دعوة الحق وله الملك الحق يوم القيامة.

يقول الغزالى فى كتابه (المقصد الأسنى) عند شرحه لهذا الاسم.

وعند هذا تعرف أن الحق المطلق هو الموجود الحقيقى بذاته الذى يأخذ منه كل حق حقيقته وقد يقال أيضًا للمعقول الذى صادف به العقل الموجود حتى طابقه أنه حق فهو من حيث ذاته يسمى موجودًا ومن حيث إضافته إلى العقل الذى أدركه على ما هو يسمى حقًا.

فإذًا أحق الموجودات بأن يكون حقًا هو الله تعالى، وأحق المعارف بأن يكون حقًا هو معرفة الله تعالى، فإنه حق فى نفسه أى مطابق للمعلوم أزلاً وأبدًا ومطابقة لذاته لا لغيره لا كالعلم بوجود غيره فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجودًا فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلاً وذلك الاعتقاد أيضًا لا يكون حقًا لذات المعتقد لأنه ليس موجودًا لذاته، بل هو موجود لغيره.

وقد يطلق ذلك على الأقوال فيقال قول حق وقول باطل، وعلى ذلك فأحق الأقوال قول: لا إله إلا الله؛ لأنه صادق أزلاً وأبدًا لذاته لا لغيره.

فإذًا يطلق الحق على الوجود فى الأعيان وعلى الوجود فى الأذهان وهو المعرفة. وعلى الوجود الذى فى اللسان وهو المنطق.

فأحق الأشياء أن يكون حقًا هو الذى يكون وجوده ثابتًا لذاته أزلاً وأبدًا ومعرفته حقًا أزلاً وأبدًا، والشهادة له حقًا أزلاً وأبدًا. وكل ذلك لذات الموجود الحقيقى لا غيره» اهـ.

نسأل الله الحق أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه وأن يثبتنا على دعوة الحق حتى نلقاه.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• البديع والهادى •

وكلاهما مذكور فى القرآن ودال على صفة من صفات الفعل التابعة لمشيئته -تعالى- وقدرته.

أما البديع فهو فعيل بمعنى مفعل ومعناه الخالق للأشياء والمخترع لها عن غير مثال سابق.

قال الراغب:

«الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه قيل: (ركية بديع) أي جديدة الحفر وإذا استعمل في الله فهو إيجاد الشيء بغير آلةٍ ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله.

والبديع يقال للمبدع نحو قوله: **﴿بديع السموات والأرض﴾** ويقال للمبدع: (ركية بديع)، وكذلك (البدع) يقال لهما جميعًا بمعنى الفاعل والمفعول.

وقوله تعالى: **﴿قل ما كنت بدعًا من الرسل﴾** قيل معناه مبدعًا لم يتقدمني رسول، وقيل مبدعًا فيما أقوله» اهـ.

والعجب من قول الراغب إذا استعمل في الله -تعالى- كان معناه إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولامكان، فإنه إذا سلم أن خلقه -تعالى- للأشياء لا يحتاج فيه إلى توسط آلة بل لا يتوقف إلا على إرادته له، كما قال تعالى: **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾** فكيف يتصور الإيجاد من غير مادة ولا زمان ولا مكان مع أن هذه الثلاثة لازمة للخلق، فإن كل مخلوق لا بد له من مادة سابقة عليه.

لا بد أن يكون وجوده مبتدأ من لحظة معينة في الزمان، ولا بد أن يكون وجوده كذلك في حيز ومكان. ولعل مما يشهد قوله -تعالى- من سورة «فصلت» **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾** فإنها تدل على أن السماء كانت عند استوائه سبحانه إليها وقصده إلى خلقها كانت دخانًا.

وقوله في سورة «الرحمن»: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار﴾**.

وقد روى مسلم في صحيحه: (خلق الله الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار. وخلق آدم مما وصف لكم).

والحاصل: أن اسمه -تعالى- (البديع) دال على أنه مخترع الأشياء من غير أن يستعين فى ذلك بخالق إذ لا خالق غيره سبحانه وهو الذى يبدىء الخلق ثم يعيده كما بدأه.

ولم يرد هذا الاسم الكريم فى القرآن الكريم إلا مرتين إحداهما قوله -تعالى- فى سورة البقرة بصدد الرد على النصارى فى نسبتهم الوالد إلى الله -عز وجل-: ﴿**وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون. بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ والثانية فى سورة الأنعام فى معرض الرد على المشركين كذلك فى قولهم أن الملائكة بنات الله.

قال -تعالى- ﴿**بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم**﴾.

وأما فى السنة فقد كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى دعائه: «يا بديع السموات والأرض».

وأما اسمه -تعالى-:

• الهادى •

فهو اسم فاعل من الهدى الذى هو مقابل الضلال.

ومعناه قال (ابن الأثير): هو الذى بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لابد له منه فى بقائه ودوام وجوده.

وقد ورد هذا الاسم كثيراً فى القرآن أحيانًا بلفظه كقوله تعالى: ﴿**وأن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم**﴾ وأحيانًا بصيغ الفعل المنصرفة منه كقوله -تعالى- من سورة طه: ﴿**قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**﴾ وكقوله -تعالى- من سورة الأعلى ﴿**الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى**﴾ وقوله من سورة البقرة: ﴿**يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً**﴾ وقوله من نفس السورة فى شأن تحويل القبلة: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله**

المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ إلى غير ذلك من الآيات التى لا تكاد تحصر فى نسبة الهداية والضلال إلى الله -عز وجل-.

ولكن ينبغى أن يعلم أن الهداية المختصة بالله جل شأنه هى خلقه الهدى والضلال فى قلب العبد ولهذا نفاها الله عن نبيه ﷺ حيث قال من سورة القصص: **﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾**.

وأما الهداية بمعنى البيان والدلالة والإفهام فقد يوصف بها الرسول ﷺ كما فى قوله -تعالى- فى سورة الشورى: **﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾**.

ويوصف بها القرآن العظيم كما فى قوله من سورة الإسراء: **﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾** وقوله من سورة المائدة: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**.

وفى الصحيح أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانو فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم**».

وفى الدعاء الآخر: «**اللهم إنى أسألك التقى والهدى والعفاف والغنى**».

الهداية على أربعة أوجه:

قال الراغب فى (المفردات) ما ملخصه: وهداية الله -تعالى- للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التى عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التى أعم منها كل شىء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: **﴿وبنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾**.

الثانى: الهداية التى جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال

القرآن ونحو ذلك وهو مقصود بقوله -تعالى- ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى وهو المعنى بقوله: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى**﴾ ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾. ﴿**يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾ ﴿**لنهدينهم سبلنا**﴾.

الرابع: الهداية فى الآخرة إلى الجنة المعنى بقوله: ﴿**سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم**﴾ ﴿**ونزعنا ما فى صدورهم من غل - إلى قوله - الحمد لله الذى هدانا لهذا**﴾.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التى قبلها ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله. والإنسان لا يقدر أن يهدى أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطرق، دون سائر أنواع الهدايات وإلى الأول أشار بقوله: ﴿**وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم**﴾ ﴿**يهدون بأمرنا - ولكل قوم هاد**﴾ وكل هداية ذكر الله -عز وجل- أنه منع الظالمين والكافرين فهى الهداية الثالثة. وهى التوفيق الذى يختص به المهتدين. والرابعة التى هى الثواب فى الآخرة وإدخال الجنة نحو قوله: ﴿**كيف يهدى الله قومًا - إلى قوله - والله لا يهدى القوم الظالمين**﴾.

وكقوله: ﴿**ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين**﴾ وكل هداية نفاها الله عن النبى ﷺ وعن البشر وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهى ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق، وإدخال الجنة. كقوله عز ذكره ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء - وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم - إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل**﴾ ﴿**ومن يضلل الله فماله من هاد. ومن يهد الله فماله من مضل**﴾ ﴿**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء**﴾ اهـ.

وهكذا أطال الراغب وأجاد فى ذكر أنواع الهداية وبيان ما هو مختص بالله جل شأنه وما هو مشترك بينه وبين غيره، إلا أنه لم يذكر الهداية العامة التى

هدى الله بهـا كل مخلوق إلى القيـام بالوظيفـة التى هيـأه لها بما من الغـرائز والقوى والآلات التـى يحتاجـها، ولعل هذا النوع من الهـداية التى يرجع إلى الإلهام والتسخير هو المقـصود فى قوله -تعالى- من سورة طه: ﴿قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾.

وقوله فى سورة الأعلى: ﴿الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى﴾.

وقوله من سـورة النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتـخذى من الجـبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً﴾.

نسأل الله أن يهدينا صـراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليـهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين.

ومن أسمائه الحسنى -سبحانه-:

• الرشيد والصبور •

ولم يجئ واحد منـهما فى القـرآن الكريم وصفًا لله -عـز وجل- بلفظه، ولكن ورد كل منهما وصفًا لبعض عباده. كقول لوط -عليه السلام- لقومه وهو يجادلهم فى شأن ضيفه ويحذرهم من التعرض لهم بسوء:

﴿يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهـر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضـيفى أليس منكم رجل رشيد﴾.

وكقول قوم شعيب -عليه السلام- له حين دعاهم إلى الله -عز وجل-.

﴿يا شعيب أصلاتك تـأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل فـى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾.

وكقوله -تعالى- من سورة لقمان -عليه السلام- ﴿ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

أما الرشـيد فهـو مشـتق من الرشد الذى هو ضد الغـى ومعناه: الذى لا يقول ولا يفعل إلا ما كان صوابًا.

فقوله سبحانه وفعله كله رشد وفى أعلى الغايات من الاستقامة والسداد، لا يمكن أن يداخله شيء من ضلال أو انحراف .

فكلماته وأقواله القدرية التى يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور، كلها حق ورشد لاشتمالها على الحكم والمصالح والغآيات الحميدة، وعلى تمام الحسن ونهاية الإتقان.

قال -تعالى- ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً**﴾.

وقال جل شأنه : ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لا عبين. ما خلقناهم إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾

وقال سبحانه : ﴿**صنع الله الذى أتقن كل شيء، إنه خبير بما تفعلون**﴾.

وقال : ﴿**الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾.

*** من أعظم الكلمات:**

وأقواله وكلماته الشرعية الدينية وهى التى تكلم بها فى كتبه وعلى ألسنة رسله رشد كلها، فإنها مشتملة على الصدق التام فى الإخبار والعدل التام فى الإحكام، فلا أحد أصدق من الله قيلا، ولا أحسن منه حديثًا. قال -تعالى- ﴿**وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم**﴾.

فهذه الكلمات من أعظم وأجل ما يرشد به العباد. بل لا يحصل لأحد الرشاد بغيرها أصلاً، فمن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فى جميع أمره فليس هو برشيد. إذ يحصل بها الرشد العلمى، وهو معرفة الحقائق التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الوحى، والوقوف على المصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها كذلك الرشد العملى، فإنها تزكى النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأحوال وأحسن الأخلاق، وترغب فى كل جميل، وترهب من كل ذميم رذيل.

وبالجملة فإن الله سبحانه لم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى والإرشاد الكامل، فهو سبحانه الرشيد الذى

كم بفضله هدى ضالا وأرشد حائرًا، وخصوصًا من تعلق به وطلب الهدى منه من صميم قلبه، وعلم أنه المنفرد بالهداية.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- فى القصيدة النونية:

وهو الرشيد فقوله وفعاله ... رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصفه ... والفعل للإرشاد ذاك الثانى

وأما اسمه -تعالى- :

• الصبور •

فإنه مبالغة من صابر، ومعناه: الكثير الصبر. والصبر فى الأصل حبس النفس على ما تكره من الآلام والمشتقات انتظارًا لحسن العاقبة ونفى الهلع والجزع عنها.

والصبر فى حقه سبحانه معنى يليق بذاته إذ لا يبلغ أحد من العباد صبره. والمراد به حلمه -سبحانه وتعالى- على أعدائه ومتابعة نعمه عليهم وعدم معالجتهم بالعقوبة مع إيذائهم إياه بتكذيبه ومعاندة رسله.

قال ﷺ فى الحديث الصحيح «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله -عز وجل-، يجعلون له الولد وهو يعفيهم ويرزقهم**».

وثبت فى الصحيح أيضًا قال -تعالى- «**كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياى فقوله، لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته، وأما شتمه إياى فقوله أن لى ولدًا، وأنا الواحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**».

فالله -تعالى- يدرُّ على عباده الأرزاق، المطيع منهم والعاصى.

والعصاة لا يزالون فى محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعى فى إطفاء دينه. والله -تعالى- حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون فى الشرور وهو يتابع عليهم النعم. فلا أحد أكمل صبرًا من الله -عز وجل- لأنه

صبر عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق، وكمال رحمة وإحسان.

فتبارك الرب الرحيم الذى ليس كمثله شىء، الصبور الذى يحب الصابرين ويعينهم فى كل أمورهم.

﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

ومن أسمائه الحسنى سبحانه:

• الواجد •

وهو من الوجد بضم الواو، بمعنى الغنى والسعة كما فى قوله **تعالى: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾** أى مما وجدتموه وقدرتم عليه.

ولم يذكر هذا الاسم فى القرآن بلفظه ولكن مرادفه وهو **﴿الغنى﴾** قد ذكر كثيراً فى القرآن فإن الاسمين بمعنى واحد، أو هما على الأقل متقاربان فلا يتحقق الغنى إلا مع وجود الشىء وتملكه. وأما فقده فهو الفقر أو العدم، فالغنى يقابله الفقر والوجد يقابله العدم، ومعنى كونه -تعالى- (واجدًا) أن كل أسباب الغنى حاصلة له، فهو لا يفتقر إلى شىء أصلاً لا فى وجوده، ولا فيما يجب له من صفات الكمال، فكلها حاصلة على أكمل وجه وأتمه من غير أن يفتقر فى حصولها إلى أحد. فإن غناه وصف ذاتى له لا ينفك عنه لحظة، فلا يتصور فى حقه فقر ولا حاجة، كما أن فقر الأشياء كلها إليه فقر ذاتى لا ينفك عنها لحظة فلا يتصور لها استغناء عنه أبدًا لا فى ابتداء وجودها ولا فى دوام وجودها، ولا فيما يمدها به من أسباب الترقى والكمال.

وإطلاق هذا الاسم على الله -عز وجل- خير من إطلاق هذا الاسم المحدث الذى يطلقه عليه علماء الكلام وهو قولهم (موجود) فإن الواجد كما قلنا أفاد استغناءه فى وجوده وفى جميع كمالاته عن غيره، بخلاف الموجود فإنه لا يدل على ذلك. إذ من الموجودات ما هو ممكن محتاج فى وجوده إلى غيره. ولهذا يحتاج هؤلاء إلى أن يقولوا: «موجود واجب الوجود».

ولا شك أن لفظ الوجد على اختصاره أفاد هذا المعنى وزيادة، فضلاً عما

امتاز به من مجيئه على اسم الفاعل دون اسم المفعول.

وحينئـذ فلا يجـوز أن يعدل عن ألفـاظ الشرع إلى تلك الألفـاظ المحدثة المبتدعة. فإن ألفاظ النصوص فيها من الدقة والعمق والدلالة على المعنى المقصود ما لا يمكن أن يتوفر فى غيرها. ولنـضرب لك مثلاً آخر يوضح لك الفرق بين ألفاظ الشـرع وألفاظ أهل البدعة فنقـول: لقد سمى الله -عز وجل- نفـسه فى كتـابه (الأول) فوضح المتكـلمون بدلاً عنه القـديم، وأنت إذا تأملت هذا اللفظ وجـدته مع اسـتـهجـانه فى النطـق لا يدل على المعنى المطلوب، وهو تقـدمـه -تعالى- على كل شيء، فـإنه موضوع لكل مـا تقدم بالزمان على غيـره سواء كان تقدمه مطلقًا أو نسبيًا، ولهذا توصف به بعض الحادثات باعتبار تقدمها على غيرها مما يسمى جديدًا بالنسبة لها. كقول أبناء يعقوب -عليه السلام- له: ﴿**تالله إنك لفى ضلالك القديم**﴾ وكقوله -تعالى- من سورة يس: ﴿**والقمر قدرناه حتى عاد كالعرجون القديم**﴾ وكقول إبراهيم -عليـه السلام- لقومه: ﴿**أفرأيتم ما كنتم تعبـدون. أنتم وآباؤكم الأقـدمون**﴾ وكقـول الفقهـاء. قال الشـافعى فى المذهب القديم كذا وقال فى الجديد كذا:

وأما لفظ (الأول) فإنه مع حلاوة جـرسه يدل على سبقه سبـحانه للأشياء كلها بحـيث لا يكون شيء منها سابقًا عليـه ولا مقارنًا له وبهذا فـسره الرسول ﷺ بقوله: «أنت الأول فليس قـبلك شيء» كما يدل على أن الأشيـاء كلها آيلة ومستندة إليه فـإن الأول مأخوذ من الأول وهو الرجوع والانتهاء، فـهو مبدأ كل موجود ونهاية كل مقصود.

ومن الأسماء الحسنى كذلك:

• الماجـد والمجيـد •

وهما من المجـد الذى هو الشرف والسـعة وكثـرة الخيـر، فهو إلى كـثرة الصفات الوجودية وسعتها وبلوغها غاية الكمال والعظمة، كما يدل على عظيم فضله وإحسانه وبره وجوده.

وقد ورد في القرآن اسمه -تعالى- (المجيد) قال -تعالى- في سورة هود على لسان الرسل الذين جاءوا إبراهيم للبشارة بإسحق: ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾ وقال سبحانه من سورة البروج: ﴿ **وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد** ﴾ فقد قرئ المجيد بالرفع على أنه اسم الله، كما قرئ بالجر على أنه صفة للعرش. والقراءة الأولى أولى وأصح. وقد ورد في الصحيح أنه ﷺ كان يقول أحيانًا عند الرفع من الركوع: «**اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد**».

ويقول أمية بن أبي الصلت في بعض شعره في التوحيد:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي بهر الناس ... وسوى فوق السماء سريرا

شرجعًا ما يناله بصر العين ... ترى حوله الملائك صورا

وكثيراً ما يجمع بين اسمه -تعالى- (الحميد) وبين اسمه (المجيد) كما في الآية السابقة، وكما في قولنا في التشهد عند الصلاة على النبي ﷺ: «إنك حميد مجيد».

والحكمة في هذا الاقتران أن الحمد دال على كمال الأفعال والمجد دال على كمال الصفات فمن جمع بينهما فقد أثبتت لله الكمال كله في صفته وفعله. والله -تعالى- أعلم.

وإذا كانت أسماؤه -عز وجل- وما تتضمنه من معان ومدلولات مما لا يفي به الحصر ولا يمكن أن يتسع له جهد بشر، فإني أكتفي بهذا القدر الذي قدمته في التعليق على ما تقدم من الأسماء الحسنى التي تعتبر كالأصول لما دونها. وأذكر هنا جملة من القواعد الهامة التي تجب مراعاتها في باب الصفات عامة، وهي قواعد تعصم المتمسك بها من الزيغ والانحراف في هذا الباب الذي ضل فيه كثير من الطوائف لعدم اتباعهم للنصوص من الكتاب والسنة وتعويلهم على ما يسمونه عقلية أو مكاشفات صوفية أو غير ذلك مما ابتدعه الناس بأهوائهم

فأفضلهم عن المنهج الصحيح فى هذا الباب بل وفى كل ما أخبر عنه الشرع من الغيوب التى لا مجال للعقول فى بحثها والتفتيش عنها. وظيفتها فقط أن تؤمن بصدق الخبر عنها ولا تجعله من مجالات العقول، ثم تمسك عما وراء ذلك من حقائق هذه الأخبار وكيفياتها.

وإليك أيها القارىء بعض هذه القواعد، فاحفظها وتفهمها لتكون من المهتدين على بصيرة.

أولاً: ليس كل ما يجوز الإخبار به عنه سبحانه يكون داخلاً فى باب أسمائه وصفاته فإن ما يدخل فى باب الأخبار أوسع مما يدخل فى باب الأسماء والصفات وذلك مثل: الشيء والموجود والقائم بنفسه، وغيرها من الألفاظ التى تتضمن معانى صحيحة ولكن لم يرد الشرع بتسميته سبحانه بها فهى إخبار عنه وليست أسماء.

ثانيًا: إن الصفة إذا كان إطلاقها محتملاً للكمال والنقص لم تدخل بمطلقها فى أسمائه بل لا يطلق عليه منها إلا ما كان كمالاً، وذلك مثل المريد والفاعل والصانع، فلا يجوز أن يسمى فى حال الإطلاق بل لا بد من تقييدها بما يجعلها متمحضة للكمال كقوله -تعالى-: ﴿**فعال لما يريد**﴾ وكقوله: ﴿**صنع الله الذى أتقن كل شيء**﴾.

ثالثًا: أنه لا يلزم من الأخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق، فلا يجوز مثلاً أن يسمى ماكراً لأنه قال ﴿**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**﴾ ولا فاتنًا لأنه قال ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ ولا كائدًا ولا مضلاً ولا مستهزئًا أخذًا من الآيات التى نسبت إليه ذلك فعلاً. فهذه كلها من باب الإخبار لا الأسماء.

رابعًا: إن الاسم إذا أطلق عليه سبحانه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل وأن يقع كل منهما خبراً عنه وذلك مثل: السميع، البصير، القدير، فيقال هو ذو سمع وبصر وقدرة كما قال ﴿**قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾ وكما قال: ﴿**فقدرنا فنعم القادرون**﴾.

خامسًا: إن أسماءه سبحانه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً. وإذا كان هناك من الأسماء ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيى والمميت، فهى تدل على أن أفعاله كلها خير محض لا يدخلها الشر بوجه، إذ لو فعل الشر لجاز أن يشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى. فالشر لا يضاف إليه سبحانه، لا فعلاً ولا وصفًا وإنما يدخل فى مفعولاته التى هى مخلوقة منفصلة عنه.

سادسًا: إن كل ما يطلق عليه وعلى غيره من الأسماء والصفات له ثلاث اعتبارات؛ لأنه إما أن يؤخذ من حيث هو بقطع النظر عن تقيده بالرب تبارك وتعالى أو بالعبد، وإما أن يؤخذ مضافًا إلى الرب مختصًا به وإنما أن يؤخذ مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما أخذ مضافًا إلى الرب فهو مختص به لا يشاركه فيه المخلوق، وما أخذ مضافًا إلى العبد فهو صفته التى يتنزه عنها الخالق. وما أخذ مطلقًا غير ثابت للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد منه ما يليق به. وهذا كاسم السميع الذى يلزمه إدراك المسموعات والبصير الذى يلزمه رؤية المبصرات والعليم القدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما يلزمه هذه الأسماء لذاتها عند الإطلاق فإثباته للرب جل شأنه لا محذور فيه بوجه، ولكن تثبت له على وجه لا يماثله فيه خلقه، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد فى أسمائه وجحد فى صفات كماله. ومن أثبته على وجه يماثل فيه خلقه به فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر وأما من أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برىء من التعطيل والتشبيه جميعًا. وهذا هو طريق أهل السنة الوسط بين الفريقين.

سابعًا: إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله -تعالى- من الأسماء والصفات ما استأثرها هو بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل، كما فى الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم

الغيب عندك» وكما فـى قوله -عليه السلام-: «**سبحـانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

ثامنًا: إن من أسماءه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات بحيث يكون متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة وذلك مثل السميع العظيم والمجيد والصمد، وقد فسر ابن عباس الصمد بأنه السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه العظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه إلخ. ثم قال هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شىء سبحانه الله الواحد القهار.

تاسعًا: إن الإلحاد فى أسمائه تعالى أنواع: أحدها أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز، وكتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة لأنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثانى: تسميته بما لا يليق به، كتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعله بالطبع، أو نحو ذلك..

ثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول اليهود قبحهم الله: إنه فقير وأنه استراح يوم السبت بعد أن فرغ من الخلق. وقولهم يد الله مغلولة.

رابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية، إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانى، وأنها أسماء مترادفة مدلولها هو نفس الذات، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحى والرحيم، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة.

وهذا من أعظم الإلحاد فى أسمائه، فإن كل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد فى ذلك.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقوله هؤلاء المشبهة. وإلحاد هؤلاء يقابله المعطلة. فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها،

وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه. فجمعهم الإلحاد وإن تفرقت بهم سبله، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ومعنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وكان تنزيههم خاليًا من التعطيل. والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

سبق أن ذكرنا أن صفاته -عز وجل- تنقسم إلى صفات ذاتية لازمة لذاته لا تنفك عنها ولا تكون تابعة لمشيئته -تعالى- وقدرته مثل علمه وحياته وعظمته وكبريائه ومجده وجلاله. وإلى صفات فعلية لا تكون لازمة للذات أزلاً وأبدًا بل تحدث فى ذاته بقدرته تبعًا لمشيئته -تعالى- وحكمته وتلك مثل محبته ورحمته ورضاه وغضبه وعفوه وانتقامه. ومثل صفات الخلق والرزق والإعطاء والإحياء والإماتة والإشقاء والإسعاد والإضلال والهداية إلخ.

وقد اختلف الناس فى صفات الأفعال هذه اختلافًا كبيرًا ليس سببه أبدًا اشتباهًا فى النصوص ولا غموضًا فى الإفهام والدلالة فإن النصوص فى هذا الباب صريحة كل الصراحة لا تلتوى إلا على ذوى الأفهام المدخولة والبصائر التى تدنست بأرجاس الكلام الباطل والفلسفات الوثنية الجائرة فعميت عليها السبل ولم تهتد إلى الحق الصريح من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

لقد اتفق المتكلمون من معتزلة وأشعرية على نفى صفات الأفعال فليس لله عندهم فعل يكون صفة له قائمة به فخلقه -تعالى- للأشياء لا يستلزم أن تقوم به صفة هى الخلق ورزقه للعباد لا يستلزم به الرزق وهكذا فى كل صفات الأفعال وحجتهم فى ذلك أن هذه الأفعال إذا وجدت لا تكون إلا حادثة وبناء على ما أسسوه من قواعد الكلام الباطل يمتنع عندهم قيام الحادث بالقديم فلا يتجدد عندهم فى ذاته شىء ولا يحدث له معنى لم يكن بل هو الآن على ما عليه كان وسلطوا النفى والتأويل على كل ما تضمنته نصوص الكتاب والسنة من صفات الأفعال وأرجعوها إلى تعلقات وإضافات لصفتى القدرة والإرادة فهو

عندهم لم يزل متكلمًا بكلام هو معنى قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت ولم يزل محبًا لمن علم أنه يموت مؤمنًا ولم يزل ساخطًا من علم أنه يموت كافرًا، ولا معنى لمحبته إلا إرداة الثواب ولا لكراهته إلا إرادة العقاب ولا لأحمته إلا إرداة النفع والإحسان إلى عباده إلى غير ذلك مما امتلأت به كتبهم ولا سيما طائفة الأشعرية الذين يزعمون أنهم أهل السنة والجماعة.

أدلة الصفات الاختيارية:

وإني أضع بين يديك أيها الأخ الكريم طائفة من نصوص الكتاب والسنة التى تثبت لله -عز وجل- الصفات الاختيارية والتى تشهد على هؤلاء المتكلمين بالزيغ والانحراف ومجانبة الحق فى هذا الباب كما فعلوا بالنسبة للصفات الخبرية التى ورد بها النقل الصحيح كالوجه واليد والعين والاستواء والنزول لتعلم أن القوم إنما يتبعون أهواءهم وأنهم لا يرجعون فى شىء من عقائدهم إلا ما أسسه لهم أسلافهم فى الضلال من الزنادقة والمتفلسفة وأن آراءهم لا تمثل العقيدة الإسلامية لا من قريب ولا من بعيد وأن الحق فى هذا الباب لا يمكن أن يعدو الكتاب والسنة وأن الواجب الاعتصام بهما وحدهما فى هذه المزالق الخطرة وأن من قال فى الله بغيرهما فقد افترى على الله الكذب وقال عليه مالا يعلم وجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وإليك الآيات والأحاديث بغير تعليق إذ هي أوضح من كل تعليق. قال الله -تعالى- من سورة البقرة ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾، ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾. ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾.

وقال من سورة آل عمران: ﴿ **قل إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكن ذنوبكم** ﴾، ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا** ﴾.

وقال -تعالى- من سورة النساء: ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا** ﴾. وقال سبحانه من سورة المائدة ﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا** ﴾ ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت** ﴾ ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم** ﴾ ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك** ﴾ وقال جل شأنه من سورة الأنعام: ﴿ **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** ﴾ ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد فى السماء** ﴾.

وقال سبحانه من سورة الأعراف ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلك فى الحياة الدنيا** ﴾ ﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون.... الآية** ﴾ ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾.

وقال -تعالى- من سورة الأنفال: ﴿ **ومن يوليهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله** ﴾ ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾، ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا** ﴾ ﴿ **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾.

وعدنا فى ما سبق أن نذكر بقية الآيات والأحاديث الدالة على ما اتصف به سبحانه من صفات الأفعال الاختيارية المتعلقة وقدرته والتى نفاها علماء الكلام الباطل من المعتزلة والأشعرية بناء على أصلهم الفاسد فى امتناع قيام الحوادث بذاته والتزموا من أجل ذلك تأويل ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسنة ونحن نفى إن شاء الله بما وعدنا به ونذكر بقية الآيات المتعلقة بهذا الموضوع ثم نتبعها بما صح من أحاديث رسول الله ﷺ.

يقول الله -تعالى- من سورة الأنفال: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ ويقول سبحانه من نفس هذه السورة: ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾.

ويقول من هذه السورة كذلك: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾.

ويقول منها أيضاً ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم مما أخذتم منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾.

ويقول سبحانه من سورة براءة: ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾.

ويقول منها كذلك: ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾.

ويقول منها أيضاً ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾.

ويقول سبحانه من سورة يونس -عليه السلام- ﴿ إن ربكم الله الذى خلق

السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون. إليه مرجعكم جميعًا وعد الله حقًا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾.

ويقول منها كذلك: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون. كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون. قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون. قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون ﴾.

ويقول جل شأنه من سورة هود -عليه السلام- حكاية عما خاطب به نوح قومه ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾.

ويقول -تعالى- من سورة يوسف -عليه السلام- ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم ﴾.

ويقول من نفس السورة ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾.

ويقول عز اسمه من سورة الرعد ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾.

ويقول من نفس السورة ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بأذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ .

ويقول من سورة إبراهيم -عليه السلام- ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ .

ويقول سبحانه من سورة النحل ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أنه لا يحب المستكبرين﴾ .

ويقول من نفس السورة ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وأولئك هم الكاذبون. ومن كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ .

ويقول جل شأنه من سورة بنى إسرائيل ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ .

ويقول من نفس السورة ﴿ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ .

ويقول سبحانه من سورة مريم عليها السلام: ﴿واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصًا وكان رسولاً نبيًا. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا﴾ .

ويقول جل وعلا من سورة طه : ﴿وهل آتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك

فاستمع لما يوحى ﴾ .

ويقول من نفس السورة : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى - إلى قوله لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ .

ويقول سبحانه من سورة الشعراء : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون** ﴾ .

ويقول من نفس السورة فى آخرها : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم** ﴾ .

ويقول من سورة النمل فى شأن قوم صالح -عليه السلام- : ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ .

ويقول من سورة القصص : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ .

ويقول من نفس السورة : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك** ﴾ ويقول كذلك ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ .

ويقول من سورة العنكبوت ﴿ **آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ .

ويقول من آخر هذه السورة : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين** ﴾ .

ويقول من سورة محمد ﷺ : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ .

ويقول من سورة الفتح : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ .

ويقول من سورة الحجرات :﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة ﴾ .

ويقول من سورة المجادلة : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

●●●

• ١٠٠ سؤال وجواب فى أهم أمور الاعتقاد •

س١: ما أول ما يجب على العباد؟

ج: أول ما يجب على العباد معرفة الأمر الذى خلقهم الله له ؛ وأخذ عليهم الميثاق به وأرسل به رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار وبه حقت الحاقة ووقعت الواقعة وفى شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصحف وفيه تكون الشقاوة والسعادة وعلى حسبه تقسم الأنوار ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

س٢: ما هو ذلك الأمر الذى خلق الله الخلق لأجله؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الدخان: ٣٨- ٣٩) وقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ (ص: ٢٧) وقال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ (الجاثية: ٢٢) وقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات: ٥٦) الآيات.

س٣: ما معنى العبد؟

ج: العبد إن أريد به المعبد أى المذلل المسخر فهو بهذا المعنى شامل لجميع المخلوقات من العوالم العلوية والسفلية من عاقل وغيره ورطب ويابس ومتحرك وساكن وظاهر وكامن ومؤمن وكافر وبر وفاجر وغير ذلك ،الكل مخلوق لله - عز وجل - مربوب له مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهى إليه وكل يجرى لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا**

أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١) وتدبير العدل والحكيم، وإن أريد به العابد المحب المتذلل خص ذلك بالمؤمنين الذين هم عباده المكرمون، وأولياؤه المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

س٤ : ما هى العبادة؟

ج: العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال الظاهرة والباطنة والبراءة مما ينافى ذلك ويضاده.

س٥ : متى يكون العمل عبادة؟

ج: إذا كمل فيه شيئان، وهما: كمال الحب مع كمال الذل قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** ﴾ (البقرة: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٥٧) وقد جمع الله -تعالى- بين ذلك فى قوله: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

س٦ : ما علامة محبة العبد ربه - عز وجل -؟

ج: علامة ذلك أن يحب ما يحبه الله -تعالى- ويبغض ما يسخطه فيمتثل أوامره ويجتنب مناهيه ويوالى أولياءه ويعادى أعداءه ولذا كان أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فيه.

س٧ : بماذا عرف العباد ما يحبه الله ويرضاه؟

ج: عرفوه بإرسال الله -تعالى- الرسل وإنزاله الكتب آمرًا بما يحبه الله ويرضاه ناهيًا عما يكرهه، ويأباه وبذلك قامت عليهم حجته الدامغة، وظهرت حكمته البالغة قال الله -تعالى-: ﴿ **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (النساء: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (آل

عمران: ٣١).

س٨: كم شروط العبادة؟

ج: ثلاثة: الأول صدق العزيمة وهو شرط في وجودها والثاني إخلاص النية والثالث موافقة الشرع الذي أمر الله -تعالى- أن لا يدان إلا به وهما شرطان في قبولها.

س٩: ما هو صدق العزيمة؟

ج: هو ترك التكاسل والتواني وبذل الجهد في أن يصدق قوله بفعله قال الله -تعالى-: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف: ٢ - ٣).

س١٠: ما معنى إخلاص النية؟

ج: هو أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة ابتغاء وجه الله -تعالى- قال الله - عز وجل -: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة: ٥) وقال تعالى: ﴿ **وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ** ﴾ (الليل: ١٩ - ٢٠) وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ (الإنسان: ٩) وقال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ (الشورى: ٢٠) وغيرها من الآيات.

س١١: ما هو الشرع الذي أمر الله -تعالى- أن لا يدان إلا به؟

ج: هي الحنفية ملة إبراهيم -عليه السلام- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ (آل عمران: ١٩) وقال تعالى: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ (آل عمران: ٨٣) وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ (البقرة: ١٣٠) وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾

(آل عمران: ٨٥) وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٢١) وغيرها من الآيات.

س ١٢: كم مراتب دين الإسلام؟

ج: هو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وكل واحد منها إذا أطلق شمل الدين كله.

س١٣: ما معنى الإسلام؟

ج: معناه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: ١٢٥) وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢) وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج: ٣٤).

س١٤: ما الدليل على شموله الدين كله عند الإطلاق؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال النبي ﷺ وعلى آله وسلم: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**» وقال ﷺ: «**أفضل الإسلام إيمان بالله**» وغير ذلك كثير.

س١٥: ما الدليل على تعريفه بالأركان الخمسة عند التفصيل؟

ج: قوله ﷺ في حديث سؤال جبريل إياه عن الدين «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» وقوله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» فذكر هذه غير أنه قدم الحج على صوم رمضان وكلاهما في الصحيحين.

س١٦: ما محل الشهادتين من الدين؟

ج: لا يدخل العبد فى الدين إلا بهما. قال الله -تعالى-: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (النور: ٦٢) وقال النبى ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»** الحديث وغيره كثير.

س١٧: ما دليل شهادة أن لا إله إلا الله؟

ج: قول الله -تعالى-: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (آل عمران: ١٨) وقوله تعالى: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾** (محمد: ١٩) وقوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** (ص: ٦٥) وقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** (المؤمنون: ٩١) الآيات. وقوله تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾** (الإسراء: ٤٢) الآيات وغيرها.

س١٨: ما معنى شهادة أن لا إله إلا الله؟

ج: معناها: نفى استحقاق العبادة عن كل ما سوى الله وإثباتها لله - عز وجل - وحده لا شريك له فى عبادته كما أنه ليس له شريك فى ملكه. قال الله -تعالى-:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (الحج: ٦٢).

س١٩: ما هى شروط شهادة أن لا إله إلا الله التى لا تنفع قائلها إلا باجتماعها فيه؟

ج: شروطها سبعة: الأول: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا. الثانى: استيقان

القلب بها. الثالث: الانقياد لها ظاهرًا وباطنًا. الرابع: القبول لها فلا يرد شيئًا من لوازمها ومقتضياتها. الخامس: الإخلاص فيها. السادس: الصدق من صميم القلب لا باللسان فقط. السابع: المحبة لها ولأهلها، والموالاة والمعادة لأجلها.

س٢٠: ما دليل اشتراط العلم من الكتاب والسنة؟

ج: قول الله -تعالى-: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ (محمد: ١٩). أى بلا إله إلا الله ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ**﴾ (الزخرف: ٨٣) بقلوبهم معنى ما نطقوا بألسنتهم. وقول النبى ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**».

س٢١: ما دليل اشتراط اليقين من الكتاب والسنة؟

ج: قول الله - عز وجل -: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (الحجرات: ١٥) وقول النبى ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة» وقال ﷺ لأبى هريرة: «من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة» كلاهما فى الصحيح.

س٢٢: ما دليل اشتراط الانقياد من الكتاب والسنة؟

ج: قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (لقمان: ٢٢) وقال النبى ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

س٢٣: ما دليل اشتراط القبول من الكتاب والسنة؟

ج: قال الله -تعالى- فى شأن من لم يقبلها: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾ إلى قوله ﴿ **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ (الصافات: ٢٢ - ٣٦) الآيات وقال النبى ﷺ: «**مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ**

والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا ؛ وأصاب منها طائفة أخرى هذا قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

س٢٤: ما دليل اشتراط الإخلاص من الكتاب والسنة؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ (الزمر: ٣) وقال تعالى: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ (الزمر: ٢) وقال النبى ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه» وقال النبى ﷺ: «إن الله -تعالى- حرم النار على من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله».

س٢٥: ما دليل الصدق من الكتاب والسنة؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿**الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ (العنكبوت: ١ - ٣) إلى آخر الآيات وقال النبى ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار». وقال للأعرابى الذى علمه شرائع الإسلام إلى أن قال: «والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها». فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق».

س٢٦: ما دليل اشتراط المحبة من الكتاب والسنة؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ (المائدة: ٥٤) وقال النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».

س٢٧: ما دليل الموالاة لله - عز وجل - والمعاداة لأجله؟

ج: قال الله - عز وجل -: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى**

أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ (المائدة: ٥١-٥٥) إلى آخر الآيات وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ (التوبة: ٢٣) الآيتين وقال تعالى: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ (المجادلة: ٢٢) وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾ (الممتحنة: ١) إلى آخر السورة وغير ذلك من الآيات.

س٢٨: ما دليل شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ؟

ج: قول الله -تعالى-: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (آل عمران: ١٦٤) الآية وقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٨) وقوله تعالى: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ (المنافقون: ١) وغيرها من الآيات.

س٢٩: ما معنى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ؟

ج: هو التصديق الجازم من صميم القلب المواطىء لقول اللسان بأن محمداً عبده ورسوله إلى كافة الناس إنسهم وجنهم ﴿شاهدًا ومبشرًا ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦) فيجب تصديقه فى جميع ما أخبر به من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتى وفيما أحل من حلال وحرم من حرام، والامتثال والانقياد لما أمر به، والكف والانتهاء عما نهى عنه، واتباع شريعته والتزام سنته فى السر والجهر مع الرضا بما قضاه والتسليم له، وأن طاعته هى طاعة الله، ومعصيته معصية الله، لأنه مبلغ عن الله رسالته ولم يتوفه الله حتى أكمل به الدين وبلغ البلاغ المبين وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. وفى هذا الباب مسائل ستأتى إن شاء الله.

س ۳۰: ما شرط شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وهل تقبل الشهادة الأولى بدونها؟

ج: قد قدمنا لك أن العبد لا يدخل فى الدين إلا بهاتين الشهادتين وأنهما متلازمتان فشروط الشهـادة الأولى هى شروط فى الثانية كما أنها هى شروط فى الأولى.

س۳۱: ما دليل الصلاة والزكاة؟

ج: قـال الله -تعـالى-: ﴿**فـإن تابوا وأقـامـوا الصـلاة وآتوا الزكـاة فـخلوا سبيلهم**﴾ (التـوبة: ٥) وقـال تعـالى: ﴿**فـإن تابوا وأقـامـوا الصـلاة وآتوا الزكـاة فإخـوانكم فى الدين**﴾ (التـوبة: ١١) وقال تعـالى: ﴿**ومـا أمروا إلا ليـعبـدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**﴾ (البينة: ٥) الآية وغيرها.

س۳۲: ما دليل الصوم؟

ج: قال الله -تعـالى-: ﴿**يا أيها الذيـن آمنوا كتب عليكم الصـيام كمـا كتب على الذين من قـبلكم**﴾ (البـقرة: ۱۸۳) وقال تعـالى: ﴿**فمن شـهد منكم الشـهر فليصمه**﴾ (البقرة: ١٨٥) الآيات ؛ وفى حديث الأعـرابى: أخبرنى ما فرض الله على من الصيام: فقال: «شهر رمضان إلا أن تطوع شيئًا» الحديث.

س ۳۳: ما دليل الحج؟

ج: قال الله -تعـالى-: ﴿**وأتموا الحج والعـمرة لله**﴾ (البقـرة: ١٩٦) وقال تعالى: ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ (آل عمران: ۹۷) وقال النبى ﷺ: «إن الله -تعـالى- كتـب عليكم الحج» الحديث فـى الصحـيحـين، وتقدم حديث جبريل، وحديث «بنى الإسلام على خمس» وغيرها كثير.

س٣٤: ما حكم من جحد واحداً منها أو أقر به واستكبر عنه؟

ج: يقتل كفراً كغيره من المكذبين والمستكبرين مثل إبليس وفرعون.

س۳٥: ما حكم من أقر بها ثم تركها لنوع تكاسل أو تأويل؟

ج: أما الصلاة فـمن أخرها عن وقتها بهـذه الصفة فإنه يستـتاب فإن تاب

وإلا قتل حدًا لقوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ (التوبة: ٥) وحديث: «أمرت أن أقاتل الناس» الحديث وغيره، وأما الزكاة فإن كان مانعها من لا شوكة له، أخذها الإمام منه قهرًا ونكله بأخذ شيء من ماله لقوله ﷺ: «ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله معها» الحديث. وإن كانوا جماعة ولهم شوكة وجب على الإمام قتالهم حتى يؤديها للآيات والأحاديث السابقة وغيرها. وفعله أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم أجمعين . وأما الصوم فلم يرد فيه شيء ولكنه يؤدبه الإمام أو نائبه بما يكون زاجرًا له ولأمثاله. وأما الحج فكل عمر العبد وقت له لا يفوت إلا بالموت، والواجب فيه المبادرة وقد جاء الوعيد الأخروى فى التهاون فيه، ولم ترد فيه عقوبة خاصة فى الدنيا.

س٣٦: ما هو الإيمان؟

ج: الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويتفاضل أهله فيه.

س٣٧: ما الدليل على كونه قولاً وعملاً؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿لكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾ (الحجرات: ٧) الآية وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ (الأعراف: ١٥٨) وهذا معنى الشهادتين اللتين لا يدخل العبد فى الدين إلا بهما، وهى من عمل القلب اعتقادًا ومن عمل اللسان نطقًا، لا تنفع إلا بتواطئهما. وقال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة: ١٤٣) يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة. سمى الصلاة كلها إيمانًا وهى جامعة لعمل القلب واللسان والجوارح. وجعل النبى ﷺ الجهاد وقيام ليلة القدر، وصيام رمضان، وقيامه وأداء الخمس وغيرها من الإيمان، وسئل النبى ﷺ أى الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**».

س٣٨: ما الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه؟

ج: قوله تعالى: ﴿ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم﴾ (الفتح: ٤) ﴿وزدناهم

هدى ﴾ (الكهف:١٣) ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ (مريم:٧٦) ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ (محمد:١٧) ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيمانًا** ﴾ (المدثر:٣١) ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا** ﴾ (التوبة:١٢٤) ﴿ **فاخشوهم فزادهم إيمانًا** ﴾ (آل عمران:١٧٣) ﴿ **وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ (الأحزاب:٢٢) وغير ذلك من الآيات، وقال ﷺ : « لو أنكم تكونون فى كل حالة كحالتكم عندى لصافحتكم الملائكة » أو كما قال .

س٣٩ : ما الدليل على تفاضل أهل الإيمان فيه ؟

ج : قال تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ إلى ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ (الواقعة: ١٠ – ٢٧) وقال تعالى : ﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ (الواقعة: ٨٨ – ٩١) وقال تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات** ﴾ (فاطر: ٣٢) الآيات . وفى حديث الشفاعة : « إن الله يخرج من النار من كان فى قلبه وزن دينار من إيمان ثم من كان فى قلبه نصف دينار من إيمان » . وفى رواية : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

س٤٠ : ما الدليل على أن الإيمان يشمل الدين كله عند الإطلاق ؟

ج : قال النبى ﷺ فى حديث وفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده . قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا من المغنم الخمس » .

س٤١ : ما الدليل على تعريف الإيمان بالأركان الستة عند التفصيل ؟

ج : قول النبى ﷺ لما قال له جبريل –عليه السلام– : أخبرنى عن الإيمان قال : أخبرنى عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

س٤٢: ما دليلها من الكتاب جملة؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين**﴾ (البقرة: ١٧٧) وقوله تعالى: ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ (القمر: ٤٩) وسنذكر إن شاء الله دليل كل على انفراده.

س٤٣: ما معنى الإيمان بالله - عز وجل -؟

ج: هو التصديق الجازم من صميم القلب بوجود ذاته تعالى الذى لم يسبق بضد ولم يعقب به، هو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، حى، قيوم، أحد، صمد، ﴿**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾ (الإخلاص: ٣ - ٤) وتوحيده بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

س٤٤: ما هو توحيد الألوهية؟

ج: هو إفراد الله - عز وجل - بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً ونفى العبادة عن كل ما سوى الله -تعالى- كائنًا من كان، كما قال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ (الإسراء: ٢٣) وقال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**﴾ (النساء: ٣٦) وقال تعالى: ﴿**إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى**﴾ (طه: ١٤) وغير ذلك من الآيات وهذا قد وفت به شهادة أن لا إله إلا الله.

س٤٥: ما هو ضد توحيد الألوهية؟

ج: ضده الشرك. وهو نوعان شرك أكبر ينافيه بالكلية وشرك أصغر ينافى كماله.

س٤٦: ما هو الشرك الأكبر؟

ج: هو اتخاذ العبد من دون الله ندًا يسويه برب العالمين يحبه كحب الله،

ويخشاه كخشية الله، ويلتجيء إليه، ويدعوه، ويخافه، ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، أو يطيعه فى معصية الله، أو يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك قال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا** ﴾ (النساء: ٤٨) وقال تعالى: ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدًا** ﴾ (النساء: ١١٦) وقال تعالى: ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار** ﴾ (المائدة: ٧٢) وقال تعالى: ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ (الحج: ٣١) وغير ذلك من الآيات وقال النبى ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» وهو فى الصحيحين، ويستوى فى الخروج بهذا الشرك عن الدين المجاهر به ككفارة قريش وغيرهم، والبطن له كالمنافقين المخادعين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، قال الله -تعالى-: ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين** ﴾ (النساء: ١٤٥ - ١٤٦) وغير ذلك من الآيات.

س٤٧: ما هو الشرك الأصغر؟

ج: هو يسير الرياء الداخل فى تحسين العمل المراد به الله -تعالى-. قال الله -تعالى-: ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا** ﴾ (الكهف: ١١٠) وقال النبى ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه فقال: «الرياء» ثم فسره بقوله ﷺ: «يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه» ومن ذلك الحلف بغير الله كالحلف بالآباء والأنداد والكعبة والأمانة وغيرها. قال ﷺ: «لا تحلفوا بآباءكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد» وقال ﷺ: «لا تقولوا والكعبة ولكن قولوا ورب الكعبة» وقال ﷺ: «لا تحلفوا إلا بالله» وقال ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا» وقال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» وفى رواية «وأشرك» ومنه قوله: ما شاء الله وشئت. قال النبى ﷺ للذى قال له ذلك: «أجعلتنى لله ندًا بل ما شاء

الله وحده» ومنه قوله: لولا الله وأنت، وما لى إلا الله وأنت، وأنا داخل على الله وعليك، ونحو ذلك، قال ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان» قال أهل العلم ويجوز لولا الله ثم فلان ولا يجوز لولا الله وفلان.

س٤٨: ما الفرق بين الواو وثم فى هذه الألفاظ؟

ج: لأن العطف بالواو يقتضى المقارنة والتسوية فيكون من قال: ما شاء الله وشئت قارنًا مشيئة العبد بمشيئة الله مسويًا بها. بخلاف العطف بثم المقتضية للتبعية، فمن قال: ما شاء الله ثم شئت، فقد أقر بأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله -تعالى- لا تكون إلا بعدها. كما قال تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾ (الإنسان: ٣٠) وكذلك البقية.

س٤٩: ما هو توحيد الربوبية؟

ج: هو الإقرار الجازم بأن الله -تعالى- رب كل شىء ومليكه، وخالقه ومدبره، والمتصرف فيه، لم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له ولا مماثل ولا سمى له، ولا منازع فى شىء من معانى ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته، قال الله -تعالى-: ﴿**الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾ (الأنعام: ١) الآيات بل السورة كلها. وقال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ (الفاتحة: ١) وقال تعالى: ﴿**قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضراً. قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم. قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار**﴾ (الرعد: ١٦) الآيات وقال تعالى: ﴿**الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء. سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ (الروم: ٤٠) وقال تعالى: ﴿**هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه**﴾ (لقمان: ١١) وقال تعالى: ﴿**أم خلقوا من**

غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ (الطور : ٣٥ - ٣٦) الآيات وقال تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًا** ﴾ (مريم : ٦٥) وقال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى : ١١) وقال تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾ (الإسراء : ١١١) وقال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير** ﴾ (سبأ : ٢٢ - ٢٣) .

س ٥٠ : ما ضد توحيد الربوبية ؟

ج : هو اعتقاد متصرف مع الله - عز وجل - فى أى شيء من تدبير الكون من إيجاد أو إعدام، أو إحياء أو إماتة، أو جلب خير أو دفع شر، أو غير ذلك من معانى الربوبية أو اعتقاد منازع له فى شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته كعلم الغيب وكالعظمة والكبرياء ونحو ذلك . قال الله -تعالى- : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ (فاطر : ٢ - ٣) الآيات وقال تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ (يونس : ١٠٧) الآية . وقال تعالى : ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ (الزمر : ٣٨) وقال تبارك وتعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ (الأنعام : ٥٩) الآيات، وقال تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ (النمل : ٦٥) وقال تعالى : ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ (البقرة : ٢٥٥) وقال النبى ﷺ : « يقول الله -تعالى- : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى »، وهو فى الصحيح .

س٥١ : ما هو توحيد الأسماء والصفات؟

ج: هو الإيمان بما وصف الله -تعالى- به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وإمرارها كما جاءت بلا كيف كما جمع الله -تعالى- بين إثباتها ونفي التكييف عنها في كتابه في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا** ﴾ (طه: ١١٠) وقوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى: ١١) وقوله تعالى: ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (الأنعام: ١٠٣) وغير ذلك. وفي الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ - يعني لما ذكر آلهتهم - انسب لنا ربك فأنزل الله -تعالى-: ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد** ﴾ (الإخلاص: ١ - ٢) والصمد الذي ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ (الإخلاص: ٣) لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله -تعالى- لا يموت ولا يورث ﴿ **ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾ (الإخلاص: ٤) قال: «لم يكن له شبيه ولا عديل، وليس كمثله شيء».

س٥٢ : ما دليل الأسماء الحسنى من الكتاب والسنة؟

ج: قال الله - عز وجل -: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه** ﴾ (الأعراف: ١٨٠) وقال سبحانه: ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ (الإسراء: ١١٠) وقال - عز وجل-: ﴿ **الله لا إله هو له الأسماء الحسنى** ﴾ (طه: ٨) وغيرها من الآيات. وقال النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة» وهو في الصحيح. وقال ﷺ: «أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي» الحديث.

س٥٣ : ما مثال الأسماء الحسنى من القرآن؟

ج: مثل قوله تعالى: ﴿ **إن الله كان عليًا كبيرًا** ﴾ (النساء: ٣٤) ﴿ **إن الله كان**

لطيفًا خبيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٤) ﴿إن الله كان عليمًا قديرًا﴾ (فاطر: ٤٤) ﴿إن الله كان سميعًا بصيرًا﴾ (النساء: ٥٨) ﴿إن الله كان عزيزًا حكيمًا﴾ (النساء ٥٦) ﴿إن الله كان غفورًا رحيمًا﴾ (النساء: ٢٣، ١٠٦) ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ (التوبة: ١١٧) ﴿والله غنى حليم﴾ (البقرة: ٢٦٣) ﴿إنه حميد مجيد﴾ (هود: ٧٣) ﴿إن ربى على كل شىء حفيظ﴾ (هود: ٥٧) ﴿إن ربى لقريب مجيب﴾ (هود: ٦١) ﴿إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ (النساء: ١) ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ (النساء: ٨١) ﴿وكفى بالله حسيبًا﴾ (النساء: ٦) ﴿وكان الله على كل شىء مقيتًا﴾ (النساء: ٨٥) ﴿إنه على كل شىء شهيد﴾ (الحج: ١٧) ﴿إنه بكل شىء محيط﴾ (فصلت: ٥٤) وقال تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقال تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾ (الحديد: ٣) وقوله تعالى: ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾ (الحشر: ٢٢ - ٢٤) وغيرها من الآيات.

س٥٤: ما مثال الأسماء الحسنى من السنة؟

ج: مثل قوله ﷺ: «لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» وقوله ﷺ: «يا حيى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا بديع السموات والأرض» وقوله ﷺ: «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم» وقوله ﷺ: «اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض رب كل شىء ومليكه» الحديث. وقوله ﷺ: «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء» الحديث، وقوله ﷺ: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات

والأرض ومن فيهن» الحديث. وقوله ﷺ: «اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». وقوله ﷺ: «يا مقلب القلوب» الحديث. وغير ذلك كثير.

س٥٥: على كم نوع دلالة الأسماء الحسنى؟

ج: هى على ثلاثة أنواع دلالتها على الذات مطابقة، ودلالتها على الصفات المشتقة منه تضمنًا، ودلالتها على الصفات التى ما اشتقت منها التزامًا.

س٥٦: ما مثال ذلك؟

ج: مثال ذلك اسمه تعالى الرحمن الرحيم يدل على ذات المسمى وهو الله - عز وجل - مطابقة وعلى الصفة المشتق منها وهى الرحمة تضمنًا وعلى غيرها من الصفات التى لم تشتق منها كالحياة والقدرة التزامًا وهكذا سائر أسمائه وذلك بخلاف المخلوق فقد يسمى حكيمًا وهو جاهل، وحكمًا وهو ظالم، وعزيزًا وهو ذليل، وشريفًا وهو وضيع، وكريمًا وهو لئيم، وصالحًا وهو طالح، وسعيدًا وهو شقى، وأسدًا وحنظلة وعلقمة وليس كذلك، فسبحان الله وبحمده هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه.

س٥٧: على كم قسم دلالة الأسماء الحسنى من جهة التضمن؟

ج: هى على أربعة أقسام:

الأول: الاسم العلم المتضمن لجميع معانى الأسماء الحسنى وهو الله ولهذا تأتى الأسماء جميعها صفات له كقوله تعالى: **﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾** (الحشر: ٢٤) ونحو ذلك، ولم يأت هو قط تابعًا لغيره من الأسماء.

الثانى: ما يتضمن صفة ذات الله - عز وجل - كاسمه تعالى السميع المتضمن سمعه، الواسع جميع الأصوات، سواء عنده سرها وعلانيتها، واسمه البصير المتضمن بصره النافذ فى جميع المبصرات سواء دقيقها وجليلها. واسمه العليم المتضمن علمه المحيط الذى **﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾** (سبأ: ٣) واسمه القدير المتضمن قدرته

على كل شىء إيجادًا وإعدامًا وغير ذلك.

الثالث: ما يتضمن صفة فعل الله كالخالق الرزاق البارىء المصور وغير ذلك.

الرابع: ما يتضمن تنزهه تعالى وتقدسه عن جميع النقائص كالقدوس، السلام.

س ٥٨: كم أقسام الأسماء الحسنى من جهة إطلاقها على الله - عز وجل -؟

ج: منها ما يطلق على الله مفردًا أو مع غيره. وهو ما تضمن صفة الكمال بأى إطلاق كالحى، القيوم، الأحد، الصمد ونحو ذلك. ومنها ما لا يطلق على الله إلا مع مقابله وهو: ما إذا أفرد أوهم نقصًا كالضار النافع، والخافض الرافع، والمعطى المانع، والمعز المذل، ونحو ذلك فلا يجوز إطلاق الضار، ولا الخافض، ولا المانع، ولا المذل، كل على انفراده؛ ولم يطلق قط شىء منها فى الوحى كذلك لا فى الكتاب ولا فى السنة؛ ومن ذلك اسمه تعالى المنتقم لم يطلق فى القرآن إلا مع متعلقه كقوله تعالى: ﴿**إنا من المجرمين منتقمون**﴾ (السجدة: ٢٢) أو بإضافة ذو إلى الصفة المشتق منها كقوله تعالى: ﴿**والله عزيز ذو انتقام**﴾ (آل عمران: ٤).

س٥٩: تقدم أن صفات الله -تعالى- منها ذاتية وفعلية فما مثال صفات الذات من الكتاب؟

ج: مثل قوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ (المائدة: ٦٤) ﴿**كل شىء هالك إلا وجهه**﴾ (القصص: ٨٨) ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ (الرحمن: ٢٧) ﴿**ولتصنع على عينى**﴾ (طه: ٣٩) ﴿**أبصر به وأسمع**﴾ (الكهف: ٢٦) ﴿**إننى معكما أسمع وأرى**﴾ (طه: ٤٦) ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه**﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿**وكلم الله موسى تكليمًا**﴾ (النساء: ١٦٤) ﴿**وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين**﴾ (الشعراء: ١٠) ﴿**وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة**﴾ (الأعراف: ٢٢) ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾ (القصص: ٦٥)؛ وغير ذلك.

س٦٠: ما مثال صفات الذات من السنة؟

ج: كقوله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقوله ﷺ: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض». وقوله ﷺ: فى حديث الدجال «إن الله لا يخفى عليكم إن الله ليس بأعور» وأشار بيده إلى عينه الحديث ؛ وفى حديث الاستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب» الحديث. وقوله ﷺ «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا» وقوله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى» الحديث، وفى حديث البعث: «يقول الله -تعالى-: يا آدم فيقول لبيك» الحديث، وأحاديث كلام الله لعباده فى الموقف وكلامه لأهل الجنة وغير ذلك ما لا يحصى.

س٦١: ما مثال صفات الأفعال من الكتاب؟

ج: مثل قوله تعالى: **﴿ثم استوى إلى السماء﴾** (البقرة: ٢٩) وقوله: **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾** (البقرة: ٢١٠) الآية وقوله تعالى: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾** (الزمر: ٦٧) وقوله تعالى: **﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾** (ص: ٧٥) وقوله تعالى: **﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شيء﴾** (الأعراف: ١٤٥) وقوله تعالى: **﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا﴾** الأعراف: ١٤٣) وقوله تعالى: **﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾** (الحج: ١٨) وغيرها من الايات.

س ٦٢: ما مثال صفات الأفعال من السنة؟

ج: مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر» الحديث. وقوله ﷺ: فى حديث الشفاعة: «فيأتيهم الله فى

صورته التى يعـرفون فـيقول: أنا ربكم فـيقولون: أنت ربنـا» الحديث ؛ ونعنى بصفة الفعل هنا الإتيان لا الصورة فافهم. وقوله ﷺ: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السمـوات بيمينه ثم يقول أنا الملك» الحـديث. وقوله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب بيـده على نفسه إن رحـمتى تغلب غضـبى». وفى حديث احتجاج آدم وموسى: «فقال آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده» فكلامه تعالى ويده صفتا ذات وتكلمه صفة ذات وفعل معًا، وخطه التوراة صفة فعل ؛ وقوله ﷺ : «إن الله -تعالى- يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» الحديث ؛ وغيرها كثير.

س٦٣: هل يشق من كل صفات الأفعال أسماء أم أسماء الله كلها توقيفية؟

ج: لا بل أسماء الله -تعالى- كلها توقيفية لا يسمى إلا بما سمى به نفسه فى كتابه أو أطلقه عليه رسول الله ﷺ وكل فـعل أطلقه الله -تعالى- على نفسه فهو فـيما أطلق فيه مـدح وكمال، ولكن ليس كلها وصف الله به نفـسه مطلقًا، ولا كلها يشتق منها أسماء، بل منها ما وصف به نفسه مطلقًا كقوله تعالى: ﴿الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ (الروم: ٤٠) وسمى نفسه الخالق، الرزاق المحيى، المميت، المدبر ؛ ومنها أفعـال أطلقها الله -تعالى- على نفـسه على سبيل الجزاء وهى فيما سيقت له مدح وكمال كقوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ (النسـاء: ١٤٢) ﴿ومكروا ومكـر الله والله خيـر الماكـرين﴾ (آل عمران: ٥٤) ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة: ٦٧) ولكن لا يجوز إطلاقها على الله فى غير ما سـيقت فيه من الآيات، فلا يقال أنه تعالى يمكر ويخـادع ويستهزىء ونحو ذلك ؛ وكذلك لا يقال مـاكر، مخادع، مستـهزىء، ولا يقوله مسلم ولا عاقل، فـإن الله - عز وجل - لم يصف نفـسه بالمكر والكيـد والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق وقد علم أن المجازاة على ذلك بالعدل حسنة من المخلوق فكيف من الخلاق العليم العدل الحكيم.

س٦٤: ماذا يتضمن اسمه العلى الأعلى وما فى معناه كالظاهر والقاهر والمتعالى؟

ج: يتضمن اسمه العلى الأعلى الصفـة المشتقة منها وهو ثبوت العلو له -

عز وجل - بجميع معانيه، علو فوقيته تعالى على عرشه، عال على جميع خلقه، بائن منهم، رقيب عليهم يعلم ما هم عليه، قد أحاط بكل شيء علمًا لا تخفى عليه منهم خافية. وعلو قهره فلا مغالب له ولا منازع ولا مضاد ولا مانع، بل كل شيء خاضع لعظمته، ذليل لعزته مستكين لكبريائه، تحت تصرفه وقهره لا خروج له من قبضته. وعلو شأنه، فجميع صفات الكمال له ثابتة، وجميع النقائص عنه منفية - عز وجل - وتبارك وتعالى، وجميع هذه المعاني للعلو متلازمة لا ينفك معنى منها عن الآخر.

س٦٥: ما دليل علو الفوقية من الكتاب؟

ج: الأدلة الصريحة عليه لا تعد ولا تحصى، فمنها هذه الأسماء وما في معناها، ومنه قوله: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ (طه: ٥) في سبعة مواضع من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿**ءأمنتم من في السماء**﴾ (الملك: ١٦) الآيتين، ومنها قوله تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ (النحل: ٥٠) ومنها قوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ (فاطر: ١٠) وقوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه**﴾ (المعارج: ٤) وقوله: ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض**﴾ (السجدة: ٥) وقوله تعالى: ﴿**يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ**﴾ (آل عمران: ٥٥) وغير ذلك كثير.

س٦٦: ما دليل ذلك من السنة؟

ج: أدلته من السنة كثيرة لا تحصى، ومنها قوله ﷺ في حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك والله فوق العرش وهو يحكم الملك من فوق سبعة أرقعة» وقوله ﷺ للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء قال: «اعتقها فإنها مؤمنة» وأحاديث معراج النبي ﷺ وقوله ﷺ في حديث تعاقب الملائكة: «ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم» الحديث. وقوله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب» الحديث. وقوله ﷺ: في حديث الوحي: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان» الحديث، وغير ذلك كثير، وقد أقر

بذلك جميع المخلوقات إلا الجهمية.

س٦٧: ما ذا قال أئمة الدين من السلف الصالح فى مسألة الاستواء؟

ج: قولهم بأجمعهم رحمهم الله -تعالى-: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق والتسليم، وهذا قولهم فى جميع آيات الأسماء والصفات وأحاديثها: ﴿**آمنا به كل من عند ربنا**﴾ (آل عمران: ٧) ﴿**آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾ (آل عمران: ٥٢).

س٦٨: ما دليل علو القهر من الكتاب؟

ج: أدلته كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ (الأنعام: ١٨) وهو متضمن لعلو القهر والفوقية. وقوله تعالى: ﴿**سبحانه هو الله الواحد القهار**﴾ (الزمر: ٤) وقوله تعالى: ﴿**لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار**﴾ (غافر: ١٦) وقوله تعالى: ﴿**قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار**﴾ (ص: ٦٥) وقوله تعالى: ﴿**وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**﴾ (هود: ٥٦) ؛ وقوله تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**﴾ (الرحمن: ٣٣) وغير ذلك من الآيات.

س٦٩: ما دليل ذلك من السنة؟

ج: أدلته من السنة كثيرة منها قوله ﷺ: «أعوذ بك من شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها» وقوله ﷺ: «اللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك» الحديث وقوله ﷺ: «إنك تقضى ولا يقضى عليك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت» وغير ذلك كثير.

س٧٠: ما دليل علو الشأن وما الذى يجب نفيه عن الله - عز وجل -؟

ج: اعلم، أن علو الشأن هو ما تضمنه اسمه القدوس، السلام، الكبير، المتعال وما فى معناها واستلزمه جميع صفات كماله ونعوت جلاله. فتعالى فى أحديته أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا له أو ظهيرًا أو شفيعًا

عنده بدون إذنه أو عليه يجير، وتعالى فى عظمته وكبريائه، وملكوته وجبروته، عن أن يكون له منازع أو مغالب أو ولى من الذل أو نصير، وتعالى فى صمديته عن الصاحبة والولد، والوالد، والكفؤ، والنظير وتعالى فى كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت، والسنة، والنوم، والتعب والإعياء، وتعالى فى كمال علمه عن الغفلة والنسيان، وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه فى الأرض أو فى السماء، وتعالى فى كمال حكمته وحمده عن خلق شىء عبثًا وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهى ولا بعث ولا جزاء، وتعالى فى كمال عدله عن أن يظلم أحدًا مثقال ذرة أو أن يهضمه شيئًا من حسناته ؛ وتعالى فى كمال غناه عن أن يُطعم أو يُرزق أو يفتقر إلى غيره فى شىء، وتعالى فى جميع ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله عن التعطيل والتمثيل، وسبحانه وبحمده وعز وجل، وتبارك وتعالى، وتنزه وتقدس عن كل ما ينافى إلهيته وربوبيته وأسماءه الحسنى وصفاته العلى: **﴿وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾** (الروم: ٢٧) ونصوص الوحى من الكتاب والسنة فى هذا الباب معلومة ومفهومة من كثرتها وشهرتها.

س٧١: ما معنى قوله ﷺ فى الأسماء الحسنى: «ومن أحصاها دخل الجنة»؟

ج: قد فسر ذلك بمعانى منها: حفظها ودعاء الله بها والثناء عليه بجميعها. ومنها: أن ما كان يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها فيما يليق به ؛ وما كان يختص به نفسه تعالى كالجبار، والعظيم، والمتكبر فعلى العبد الإقرار بها والخضوع لها وعدم التحلى بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد كالغفور، الشكور، العفو، الرؤوف، الحليم، الجواد، الكريم فليقف منه عند الطمع والرغبة ؛ وما كان فيه معنى الوعيد كعزيز ذى انتقام، شديد العقاب، سريع الحساب، فليقف منه عند الخشية والرهبة. ومنها: شهود العبد إياها وإعطاؤها حقها معرفة وعبودية مثاله من شهد علو الله -تعالى- على خلقه وفوقيته عليهم واستواءه على عرشه بائنًا من خلقه مع إحاطته بهم علمًا وقدرة وغير ذلك، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه

صمدًا يعرج إليه مناجيًا له مطرقًا، واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز، فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه، معروض عليه، فيستحى أن يصعد إليه من كلمه وعمله ما يخزيه ويفضحه هنالك، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف، من الإماتة والإحياء، والإعزاز والإذلال، والخفض والرفع، والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله، ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لا يتصرف فيها سواه، فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء: ﴿**يدبر الأمر فى السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**﴾ (السجدة: ٥) فمن وفى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية فقد استغنى بربه وكفاه، وكذلك من شهد علمه المحيط، وسمعه وبصره، وحياته وقيوميته وغيرها ولا يُرزق هذا المشهد إلا السابقون المقربون.

س٧٢: ما ضد توحيد الأسماء والصفات؟

ج: ضده الإلحاد فى أسماء الله وصفاته وآياته وهو ثلاثة أنواع:

الأول: إلحاد المشركين الذين عدلوا بأسماء الله -تعالى- عما هى عليه وسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا فاشتقوا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

الثانى: إلحاد المشبهة الذين يكيفون صفات الله -تعالى-، ويشبهونها بصفات خلقه وهو مقابل لإلحاد المشركين، فأولئك سووا المخلوق برب العالمين، وهؤلاء جعلوه بمنزلة الأجسام المخلوقة وشبهوه بها تعالى وتقدس.

الثالث: إلحاد النفاة المعطلة وهم قسمان: قسم أثبتوا ألفاظ أسمائه تعالى ونفوا عنه ما تضمنته من صفات الكمال فقالوا: رحمن رحيم بلا رحمة، عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، واطردوا بقيتها كذلك.

وقسم صرحوا بنفى الأسماء ومتضمناتها بالكلية ووصفوه بالعدم المحض

الذى لا اسم له ولا صفة، سبحان الله -تعالى- عما يقول الظالمون الجاحدون الملحدون علواً كبيراً ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًا** ﴾ (مريم: ٦٥) ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى: ١١) ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً** ﴾ (طه: ١١٠).

س٧٣ : هل جميع أنواع التوحيد متلازمة فينافيها كلها ما ينافى نوعًا منها؟

ج: نعم هى متلازمة فمن أشرك فى نوع منها فهو مشرك فى البقية، مثال ذلك دعاء غير الله وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله، فدعاؤه إياه عبادة بل مخ العبادة صرفها لغير الله من دون الله فهذا شرك فى الألوهية، وسؤاله اياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع شر معتقداً أنه قادر على قضاء ذلك ؛ هذا شرك فى الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله فى ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء من دون الله إلا مع اعتقاده أن يسمعه على البعد والقرب فى أى وقت كان، وفى أى مكان ويصرحون بذلك وهو شرك فى الأسماء والصفات، حيث أثبت له سمعًا محيطًا بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد فاستلزم هذا الشرك فى الألوهية، الشرك فى الربوبية والأسماء والصفات.

س٧٤ : ما الدليل على الإيمان بالملائكة من الكتاب والسنة؟

ج: أدلة ذلك من الكتاب كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض** ﴾ (الشورى: ٥) وقوله تعالى: ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ (الأعراف: ٢٠٦) وقوله تعالى: ﴿ **من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ (البقرة: ٩٨) وتقدم الإيمان بهم من السنة فى حديث جبريل وغيره وفى صحيح مسلم « أن الله تعالى خلقهم من نور »، والأحاديث فى شأنهم كثيرة.

س٧٥ : ما معنى الإيمان بالملائكة؟

ج: هو الإقرار الجازم بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله مربوبون

مسخرون و﴿ **عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ (الأنبياء: ٢٦ - ٢٧) ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (التحريم: ٦) ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ (الأنبياء: ١٩ - ٢٠)، ولا يسأمون ولا يستحسرون.

س٧٦ : اذكر بعض أنواعهم باعتبار ما هيأهم الله له ووكلهم به؟

ج: هم باعتبار ذلك أقسام كثيرة، فمنهم: الموكل بأداء الوحى إلى الرسل وهو الروح الأمين جبريل -عليه السلام-. ومنهم الموكل بالقطر وهو ميكائيل -عليه السلام-. ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل -عليه السلام-. ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه. ومنهم الموكل بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون. ومنهم الموكل بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات. ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه. ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه من الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر. ومنهم الموكل بفتنة القبر وهم منكر ونكير، ومنهم حملة العرش. ومنهم الكروبيون ومنهم الموكل بالنطف فى الأرحام من تخليقها وكتابة ما يراد بها. ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر. ومنهم صفوف قيام لا يفترقون. ومنهم ركع سجد لا يرفعون. ومنهم غير من ذكر ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر** ﴾ (المدثر: ٣١) ونصوص هذه الأقسام من الكتاب والسنة لا تخفى.

س٧٧ : ما دليل الإيمان بالكتب؟

ج: أدلته كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل** ﴾ (النساء: ١٣٦) وقوله تعالى: ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم** ﴾ (البقرة: ١٣٦) الآيات وغيرها كثير ويكفى فى ذلك قوله تعالى:

﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ (الشورى: ١٥).

س٧٨: هل سميت جميع الكتب في القرآن؟

ج: سمى الله منها في القرآن: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وذكر الباقي جملة فقال تعالى: ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل** ﴾ (آل عمران: ٢ - ٤) وقال تعالى: ﴿ **وآتينا داود زبورًا** ﴾ (النساء: ١٦٣) وقال تعالى: ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى** ﴾ (النجم: ٣٦ - ٣٧) وقال تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (الحديد: ٢٥) فما ذكر الله منها تفصيلاً وجب علينا الإيمان به تفصيلاً. وما ذكر منها إجمالاً وجب علينا الإيمان به إجمالاً فيه ما أمر الله به ورسوله: ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ (الشورى: ١٥).

س٧٩: ما معنى الإيمان بكتب الله - عز وجل -؟

ج: معناه التصديق الجازم بأن جميعها منزل من عند الله - عز وجل - وأن الله تكلم بها حقيقة فمنها المسموع منه تعالى من وراء حجاب بدون واسطة الرسول الملكى، ومنها ما بلغه الرسول الملكى إلى الرسول البشرى، ومنها ما كتبه الله -تعالى- بيده كما قال تعالى: ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾ (الشورى: ٥١) وقال تعالى لموسى: ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى** ﴾ (الأعراف: ١٤٤) ﴿ **وكلم الله موسى تكليمًا** ﴾ (النساء: ١٦٤) وقال تعالى في شأن التوراة: ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء** ﴾ (الأعراف: ١٤٥) وقال في عيسى: ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ (المائدة: ٤٦) وقال تعالى: ﴿ **وآتينا داود زبورًا** ﴾ (النساء: ١٦٣) وتقدم ذكرها بلفظ التنزيل. وقال تعالى في شأن القرآن: ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا** ﴾ (النساء: ١٦٦) وقال تعالى فيهم: ﴿ **وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً** ﴾ (الإسراء: ١٠٦) وقال تعالى فيه: ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين.**

على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ (الشعراء : ١٩٢–١٩٥) الآيات، وقال تعالى فيه : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾** (فصلت : ٤١ – ٤٢) الآيات، وغيرها كثير.

س٨٠ : ما منزلة القرآن من الكتب المتقدمة ؟

ج : قال الله –تعالى– فيه : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ﴾** (المائدة : ٤٨) وقال تعالى : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾** (يونس : ٣٧) وقال تعالى : ﴿ **ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾** (يوسف : ١١١) قال أهل التفسير : مهيمنًا مؤتمنًا وشاهداً على ما قبله من الكتب، ومصدقًا لها يعنى يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾** (القصص : ٥٢ – ٥٣) وغير ذلك .

س٨١ : ما الذى يجب التزامه فى حق القرآن على جميع الأمة ؟

ج : هو اتباعه ظاهراً وباطنًا والتمسك به والقيام بحقه قال الله –تعالى– : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا ﴾** (الأنعام : ١٥٥) وقال الله –تعالى : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾** (الأعراف : ٣) وقال تعالى : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾** (الأعراف : ١٧٠) وهى عامة فى كل كتاب والآيات فى ذلك كثيرة . وأوصى النبى ﷺ بكتاب الله فقال : « فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به » وفى حديث على مرفوعًا « أنها ستكون فتن » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله قال : « كتاب الله » وذكر الحديث .

س٨٢: ما معنى التمسك بالكتاب والقيام بحقه؟

ج: حفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله، وتحريم حرامه والانقياد لأوامره. والانزجار بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والوقوف عند حدوده، والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين، والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إلى ذلك على بصيرة.

س٨٣: ما حكم من قال بخلق القرآن؟

ج: القرآن كلام الله - عز وجل - حقيقة حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، تكلم الله به قولاً وأنزله على نبيه وحيًا وآمن به المؤمنون حقًا فهو وإن خط بالبنان وتلي باللسان وحفظ بالجنان وسمع بالآذان وأبصرته العينان لا يخرجه ذلك عن كونه كلام الرحمن، فالأنامل والمداد والأقلام والأوراق مخلوقة والمكتوب بها غير مخلوق والألسن والأصوات مخلوقة والمتلو بها على اختلافها غير مخلوق، والصدور مخلوقة والمحفوظ فيها غير مخلوق، والأسماع مخلوقة والمسموع غير مخلوق، قال الله -تعالى-: ﴿**إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون**﴾ (الواقعة: ٧٧ - ٧٨) وقال تعالى: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون**﴾ (العنكبوت: ٤٩) وقال تعالى: ﴿**اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته**﴾ (الكهف: ٢٧) وقال تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**﴾ (التوبة: ٦) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أديموا النظر في الصحف» والنصوص في ذلك لا تحصى. ومن قال القرآن أو شيء من القرآن مخلوق فهو كافر كفرًا أكبر يخرجه من الإسلام بالكلية، لأن القرآن كلام الله -تعالى- منه بدأ وإليه يعود وكلامه صفته ومن قال شيء من صفات الله مخلوق فهو كافر مرتد يعرض عليه الرجوع إلى الإسلام فإن رجع وإلا قتل كفرًا، ليس له شيء من أحكام المسلمين.

س٨٤: هل صفة الكلام ذاتية أو فعلية؟

ج: أما باعتبار تعلق صفة الكلام بذات الله - عز وجل - واتصافه تعالى بها فمن صفات ذاته كعلمه تعالى بل هو من علمه وأنزله بعلمه وهو أعلم بما ينزل، وأما باعتبار تكلمه بمشيئته وإرادته فصفة فعل كما قال النبى ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى» الحديث. ولهذا قال السلف الصالح رحمهم الله فى صفة الكلام: إنها صفة ذات وفعل معًا. فالله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متصفًا بالكلام أزلاً وأبدًا وتكلمه وتكليمه بمشيئته وإرادته فيتكلم إذا شاء متى شاء، وكيف شاء، بكلام يسمعه من يشاء، وكلامه صفته لا غاية له ولا انتهاء، ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً**﴾ (الكهف: ١٠٩) ﴿**ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾ (لقمان: ٢٧) ﴿**وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾ (الأنعام: ١١٥).

س٨٥: من هم الواقفة وما حكمهم؟

ج: الواقفة هم الذين يقولون فى القرآن لا نقول هو كلام الله ولا نقول مخلوق. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (من كان منهم يحسن الكلام فهو جهمى ومن كان لا يحسنه بل كان جاهلاً بسيطًا فهو تقام عليه الحجة بالبيان والبرهان فإن تاب وآمن بأنه كلام الله تعالى غير مخلوق. وإلا فهو شر من الجهمية).

س٨٦: ما حكم من قال لفظى بالقرآن مخلوق؟

ج: هذه العبارة لا يجوز إطلاقها نفيًا ولا إثباتًا لأن اللفظ معنى مشترك بين التلفظ الذى هو فعل العبد، وبين الملفوظ به الذى هو القرآن، فإذا أطلق القول بخلقه شمل المعنى الثانى، ورجع إلى قول الجهمية، وإذا قيل غير مخلوق شمل المعنى الأول الذى هو فعل العبد وهذا من بدع الاتحادية، ولهذا قال السلف الصالح رحمهم الله -تعالى-. من قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع.

س٨٧: وما دليل الإيمان بالرسل؟

ج: أدلته كثيرة من الكتاب والسنة منها قوله تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم**﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥٢) وقال النبى ﷺ: «آمنت بالله ورسله».

س٨٨: ما معنى الإيمان بالرسل؟

ج: هو التصديق الجازم بأن الله -تعالى- بعث فى كل أمة رسولاً منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده والكفر بما يُعْبد من دونه وأن جميعهم صادقون مصدقون بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون ؛ وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به لم يكتموا، ولم يغيروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفًا، ولم ينقصوه ﴿**فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**﴾ (النحل: ٣٥) وأنهم كلهم كانو على الحق المبين. وأن الله اتخذ إبراهيم خليلا، واتخذ محمداً ﷺ خليلا وكلم موسى تكليمًا، ورفع إدريس مكانًا عليًا، وإن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الله فضل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات.

س٨٩: هل اتفقت دعوة الرسل فيم يأمرون به وينهون عنه؟

ج: اتفقت دعوتهم من أولهم إلى آخرهم على أصل العبادة وأساسها، وهو التوحيد بأن يفرد الله -تعالى- بجميع أنواع العبادة اعتقادًا وقولاً وعملاً ويُكفر بكل ما يعبد من دونه. وأما الفروض المتعبد بها، فقد يفرض على هؤلاء من الصلاة والصوم ونحوها ما لا يفرض على الآخرين، ويحرم على هؤلاء ما يحل للآخرين امتحانًا من الله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ (هود: ٧).

س٩٠: ما الدليل على اتفاقهم فى أصل العبادة المذكورة؟

ج: الدليل على ذلك من الكتاب على نوعين مجمل ومفصل: أما المجمل

فمثل قوله تعالى: ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ (النحل: ٣٦) وقوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (الأنبياء: ٢٥) الآيات. وأما المفصل فمثل قوله تعالى: ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ (الزخرف: ٤٥) ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (المؤمنون: ٢٣) ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدو الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (الأعراف: ٧٣) ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (الأعراف: ٨٥) ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى برآء مما تعبدون إلا الذى فطرنى** ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧) وقال موسى: ﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا** ﴾ (طه: ٩٨) ﴿ **وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار** ﴾ (المائدة: ٧٢) ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار** ﴾ (ص:٦٥) وغيرها من الآيات.

س٩١ : ما دليل اختلاف شرائعهم فى فروعها من الحلال والحرام؟

ج: قول الله – عز وجل –: ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات** ﴾ (المائدة: ٤٨) قال ابن عباس –رضى الله عنهما– (شرعة ومنهاجًا): سبيلاً وسنة، ومثله قال مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وقتادة والضحاك والسدى وأبو إسحاق السبيعى. وفى صحيح البخارى قال النبى ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد**» يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله؛ أما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى والحلال والحرام ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ (هود: ٧).

س٩٢ : هل قص الله جميع الرسل فى القرآن؟

ج: قد قص الله علينا من أنبائهم ما فيه كفاية وموعظة وعبرة ثم قال تعالى: ﴿ **ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك** ﴾ (النساء:

١٦٤) فنؤمن بجميعهم تفصيلاً فيما فصل، وإجمالاً فيما أجمل.

س٩٣: كم سمى منهم فى القرآن؟

ج: سمى منهم فيه آدم، ونوح، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وشعيب، ويونس، وموسى، وهارون، وإلياس، وزكريا، ويحيى، واليسع، وذا الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب -وذكر الأسباط جملة- وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

س٩٤: من هم أولو العزم من الرسل؟

ج: هم خمسة ذكرهم الله - عز وجل - على انفرادهم فى موضعين من كتابه: الموضع الأول: فى سورة الأحزاب وهو قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾ (الأحزاب: ٧) الآية، الموضع الثانى: فى سورة الشورى وهو قوله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ (الشورى: ١٣) الآية.

س٩٥: من أول الرسل؟

ج: أولهم بعد الاختلاف نوح -عليه السلام- كما قال تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**﴾ (النساء: ١٦٣) وقال تعالى: ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم**﴾ (غافر: ٥).

س٩٦: متى كان الاختلاف؟

ج: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ (البقرة: ٢١٣).

س٩٧: من هو خاتم النبيين؟

ج: خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

س٩٨: ما الدليل على ذلك؟

ج: قال الله -تعالى-: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ (الأحزاب: ٤٠) وقال النبى ﷺ: «إنه سيكون بعدى كذابون ثلاثون كلهم يدعى أنه نبى وأنا خاتم النبيين ولا نبى بعدى» وفى الصحيح قوله لعلى -رضى الله عنه-: «ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ألا أنه لا نبى بعدى» وقوله ﷺ فى حديث الدجال: «وأنا خاتم النبيين ولا نبى بعدى» وغير ذلك كثير.

س٩٩: بماذا اختص نبينا محمد ﷺ عن غيره من الأنبياء؟

ج: له ﷺ خصائص كثيرة قد أفردت بالتصنيف منها: كونه خاتم النبيين كما ذكرنا. ومنها: كونه ﷺ سيد ولد آدم كما فسر به قوله تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات**﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ومنها: بعثه ﷺ إلى الناس عامة جنهم وإنسهم كما قال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا**﴾ (الأعراف: ١٥٨) الآية وقال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ (سبأ: ٢٨) وقال ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وله ﷺ من الخصائص غير ما ذكرنا فتتبعها من النصوص.

●●●

ختامه مسك

١- المؤلف من مواليد قرية نجع حمد / طهطا / سوهاج جمهورية مصر العربية.

٢- قام بتأسيس ورئاسة جمعية أهل القرآن والسنة ويعمل واعظًا وخطيبًا ومدرسًا بمساجدها ومعاهدها.

٣- ولا يفوتنى إلا أن أشكر وأبالغ فى الثناء على الله (تعالى) ثم لكل من قدم لى العون والمساعدة فى إخراج هذا السفر النافع وفى مقدمتهم صديقى الحميم الحاج محمد على بيضون وأولاده، وأولادى أحمد وسمير وعادل وعبد العال وعمرو ووالدتهم وأحفادى إلاء وآية وعبد الله وعلى وحسام الدين ونهى وهيام على ما قدموه لى من مساعدة.

٤- كما أسأل الله (تعالى) أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

٥- سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الشيخ / على أحمد عبد العال الطهطاوى

٦ شارع المهدى بجزيرة الذهب بالجيزة

تليفاكس : ٥٧٢٣٥٣٧ / ٧٧٤٤٧٢٠

محمول : ٠١٢/٣٤٩٠١٣١

الجمعة ٢ من شعبان ١٤٢٢هـ - ٩/ ١٠/ ٢٠٠١م

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

المقدمة ٣
تمهيد ٤
أولاً : قواعد وأصول في منهج التلقي والاستدلال ٥
ثانيًا : التوحيد العلمي الاعتقادي ٧
ثالثًا : التوحيد الإرادي الطلبي (توحيد الألوهية) ٩
رابعًا : الإيمان ١٢
خامسًا : القرآن والكلام ١٤
سادسًا: القدر ١٥
سابعًا الجماعة والإمامة ١٦
أهم خصائص أهل السنة والجماعة وسماتهم ١٨
السنة : أقسامها ، منزلتها من القرآن ، وظيفتها ، فضلها ٢٠
أقسام السنة ٢١
أولاً : السنة الفعلية ٢١
ثانيًا : السنة التركية ٢٣
الرد على القائلين بأن الخلفاء الراشدين فعلوا أمورًا تركها النبيّ ﷺ ٢٣
ما يفعل أو يترك وليس بحرام ولا بمكروه ٢٤
مكانة السنة من القرآن الكريم ووظيفتها ٢٥
الأمر باتباع السنة ثابت في القرآن الكريم ٢٦
السنة باب النجاة من تيه الغرباء ٣٠
البدعة ٣١
ذم البدع والتحذير منها ٣٢
إرشادات تربوية في ظل التحذير من البدع ٣٢
أقسام البدعة ٣٧
أولاً : البدعة الحقيقية ٣٧
ثانيًا: البدعة الإضافية ٣٨

البدعة في ظل الأحكام الخمسة ٤٠
أسباب اختلاف الأئمة في فقه القرآن والسنة ٤٣
أولاً : أسباب الاختلاف التي تعم القرآن والسنة ٤٣
أسباب الاختلاف التي تخص السنة وحدها ٦٧
الاختلاف الذي يخص السنة من جهة التقرير ٦٩
القضاء بالقرائن ٧١
وجود الله تعالى ٧٣
توحيد الله عز وجل ٨٠
الدعاء أهم العبادات القولية ١١٥
الاستعاذة ١٢٠
عود على بدء ١٢١
شغب القبوريون ١٢٦
الاستنجاد بأصحاب القبور ١٢٧
الحلف بغير الله تعالى ١٢٨
أقوال شركية ١٣٠
العبادات البدنية ١٣١
الصلاة دواء ١٣٢
الصوفية يزعمون أن الصلاة سقطت عنهم ١٣٣
الرياء هو الشرك الأصغر ١٣٣
حكم التبرك بأصحاب القبور ١٣٤
حكم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ١٣٥
الصيام من العبادات البدنية ١٣٥
حكم من يحرم نفسه من طعام معين ١٣٧
حكم الإسراف في الطعام ١٣٧
الحج من العبادات البدنية ١٣٨
الحكمة من تقبيل الحجر الأسود ١٤٠
الحكمة من رمي الجمار ١٤٠
العبادات المالية ١٤١
الصدقة ١٤٢

الفقراء المجاورين عند الأضرحة ١٤٢
حكم النذر ١٤٣
فصل لربك وانحر ١٤٤
الأسماء والصفات ١٤٥
السلف أعلم من الخلف ١٤٨
أسماء الله تعالى ١٤٩
صفات الله تعالى ١٥١
صفات الله تعالى نوعان ١٥٢
الأسماء الحسنى ١٥٣
الله ١٥٤
الرب ١٥٧
الرحمن الرحيم ١٥٨
الأسماء التي هي مدار الأسماء الحسنى ١٥٩
الملك ١٥٩
القدوس ١٦٠
السلام ١٦١
المؤمن ١٦٢
المهيمن ١٦٣
العزيز ١٦٤
الجبار ١٦٥
المتكبر ١٦٥
الخالق البارئ المصور ١٦٥
الغفار ١٦٦
القهار ١٦٧
الوهاب ١٦٨
الرزاق ١٦٩
الفتاح ١٧٣
العليم ١٧٤
السميع والبصير ١٧٨

الحكم ١٨١
العدل ١٨٣
اللطيف والخبير ١٨٤
قول الإمام ابن القيم ١٨٥
قول الشيخ السعديّ ١٨٦
الحليم والعليم ١٨٧
العظيم ١٨٨
العليّ ١٩٠
الجليل والجميل ١٩٣
الحسيب ١٩٥
الرقيب والشهيد ١٩٧
النور ١٩٩
الوليّ والوالي ٢٠٢
الودود والشكور ٢٠٦
الشكر من الصفات المشتركة ٢٠٩
الشاكر والشكور ٢٠٩
المقسط والجامع ٢١٠
النبيّ ﷺ سيد الناس يوم القيامة ٢١٢
الباعث والوارث ٢١٣
الشهيد ٢١٦
الحق ٢١٨
البديع والهادي ٢١٩
الرشيد والصبور ٢٢٤
الواجد ٢٢٧
الماجد والمجيد ٢٢٨
١٠٠ سؤال وجواب في أهم أمور الاعتقاد ٢٤١
ختامه مسك ٢٧٦